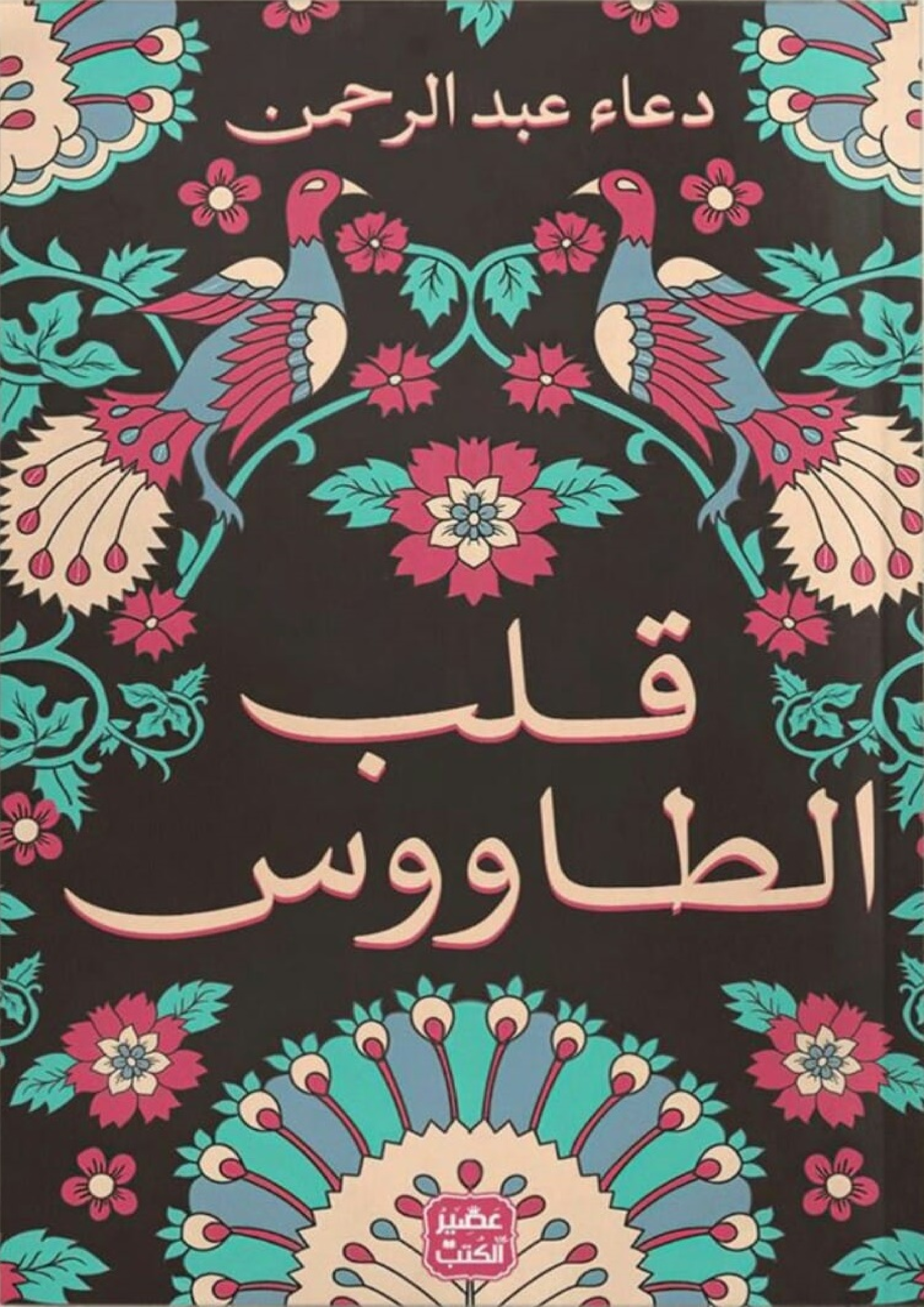

دعاء عبد الرحمن
قلب
الطاووس
عصير
الكتب

قلب
الطاووس



دعاء عبد الرحمن

رواية

قلب الطاووس





إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

- المؤلف: دعاء عبد الرحمن
- تدقيق لغوي: د. مصطفى رأفت سعد
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

- الطبعة الأولى: يونيو / 2021م
- رقم الإيداع: 2021/15171م
- الترقيم الدولي: 978-977-6902-23-7

الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تُعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار



الرحلة

قامت بتثبيت حزامِ أمانِ مقعدها بالطائرة المتجهة من القاهرة إلى جدة، واسترخت تتنفس بعمقٍ مغلقةً عينيها مبتسمةً ببعض التوتر، ستقضي ساعتين فوق السحاب تتابع دقات قلبها المضطرب فهي تجربتها الأولى!

شعرت بيد المرأة التي تجلس جوارها تربت على ظهر كف يدها تُطمئنها وتبتسم، بادلتها «دارين» ابتسامتها بأخرى ممتنة.

وبعد أن صدح الصوت الهادئ في جنبات الطائرة يتمنى لهم رحلةً سعيدةً ويسمح لهم بالتحرر من أحزمتهم، مالت المرأة نحوها تساعدها في حل حزامها بابتسامةٍ داعمةٍ، فتأملتها «دارين» متفحصةً لملامحها الجميلة وبشرتها الخمرية الجذابة ووشاحها القاتم الملتف حول نحرها والذي انزلق بخفةٍ من فوق شعرها الفاحم مفارقًا إياه متهدلًا طرفاه على كتفيها، وهمست بخجلٍ مَرِحٍ من موقفها الطفولي:

- كنتُ أشاهد الطائرات في التلفاز فقط!

مالت المرأة نحوها قليلًا تبادلها المزاح لتخفف عنها توترها:

- أما أنا فقد سافرت بالطائرة مراتٍ عديدةً، وبرغم ذلك لا أتوقف عن الصراخ عندما أستقل الأفعوانية الموجودة في حديقة الأطفال!

وعندما ضحكت «دارين» بخفوتٍ وقد بدأت تعود إلى طبيعتها الهادئة، مدت يدها تصافح المرأة لتقدم نفسها بشكلٍ لائقٍ قائلةً:

- أنا «دارين». مصريةٌ وأكتب في مجلةٍ نسائيةٍ أسبوعيةٍ مقالاتٍ وقصصًا متنوعة.

رفعت المرأة حاجبيها محافظةً على ابتسامتها الهادئة قائلةً بدهشة:

- لقد بدوت مألوفةً جدًا لي منذ جلستك جواري، عرفتك من الصورة المصغرة التي تضعينها أعلى مقالاتك.

أومأت «دارين» بخجلٍ غيرَ مصدقةٍ بأنها نالت هذا القسط من الشهرة خارج حدود وطنها، وأن أحدًا ما يلاحظ الصور المصغرة جوار المقالات من الأساس، بل ويحفظ في ذاكرته ملامح أصحابها، ولكنها النساء!

- أنا «أم سهل» من جدة. هل الرحلة لزيارة معرض الكتاب هناك؟

رفعت «دارين» حاجبيها دهشةً لثوانٍ قليلة، ولكن لِمَ الدهشة فالمرأة تبدو ذكيةً للغاية ومن المنطقي أن تربط توقيت رحلتها بعملها ككاتبة بتزامن كل ذلك مع موعد إقامة المعرض.

قاطعت «أم سهل» أفكارها ضاحكةً بخفةٍ مشيرةً إلى جبهتها إعجابًا بفطنتها قائلة:

- والله أنا خطيرة خطيرة.

تبادلتا الضحكات الخافتة مما جعل «دارين» تعتادها سريعًا وتشعر بالراحة في حديثها، ووجدت بأنه لا بأس من أن تأتنس بها حتى تحط الطائرة.

شكرت أقدارها لأنها وضعتها جوار هذه السيدة اللطيفة لتُنْسِيَها هؤلاء الأربعة الذين لمحتهم بمجرد ولوجها من باب الطائرة يجلسون في المقاعد الخلفية متناثرين بعيدًا عن بعضهم البعض!

بالتأكيد تواجدهم معها في نفس رحلتها صدفة، فهم أيضًا يعملون في مجال الأدب والثقافة وتواجدهم في معرض جدة أمرٌ طبيعي كتواجدها تمامًا، لكن الأمر غير الطبيعي هو أنها تعرف أحدهم معرفةً تامةً وعلى يقينٍ بأنه لا يمكن أن يدفع جنيهًا واحدًا في رحلة كهذه!

تُرَى.. هل تلقى دعوةً مجانيةً كما حدث معها؟! صدفةٌ غريبةٌ وخيالية!

فكرت لوهلة في البداية أن تقوم بإلغاء رحلتها وتغادر ضاربةً بعرض الحائط الدعوة والزيارة ومالك دار النشر الذي ينتظرها هناك، لكنها تراجعت في اللحظة الأخيرة، لن تدعه يهدم مستقبلها كما حطم ماضيها.

فجأةً زفرت بقنوطٍ وهي تتخيل رد فعل الرجل عندما تخبره أنها لم تكتب حرفًا، بينما هو كان ينتظرها قبل أحد عشر شهرًا عندما تقابلا في معرض القاهرة وعرض عليها أن تعمل معه وأن تُسلِّمه مسودةً ورقيةً من عملها الجديد يدًا بيد كما كان يفعل الأدباء القدامى، قال حينها بأن هذه الطريقة ستساعدها على خوض غمار الكتابة مجددًا.

ولقد وافقت. ولِمَ لا؛ فهي مُهددة بالطرد من عملها بالمجلة لأن أفكارها قد نضبت وكل ما تفعله هو إعادة مقالاتها وقصصها القديمة في ثوبٍ جديدٍ، ولا توجد دار نشرٍ واحدةٍ تريد التعامل معها؛ بسبب تطاولها على الرجال بألفاظ غير مهنية، وتسبب مقالاتها الكثير من البلبلة والإزعاج، فلا أحد يريد أن تصله دعوى قضائية تطالبه بالتعويض

من تحت رأس نسويتها المتفاقمة بلا حدودٍ ولا رادع، حتى أحكام الدين تشكك بها: الإرث، التعدد، الحقوق الزوجية.. إلخ.

وافقت برعونة، دون أن تعرف أي معلومةٍ حقيقيةٍ عن الرجل، وظلت طيلة الشهور الماضية ترد على رسائله بأنها أوشكت على الانتهاء بينما لم يكتب قلمها حرفًا واحدًا بخلاف اسمها.

توالت الشهور حتى وصلتها دعوته المجانية لزيارة معرض جدة، من ناحيةٍ للتعرف على ثقافاتٍ أخرى، ومن ناحيةٍ لتمنحه مسودتها كما طلب ورقيًا داخل المقر الرئيسي هناك كنوع من المراسم لديه!

وافقت بلا مبالاة. وسافرت لعلها تستطيع أن تخدعه بأي حجةٍ وتجعله ينتظر للعام القادم، وحتى وإن لم يوافق على طلبها، فيكفيها أنها سافرت دون أن تخسر شيئًا وستعود لوطنها ثانيةً وقد حازت فكرةً ما.

ابتسمت عندما تذكرت وصولها المتأخر لأرض المطار، كانت تهرول بينما الابتسامة السعيدة المتوترة لم تفارق ثغرها، كانت تشعر بنشوةٍ مفرطةٍ حتى أنها سحبت وردةً حمراء من طفلٍ يقف أمام حافة باب المطار الخارجي، يحمل بين يديه صحبةً من الورد الملفوفة بعناية، كل زهرةٍ في لفةٍ خاصةٍ وحدها ليبيعهم فُرادَى كهدايا للعائدين، وتابعت جريها للداخل تسأل كل من يقابلها أي اتجاه تسلك.

دون أن تلاحظ أنه يناديها بلهفةٍ وخوف، دون أن تلاحظ تلك الدمعة التي فرت من عينيه بينما رجل الأمن يُعيقه عن الدخول ويصيح بوجهه، دون أن تعرف مصيره من الركلات والصفعات التي سيتلاقاها من والده لأنه لم يحافظ على البضاعة.

- «دارين»!

فتحت عينيها دفعةً واحدةً، ملتفتةً نحو محدثتها التي كانت تناديها بهدوء لتستيقظ وتعتدل في جِلستها؛ كي تتمكن المضيفة من وضع الوجبة الخاصة أمامها.

أومأت بحرج؛ فلم تكن تظن أنها غفت في تلك الدقائق القليلة الماضية، وأثناء تناولها وجبتها ببطءٍ، وقد زاد خجلها أضعافًا بعدما انصرفت المضيفة دون أن تضع وجبة أخرى أمام تلك الساكنة جوارها أو حتى تسألها هل تريد وجبتها أم لا!

ألقت نحوها نظرةً جانبيةً فوجدتها بكامل تركيزها مع شاشة العرض المظلمة قبالتها فقطبت حاجبيها وسألتها:

- إلى ماذا تنظرين؟!

التفتت لها «أم سهل» مبتسمةً تجيبها:

- موعد عرض الفيلم.

وبمجرد أن أنهت عبارتها أضاءت الشاشة، فقالت «دارين» على الفور:

- يبدو أنك خطيرةٌ بالفعل!

ضحكت المرأة وعادت برأسها إلى الوراء قائلةً بحبور:

- كما أخبرتك سابقًا، رحلاتي كثيرةٌ فأصبحت لدي خبرةٌ لا بأس بها.

ما زالت الإعلانات عن خدمات شركة الطيران تتوالى على الشاشة واحدةً تلو الأخرى، بينما أنهت «دارين» وجبتها واستندت إلى المقعد كما فعلت جارتها وسألتها لتقتل وقت الانتظار:

- لماذا تسافرين كثيرًا إلى هذا الحد؟

وضعت «أم سهل» كفها على قلبها وأطلت نظرة أمومة متخمةً بالحب من عينيها وهي تقول:

- ولدي الأصغر يدرس في جامعة القاهرة ولا أطيق صبرًا على فراقه أكثر من شهر؛ فهو المتبقي لي بعد أن فقدت أخاه الأكبر «سهل».

نطقت اسمه بنبرةٍ منكسرةٍ وحنينٍ جعل مقلتيها تلتمع بدمعةٍ تنفست بعمق للتخلص منها وتمنعها من الهطول، مما جعل «دارين» تستنتج وفاته فقالت مُعتذرةً عن تطفلها:

- آسفة.

حركت المرأة رأسها رافضةً وقد فهمت ما توقعت «دارين» وقاطعتها على الفور ببعض الحدة:

- لم يمت، ما زال على قيد الحياة. كما أرجو..

أربكتها ردود أفعالها المتباينة ما بين رفضٍ وحدةٍ ثم انكسارٍ وحزن، فما استطاعت سوى أن تُرَبِّتَ على كفها بتعاطف، تنوي ألا تسألها عن التفاصيل رغم الفضول وقد اتخذت قرارًا بالصمت طيلة الوقت المتبقي، لكن قرارها ذهب بلا رجعةٍ عندنا قالت «أم سهل» مُردفةً كأنما تحادث نفسها:

- كان وسيمًا جذابًا جريئًا للغاية يهوى المغامرة...

عادت تتنفس عميقًا ثم تتابع:

- كان لديه قناة باسمه على اليوتيوب وتحديات يتنافس فيها هو وأصدقاؤه...

صمتت مُجددًا قبل أن تلتفت نحو «دارين» كأنما تشاهدها للمرة الأولى مستطردة:

- حتى جاء يوم اختفى فيه ولم نجده، بحثنا عنه في كل مكانٍ لأيامٍ ونسأل كل من يعرفه، حتى أخبرني صديقه المقرب بأن آخر فيديو قام بتصويره قال فيه بأنه سيهدم أسطورة «جبل حرفة»، وسيصعد إلى هناك ليلًا ومعه الكاميرا ليثبت للجميع أن كل ما يُقال عن هذا المكان مجرد أساطير.

همهمت «دارين» بتؤدة:

- قرأت عن هذا الجبل من قبل.

شردت المرأة بنظراتها هامسة:

- «جبل حِرفة»، ما يدور حوله من أساطيرَ تضاهي ما يُحكى عن «وادي عبقر»، يعتقد البعض أن من يزوره إما أن يعود مجنونًا أو عبقريًا أو لا يعود على الإطلاق!

ساد الصمت المطبق بينهما لا يشقه سوى موسيقى نهاية الإعلانات الترويجية وظهور عنوان الفيلم في منتصف الشاشة باللون الأحمر: «Exam».

كانت فرصةً لعدمِ التحدث في الأمر؛ فلقد تغيرت ملامح المرأة إلى الحزن الشديد والتفتت نحو شاشة العرض بجسدها كله، مما جعل «دارين» تفهم أنها لا تريد التحدث أكثر.

كان الفيلم يحكي عن ثمانية مرشحين لاختبار وظيفةٍ لكسب عقد عملٍ في إحدى الشركات الكبيرة، براتبٍ يستحق المنافسة حتى الموت، وامتيازاتٍ أخرى عديدة.

دخل المرشحون الثمانية إلى قاعةٍ مغلقة وقبل أن يتسلم كل منهم ورقة الأسئلة، أخبرهم الشخص المسؤول عن تنظيم الاختبار أن هناك قواعد، من يتجاوزها فسيكون خارج القاعة على الفور وسيتم إقصاؤه.

القاعدة الأولى: إذا حاول أحد المرشحين التواصل مع المُراقب عبر الكاميرات أو الحارس الموجود معهم بالداخل.

القاعدة الثانية: إذا حاول أحد المرشحين كتابة أي شيء آخر غير إجابة السؤال الوحيد الموجود بالورقة.

القاعدة الثالثة: إذا أفسد أحد المرشحين ورقته الخاصة بعمدٍ أو رغمًا عنه.

القاعدة الرابعة: إذا طلب المرشح الخروج مهما كان السبب.

وبعد انصراف المراقب وغلق باب القاعة، يكتشف المرشحون أن الورقة بيضاء تمامًا وعليهم أن يقضوا الوقت في معرفة ما هو السؤال أولًا!

بعد انتهاء الفيلم، كانت متسعة العينين مبهورةً بالحبكة وبالطريقة العبقرية في اكتشاف السؤال في الدقيقة الأخيرة من الفيلم بعد كل هذه الصراعات الدامية بين الأبطال.

- عيناكِ تلمعان بقوة.

قالتها «أم سهل» بدهشة، فالتفتت إليها «دارين» بابتسامةٍ شغوفةٍ هاتفةً بحماس:

- وجدتها!

****

- واو!

همست مبهورةً أمام حوض الأسماك العملاق الساكن قلبَ مطار جدة الجديد، والذي يتجمع حوله المسافرون يلتقطون الصور التذكارية.

أنواعٌ لا حصرَ لها متداخلة الألوان تسبح داخل الحوض الزجاجي المرتفع حوالي أربعة عشر قدمًا!

- إنه رائع حقًا كما أخبرتني هلا تلتقطين لي صورة من فضـــ....

توقفت متفاجئةً عندما استدارت ولم تجدها، أين ذهبت؟ كانت تحدثني للتو! غمغمت وهي تدور بعينيها هنا وهناك تبحث عن «أم سهل» التي أرشدتها نحو حوض الأسماك بينما تدفع العربة وتتسامر معها عن كونها ما زالت في أوجها وجميلةً للغاية، ولا يمكن لأحدٍ أن يتصور عمرها الحقيقي.

ولقد كانت الأخيرةُ تضحك لمجاملتها، وتبحث بعينيها عن زوجها الذي كان من المفترض أن يظهر الآن.

فكرت «دارين» أنها انصرفت دون أن تخبرها باحثةً عن زوجها ذاك، فجالت تبحث عنها، لكن معظم النساء ترتدي عباءةً سوداءَ تشبه التي كانت ترتديها المرأة، وتضعن الأوشحة بنفس الطريقة المُهْمَلة على أكتافهن.

لم تستطع تَبَيُّنَها لدقائقَ طويلةٍ من بين الزحام، فزفرت بسأم وقد نال التعب من ساقيها. خلعت حقيبة الظهر خاصتها وبحثت عن الوريقة الصغيرة التي دونت فيها «أم سهل» رقم هاتفها كما أخبرتها فلم تجدها، لقد تناولتها وهي مطوية ووضعتها بنفسها في حقيبتها، أين ذهبت؟!

جال بخاطرها أن تكون انزلقت على صُغرها داخل الكتاب الذي لا يفارقها أينما ذهبت، لقد قرأته مراتٍ لا تحصيها وبرغم ذلك لا تتخلى عن وجوده معها.

تناولت الكتاب بأصابعها وأخرجته من مكانه الآمن، قلبت صفحاته رأسًا على عقبٍ ولم تعثر على مبتغاها، زفرت مجددًا واضعةً قبضتها المضمومة تستند إلى خصرها.

- وجدتكِ أخيرًا!

استدارت بسرعةٍ كبيرةٍ كانت كفيلةً بأن تجعلها تمسح الأرضية حرفيًا وتُصبح مادةً للتندر، لكن حذاءها الرياضي قام بدوره في الفرملة مُكتفيًا بإنذارها أن تتروى في المرة القادمة.

إنه هو كما توقعت، «فادي الموافي». عينان زرقاوان تبرقان دومًا كـــسماءٍ لم تعرف الشمس يومًا، قصيرُ القامة نحيلٌ كالمراهقات، فودان أشيبان كـخطين يشبهان إلى حدٍ كبير خطوط الطرق السريعة عند المنعطفات، لا يليقان برجلٍ ما زال في الأربعين من عمره.

إنه اللقاء الثالث بينهم، كان الأول مُصادفة في معرض الكتاب في القاهرة، وهناك عَرَّفها بنفسه، أخبرها أن والده كان سعوديًا عاشقًا لمصر؛ لذلك كان يقيم بها معظم العام متابعًا لمشروعاته المقامة هناك، ووالدته من بلدة «سايلم» بأمريكا، أما هو، فهو يعشق الأدب العربي واللغة العربية، كثيرُ السفر كأبيه، دائم التنقل بين القاهرة وجدة و «سايلم» حيث مكان إقامة والدته.

ولكن بعد وفاتها ووالده، اختار أن يستقر في جدة بينما لا يفوته محفلٌ أدبيٌّ يُقام بمصر.

ويقوم بعمل الشيء الوحيد الذي قد شغفه حبًا، الحفر لإخراج المواهب المندثرة والمدفونة ورفع راية الأدب العربي مرةً أخرى.

أما لقاؤهما الثاني فلقد كان في فرعٍ من فروع دار النشر خاصته بالقاهرة، عندما لبت دعوته وذهبت إليه هناك لتتعرف بنفسها على كل شيء على أرض الواقع، بعد أن بحثت عن موقع الدار على الإنترنت ووجدتها بالفعل. نعم، الصفحة كانت حديثةً لم يمر على إنشائها سوى بضعة أشهرٍ لكنها متخمة بالمتابعين والإعلانات وعروض النشر، تبدو حقيقية للغاية!

كان حريصًا على أن لا يكونا منفردين لتشعر بالأمان، ولم يزل بها حتى أقنعها بمميزات العمل معه وعلى رأسها أن كتابتها ستتجاوز المحلية والبلاد العربية، وتتم ترجمتها لتصل إلى العالم بلغاته المتعارف عليها.

وقبل أن تغادر كانت قد وقعت معه العقد الذي لم تبذل أي مجهود لقراءة بنوده سوى نسبتها من البيع.

كان قرارها وحدها، ولم يوبخها أحد على تسرعها، بل لم تجد من تخبره من الأساس، فحتى صديقتها الوحيدة كانت قطعت علاقتها بها لأجل سراب.

تظاهرت بهندمة حقيبتها، تخفي تداخل مشاعرها مكافحةً ألا يظهر عليها شيءٌ من أفكارها الكئيبة قائلة:

- مرحبًا مستر فادي!

تنحنحت متظاهرةً بالوقار مرحبةً به بينما ترمقه بثبات.

ليتها كانت أظهرت تعبيرًا مكتئبًا بدلًا عن الذي ظهر على ملامحها رغمًا عنها كما يحدث كلما تلقاه، نفس التعبير الذي يرتسم في عينيها السوداوين، بشرته البرونزية بشكلٍ مبالغٍ فيه هي السبب في جعل الخاطرة ذاتها تدور بعقلها حينما تراه «الرجل الميتالك»!

عدلت من وضع عويناتها بحركةٍ بسيطةٍ تُخفي فيها ابتسامتها الساخرة بينما تسمعه يرحب بها مجددًا، ويدعوها لأن تصاحبه إلى الفندق الذي سترتاح فيه بقية الليلة؛ فالساعة قد تجاوزت العاشرةَ مساءً.

التقط ذراع عربة الحقائب بدلًا منها، والتي لم تكن تحوي سوى حقيبة سفرٍ متوسطةٍ بخلاف حقيبة الظهر، وسار ببطءٍ يجاري خطواتها المستكشفة.

كانت تستكشف كل ما حولها كطفلة تركت يد أبيها للمرة الأولى في دكان الألعاب، لماذا لم تجرب السفر من قبل!

فجأةً توقفت متجمدةً مكانها مما دفعه لأن يلتفت إليها وإلى الجهة التي تنظر نحوها بتلك الطريقة الشرسة، كان أربعتهم يجلسون هناك متفرقين، يعلو الحنق وجوهَهم، تسري بينهم موجة غامضة من الكره!

صاعقة فهمٍ ضربتها حين التفتوا برؤوسهم نحو «فادي» بنظراتٍ مختلفة التعابير، لكنها جميعًا توحي بأنهم كانوا ينتظرونه، وبأنه قد تأخر للغاية! فانتفضت نحوه هاتفة:

- هل ينتظرونك؟!

أغمض عينيه لوهلةٍ ثم فتحهما بهدوءٍ قبل أن يرفع كفيه؛ علامةً على الاستسلام قائلًا كمن يحدث مجرمًا مُدججًا بالسلاح:

- أعلم بأنها صدفةٌ غريبة، لكن هذا ما حدث، لم أكن أعلم بطبيعة علاقاتكم الشائكة.

تقدمت نحو حقيبتها النائمة بسكينةٍ فوق العربة وجذبتها بقوةٍ لتوقفها على عجلاتها الخلفية وتجرها للاتجاه المُعاكس خلفها.

لحق «فادي» بها موقفًا إياها بهدوءٍ ورزانةٍ مردفًا:

- صدقيني، لم أعرف إلا عندما لقيتهم هنا منذ دقائق قبل أن أذهب للبحث عنك، وقد كانوا مندهشين مثلك ومستائين من المفاجأة غير السارة بالنسبة لكم، واستطعت أن أفهم من الحديث المشحون الغاضب بينهم طبيعة علاقاتكم الشائكة وأنكِ لن ترحبي بوجودهم أيضًا.

لكنها لم تكن تتحلّى بنفس هدوئه، هتفت دون تفكير:

- صدفةٌ أن يقع اختيارك علينا نحن دون كل الكُتاب والصحفيين!

أومأ مُقطبًا حاجبيه ويجيبها ببعض المرح:

- أخبرتك في القاهرة بأنني لست ككل الناشرين، أنا أختار أصحاب الموهبة الذين انطفأ شغفهم وابتعدوا عن الساحة الأدبية لأعيد إحياءهم من جديد، وخمستكم كان ينطبق عليه نفس الشروط. فكيف لي أن أعرف طبيعة ما بينكم، هل تظنينني ساحرًا!

أطرقت برأسها مهمومةً، مغمغمةً بقنوط:

- كنت تراسلني بكثرةٍ خلال الشهور الماضية. لماذا لم تخبرني؟

زم شفتيه وقال ببساطة بينما يرفع كتفيه قليلًا متعجبًا:

- ولماذا أخبرك؟!

زفرت بقوةٍ وبملء رئتيها، نفسها تنازعها للعودة والهروب، من الخطر البقاء بصحبته بعدما بدأت تتعافى منه، بينما الفتاة الغاضبة بداخلها تأمرها بالمكوث؛ ربما أتتها الفرصة للانتقام منه بشكل ما، ربما حان وقت حسابك يا «خالد»!

- هل اتفقنا؟

قال بخفوت كأنما يُهادن طفلةً، لكنها ظلت على عنادها. لم تكلف نفسها عناء أن ترفع رأسها إليه فضلًا عن أن تجيب سؤاله، فتابع بجديةٍ وقد تخلى عن بعض هدوئه:

- أتريدين فسخ العقد؟

رفعت رأسها بحدةٍ إليه، بنظرات مُتَّهِمة، فاستطرد ببعض الصرامة:

- أنتِ لا تعلمين آنسة «دارين» كَمَّ العقبات التي واجهتني، فكما تعلمين.. شروطُ دخول امرأةٍ أجنبيةٍ إلى هنا وحدها دون محرمٍ أن تكون قد تخطت منتصف العشرين، وأن تكون ضمن رحلةٍ سياحيةٍ لها برنامجٌ مُحددٌ مسبقًا وتمت الموافقة عليه؛ لهذا كان

عليّ البحث عن أحد معارفي يكون لديه شركةٌ سياحيةٌ أو علاقةٌ وثيقةٌ بأحد مالكيها، وبعد طول عناءٍ استطعت تدبير الأمر.

نبرة التهديد كانت واضحةً صارخةً بين السطور، إما أن تترك عنابر الأطفال هذا، وإما أن تغادر ويتم فسخ العقد وسحب طوق النجاة من بين يديها.

- حسنًا. ولكن من فضلك لا أريد أي تعاملٍ مباشرٍ معهم.

قانتةٌ حد الجنون، الغصة تعلو حلقها فلا تمنحها فرصةً لأن تبتلع ريقها دون الشعور بالألم.

سارت جواره وعندما اقترب منهم سارعت بخطواتها نحو بوابة المطار متخطيةً الجميع، وهذا ما حدث تمامًا طوال الطريق من المطار إلى الفندق، هي تجلس جوار «فادي» في مقدمة الحافلة الصغيرة، بينما البقية جُلُوسٌ متناثرين على المقاعد، متباعدين كأنما يخشون العدوى!

وفي غرفتها المُريحة داخل الفندق تكورت فوق الفراش محتضنةً حقيبتها تتلمس نصائحه التي حفظتها عن ظهر قلب، أتخشى أن يخذلها قلبها مجددًا؟ لماذا إذن شعرت بذاك الألم في نبضةٍ فرت منها عندما أتى صوته من الخلف وهو يضحك بينما يتحدث إلى «فادي الموافي».

كان الوحيد الذي يتعامل مع الأمر بفكاهةٍ وكأنهم غير موجودين بالمرة، وكأنه لا يعرفها ولا تعرفه، تبًا لنظراته الساخرة المستفزة!

في الصباح، ستبحث عن طريقةٍ ترد له بها الصاع صاعين، هو ليس حصينًا إلى هذه الدرجة، ربما تستطيع إقناع «فادي» بالتخلي عنه، وتُصلح من أمورها مع الثلاثة الآخرين وتصنع جبهة ضده، فما بينهم مجرد سوء تفاهم، أما هو...

وغرقت في نومٍ عميقٍ دون أن تُطفئ الأضواء، ما زالت تخشى الوحدة، ومن العجيب أنها لم تكن يومًا... إلا وحيدة!

***

صباحًا تناولوا إفطارهم كلٌّ في غرفته، وكانت هي أول من غادر الفندق نحو الحافلة التي تنتظرهم، مُتخذةً موقعًا متقدمًا في الأمام، وعندما استقر كل منهم في مقعده، التفت «فادي الموافي» بِجُلِّ جسده مُرحبًا ليرمي عليهم قنبلته ممازحًا:

- صباحًا مُشرقًا يا أصدقاء، للأسف لن نستطيع الذهاب إلى المعرض اليوم فلدينا مشكلة إجراءاتٍ بسيطة، هناك برنامجٌ محدد قد وضعته شركة السياحة، وخط سيرٍ للجولة التي تم الموافقة الرسمية عليها ولا بد من الالتزام بخطها الزمني وإلا تعرضنا للمساءلة، للأسف سيتم تأجيل زيارة المعرض للغد، أما اليوم فهو يومٌ جبليٌّ في أحد أشهر الجبال بمنطقة بني عمرو، سيكون يومًا حماسيًا لن تنسى ذاكرتكم تفاصيله للأبد!

***

الحافلة

الطريق كان طويلًا ومملًا بالفعل، لم تمر سوى نصف ساعةٍ فقط، ما زال هناك الكثير كما أخبرهم، ما زالت هناك خمس ساعاتٍ إضافية.

تزفر حانقة، الجميع وافق دون نقاش وبلا مبالاةٍ غريبة، فلماذا ترفض هي؟! ليس لأنها تثق بهم ولكنها خشيت أن يعتقدوها جبانة، فهي الفتاة الوحيدة بينهم، ولم تشأ أن تفوت الفرصة في الذهاب لرحلةٍ جبليةٍ لم تذهب إليها من قبل، ولا تعتقد بأنها ستفكر في زيارة مكانٍ يماثله في المستقبل القريب، ربما لأنه يحتاج الكثير من النقود والصُحبة، وكلاهما شحيح لديها!

حينها تذكرت ما حدث بالطائرة، الفكرة التي لمعت برأسها فوق السحاب بعد مشاهدتها للفيلم، واستمعت لما قالته «أم سهل» عن جبل حِرفة.

على الفور أخرجت دفترها وبدأت تدوِّن أفكارًا رئيسية، لماذا لا تتابع الآن؛ طول الطريق والصمت المُطبق بالإضافة إلى انعدام شبكة الإنترنت، كل هذا يسمح لها بالكثير.

شعرت بالتباهي؛ لا بد وأنهم الآن بالتأكيد يرقبونها من الخلف، وربما يأخذهم الفضول لما تخطه على أوراقها.

لم تشعر بالوقت، كل ما شعرت به هو الألم النابض برقبتها، كانت سعيدةً لأن الشغف عاد مُرافقًا للحماس بين طيات فكرةٍ جديدةٍ تراها متكاملة.

نام قلمها بين الورق لدقائق تدلك بها فقراتها المُجهَدة.

وهنا قرر «فادي» التوقف للاستراحة لدقائقَ في مطعمٍ مُحاصرٍ بالجبال، ككل ما وقعت أعينهم عليه، مُرتفِعٌ فوقه لافتةٌ كبيرةٌ تحمل اسم مطعم السلطان، مما جعلها توقن بأنه كان يُراقبها من موقعه الاستراتيجي بجانب السائق.

كان هذا التوقف الوحيد خلال الرحلة، وهي لم تغادر الحافلة سوى بعد أن غادروا جميعًا، وكانت حريصة على ألا تلتقي بأحدهم في طريق العودة من الحمام، ثم طلبت من «فادي» أن يحضر لها طعامها في الحافلة، وقد فعل دون نقاش.

وقام بتغطية كل النوافذ بالستائر السميكة القاتمة عندما ارتفعت الشمس في كبد السماء، مُكتفيًا بإضاءةٍ شاحبةٍ تسمح لـ «دارين» بمواصلة شغفها ما تبقى من الطريق، خاصةً مع كل تلك الأبخرة المتصاعدة من أنواع القهوة المختلفة في تحليتها داخل أكواب الورق المُقوى بين أيديهم.

الأمر أشبه بحافلةٍ مدرسيةٍ صغيرةٍ سقفها منخفض، لكن يبدو أنها قويةٌ مُجهزةٌ للسفر في الأماكن الوعرة وغير المُمهدة.

ليت الأيام الأولى تعود، البدايات دومًا ممتلئةٌ بالانبهار والتحدي والروح والروعة،

روعةِ الإمساك بالقلم، روعةِ سكب النفس على الورق تغرقه بالمشاعر لتنبض بالحياة.

روعةِ دفن الأسرار الخاصة بين السطور على مرأى ومسمعٍ من الجميع!

أما وبعد أن هلكت الروح عطشًا وذبولًا، بات القلم لا يفعل سوى النقر؛ نقرٍ مُملٍ يتسارع تارة ويتباطأ أخرى، لا كلماتٍ، لا مشاعرَ، لا روحَ، لا هدفَ، لا شغف.

مقاومةٌ، صراعٌ، محاولاتٌ، استسلامٌ، انطفاء الكامل. دائرة سرمدية لا فكاك من عتمتها اللامتناهية السواد!

سنواتٌ عجاف، دفاترهن مهجورة، أقلامهن جفت أحبارها، الموت في أسوء صورةٍ لمن اشتَّم يومًا بانتشاءٍ رائحة أوراقٍ مطبوعةٍ قد جُمعت وزُيّن غلافها بحروف اسمه.

حافلةٌ صفراءُ تسير بسرعةٍ متوسطةٍ تُزيد الضجر العالق على وجوههم، وكأن من يقودها يمتلك كل الوقت، بتأففٍ يستندون بظهورهم إلى مقاعدهم المُريحة، منهم من يعقد ساعديه فوق صدره بمللٍ في انتظار الوصول، ومنهم من يترك كفيه فوق ساقيه بتراخٍ بائسٍ لساعات، يُراقبون الطريق الذي ترتفع على طرفيه جبالٌ صخريةٌ ملساءُ تحمل لون الرمال في زواياها الظاهرة للمتأمل فيها.

نظراتهم القاتمة تُخفي ما يدور داخلهم من صراعاتٍ محتدمة، تُخفي الهزيمة المرتفعة في أعينهم كـــــراية. إعلانٌ مجانيٌّ بالفشل!

انزوَى كلٌّ منهم في مقعده الخاص تدهسه أفكاره كما تفعل عجلات الحافلة لتلك الخطوط البيضاء المرسومة على الطريق تفصل بين الذهاب والعودة.

وبعكس ما صدحت به النملة وهي تأمر بقية النمال أن ادخلوا إلى
مساكنكم خوفًا من جيش سليمان خشية الخطر وطلبًا للأمان، خرجوا من
جحورهم، خرجوا نحو حافلةٍ صفراءَ مطبوعٍ على جانبيها الاسم الأكثر
غرابةً بين دور النشر الصاعدة فجأةً كفقاعةٍ على السطح «الطاووس»
وشعارها «سنحفر لإخراج موهبتك المدفونة»

صعدوا على متنها كسفينة نوح، آخر سفينةٍ للنجاة، الوجهة
مجهولة. هكذا تم الاتفاق!

ليتهم كانوا نمالًا، ليتهم يمتلكون عزيمةَ وصبرَ ترتيبِ الصفوف
وتحديد الهدف، ولو أنهم اشتركوا معهم في احتماليةِ فستكون فقط
احتماليةَ التعرض للدهس!

***

بعد ساعاتٍ وببطءٍ أكبرَ وتمهل، انعطف السائق لطريقٍ فرعيٍّ غير
ممهد، بينما المرتفعات الصخرية ما زالت تصحبهم فيه، تتلاشى وتتموه
بصفرتها كالحرباء بلون الصخر، تلك الارتجاجة التي جعلتهم يهتزون
ويميلون إلى الجهتين بخفة كانت أول بارقةِ أملٍ تنبههم إلى قرب
الوصول، وتنبأهم بأن وجهتهم غير عادية، وربما غير آمنةٍ أيضًا!

ولكن لا بأس، فالاتفاق هو قضاء اليوم في الطبيعة البِكر الخالصة
بكل تلك القمم الحجرية المرتفعة!

وأن هذا اليومِ ستُولَدُ فيه موهبتهم التي اندثرت ودُفنت لتعود وتتألق
من جديد، وأن الذهاب سيكون مختلفًا تمامًا عن العودة!

ساعةٌ كاملةٌ إضافيةٌ وقد بدأ الظلام يلوح بعباءته السوداء التي لا
تنحسر إلا في دائرة الإضاءة بفعل كشافات الحافلة الأمامية التي باتت
تشبه وحشًا مهيبًا بعينين ملتهبتين، تسير بتؤدةٍ في رداء حالك!

كيف يحدث ذلك، من المفترض أن الطريق كما أخبرهم «فادي» لن يطول لأكثر من ست ساعاتٍ على أكثر تقدير، ولقد استقلوا الحافلة في العاشرة صباحًا، وتوقفوا في الطريق لنصف ساعةٍ فقط!

نظرت «دارين» إلى ساعة اليد المتداخلة مع سوارها في قطعةٍ واحدةٍ فوجدتها العاشرة، رفعت حاجبيها دهشة، يبدو أن الساعة قد تلفت أو تعطلت، حتى الهاتف قد أظلمت شاشته وقد نفد شحنه كما نفد مع الجميع، هكذا سمعت همهمتهم بأن هذا الظلام غير منطقي.

الظلمة الشديدة جعلتهم يتحفزون في مجالسهم بترقب، وكل منهم في انتظار أن يعترض أحد ما أو يتفوه بكلمة، لكن الصمت كان اللغة الوحيدة التي باتوا يجيدونها!

وحدها فقط «دارين» من أجبرت شفتيها على الحركة، كان مقعدها خلف السائق مباشرة وبجانبه يحتل «فادي » مقعده مسترخيًا تعلو وجهه ابتسامةٌ طفيفةٌ واثقة.

ترددت وهي تختلس النظر من فوق كتفها إلى الخلف في ظل إنارة الحافلة الداخلية الشاحبة.

لا تريد أن تظهر بمظهر الفتاة الخائفة المترددة بين الرجال الذين لا يفعل المستيقظ منهم سوى إلصاق وجهه بزجاج النافذة؛ محاولًا اختراق الظلام بنظراته للخارج.

بينما ذاك الوغد «أكرم» -الذي احتل الكنبة الخلفية كاملةً- نائمٌ فوقها وكأنه في سريره الخاص، يكاد غطيطه يخترق أذنيها كأبواقٍ تدفعها إلى التراجع عن السؤال!

عادت برأسها لتميل للأمام قليلًا وتنهض بتماسكٍ وبطءٍ وتلقي نظرةً على سائق حافلتهم الذي يشبه التمثال الشمعي إلى حدٍ كبير.

غريب، صامتٌ كالقبور، نظراته للطريق جامدةٌ خاويةٌ من أي تعبير.
يقبض على المقود بقوة، لا يظهر عليه أي تحفز أو قلق بسبب وعورة مساره العجيب هذا!

تمسكت بالعمود المعدني المثبت بمقعده من الخلف، وهمست وهي تميل بخفةٍ غير ملحوظة:

- كيف حل الليل هكذا فجأة؟! من المفترض أن تكون الآن الخامسة على الأكثر؟

إيماءة خفيفة من رأسه مُهمهمًا:

- ربما غمامةٌ ممطرة.

وقبل أن تفصح بأن هذا الظلام لا يمكن أن ينتج عن مجرد غمامة، ظهرت أضواءٌ باهتةٌ تقترب.. أم هم من يقتربون منها. خداعٌ بصريٌ متعارفٌ عليه.

واتضحت التفاصيل أكثرَ فأكثرَ بينما حافلتهم تتقدم بثقةٍ باتجاه ذلك المبنى الضخم الذي يقف بشموخٍ وسيطرة، لا يأبه بالصحراء ولا بذلك الجبل المهيب القريب منه!

انحنت بسرعة لتلتقط عويناتها الطبية من حقيبتها وتضعها مُسرعةً فوق أنفها تاركةً نظاراتها السوداء فوق رأسها تجمع بها جانبي شعرها الباهت الذي كان ليله حالكًا يومًا ما، حتى أن «خالد» كان يداعبها بالقول بينما تغوص أصابعه بين خصلاته بأن أصابعه ستضطر لقضاء الليلة هناك حتى تطلع الشمس لتستطيع الخروج من هناك!

«خالد»! من كان يتخيل بأنه سيكون أحد الجالسين في الخلف، وكأنهما لم يعرفا بعضهما يومًا ما، وكأنه لم تكن بينهما قصة حبٍّ لم تكتمل.

توقفت الحافلة أخيرًا وفُتحت أبوابُها بصوت يشبه الارتطام، فصدرت عنها شهقة مكتومة تلفتت حولها.

«أكرم مجدي» يصحو فزعًا فالتوقف المفاجئ كاد أن يوقعه في أثناء نومه مُمددًا فوق الكنبة الخلفية.

«فريد طاهر» يتشبث بظهر مقعده وهو يتحرك ببطءٍ للنهوض بينما عيناه متصلبتان بخوفٍ عند باب الحافلة الذي كان قد فُتح فجأةً بصوت يشبه الارتطام، وكأنه يتوقع أن يهجم عليهم وحش ما!

أما «خالد» فلم تمنح عينيها فرصةً لتتعرف على ردة فعله، كل ما رأته هو النزق المرتسم فوق ملامحه المختفي نصفها بمفعول الإضاءة الباهتة داخل الحافلة.

حركت عينيها بعيدًا عنه مدعيةً بأنها لم تعد حتى تذكر اسم أبيه!

«مازن الأمير» كان يسحب حقيبة الظهر خاصته ويعلقها على كتفٍ واحد بينما يبادلها النظر وهو يُحييها بحركةٍ من رأسه ونظرةٍ عابثة!

ها هم يتحركون بتؤدةٍ للهبوط واحدًا خلف الآخر بتفحصٍ لكل شيءٍ تصادفه أعينهم.

أما هي فقد تراخت دقيقةً متصنعةً البحث في حقيبة يدها عن اللاشيء حتى أصبح هبوطها للأرض هو الأخير بينهم.

الجميع رفع رأسه يتأمل مكان دعوتهم، مبنًى عتيق الطراز حجريٌّ أقرب في وصفه للجبل، يبدو أن القائمين على بنائه استعملوا نفس أحجار الصخور المنتشرة على الطريق الفرعي الذي انتهى لتوه.

نفس اللون الرملي المائل للرمادي، هندسةٌ هرمية، تتسع مساحته في طابقه الأسفل بينما تتضيق كلما صعدت للأعلى، له قبةٌ منخفضةٌ بشكلٍ مبالَغٍ فيه وكأنها تتخفى عن الأعين الراصدة.

من قال إن الحافلة فقط هي التي تتماهى، المبنى أيضًا لا يمكن تحديده من بعيد!

تمهلت أعينهم عند نهاية القبة، حيث الطاووس الحجري الضخم المثبت أعلاه، وتأملت أعينهم تفاصيله الفنية البارعة، محاكاةٌ نادرةٌ لطاووسٍ حقيقي، بوقفته الشامخة المنتفشة وألوانه الزاهية البراقة. يا له من نحاتٍ بارع!

- وصلنا أخيرًا يا رفاق.

سمحت لنفسها بالخوف أخيرًا بينما تأكد لها أن ما هم منغمسون فيه ليلٌ حقيقي، وليس مجرد سحابة سوداء، ولنفس السبب ارتفعت أصوات الجميع في جلبةٍ يتساءلون عن الخدعة في الأمر، هكذا صرح «أكرم» بنبرته المرتفعة العصبية.

قهقه «فادي» ضاحكًا دون أن يتخلى عن اتزانه وأشار بيده أن يصمتوا ليستطيع التحدث.

كانت المرة الأولى التي يتبادلون فيها النظرات فيما بينهم، وعندما عمّ الهدوء، ارتفعت أصوات عواءٍ قادمةً من خلف الجبل الشاهق من خلفهم وحولهم، إنها قادمةٌ من كل فراغ يسمح له بالمرور، حينها قال:

- ندخل أولًا ونحتمي بالداخل، نُغلق الأبواب ونرتاح من عناء الطريق ثم سنتحدث في كل شيء كما تريدون.

تداخلت الأصوات الرافضة مجددًا مطالبةً إياه بالتفسير أو العودة إلى الحافلة للرجوع في الحال، فعاد يستطرد وكأنه لم يسمعهم:

- إن كنتم تفضلون البقاء في العراء في مكانٍ وعرٍ مثل هذا ممتلئ بالحيوانات المفترسة والأفاعي وكل ما يزحف في الظلام، فلا أحد

يستطيع إجباركم. أما أنا فلا أريد أن أموت اليوم، سأنتظركم في الداخل.

تركهم يتصايحون معترضين ودلف عبر الباب الحديدي الضخم لا يبالي بهم، وقد تبعه سائقه بلا همسة واحدة أو حتى رجفة جفن.

لم يكن هناك بدٌ من الدخول؛ فالعواء يزداد والظلام غير المُبرر مخيف والبرودة باتت وكأنهم يقفون في عراء سيبيريا يكافحون هطول الثلوج.

لم تُفكر «دارين» مرتين حيث سبقتهم للداخل بخطواتٍ أقربَ إلى الهرولة، تجمع حافتي سترتها حولها محتضنةً حقيبتها يتبعها «فريد» يهرول مثلها مرتعشًا.

لحق بهما «خالد» على الفور ومن بعده «مازن» وقد كان «أكرم» هو الأخير من بينهم.

وعندما اطمأن «فادي» أن الجميع بالداخل، أمر سائقه بغلق الباب جيدًا.

عندها سقط الرتاج عرضيًا بذاك الصرير المعدني المزعج الناتج عن غلق الباب الحديدي الضخم، مُعلنًا أن لا عودة.

***

قاعة الاستقبال، ليست بحاجةٍ إلى وصفٍ مُعقد، أو أعين خبيرةٍ بالتصميمات الهندسية كـعيني خالد، مجرد قاعةٍ مساحتها الداخلية أكبر بكثيرٍ مما يبدو عليه المبنى من الخارج، فارغةٍ إلا من خمس طاولاتٍ قوائمها حديدية وسطحها مصنوع من العاج الأملس، متراصةٍ حول بعضها بطريقةٍ نصف دائرية، بين كل طاولة وأخرى مسافة مترٍ

ونصف تقريبًا، والجدار المواجه لهم ثُبتت فوقه شاشةٌ عملاقةٌ كشاشات السينما!

الجدار! إنه ليس جدارًا، لا حوائط ولا أعمدة تحملها، الأمر أشبه بالنحت!

القاعة كلها، بل المبنى كله ما هو إلا جبلٌ تم نحته كالمغارات والكهوف وتفريغه جيدًا، لا طلاء، لا زخارف، لا رسومات أو صور إلا صورة واحدة ثلاثية الأبعاد تحتل نصف جدارٍ لطاووس زاهي الألوان منتفش الريش كالمروحة، عنقه وصدره لونهما أزرق معدني، ريشه الأخضر والذهبي الممتلئ ببقع زرقاء وبرونزية تشبه العيون، يخطف الأبصار بعجرفة كذاك التاج فوق رأسه ناظرًا لمن يحدق إليه بغرور!

تذكر «خالد» الأفلام القديمة التي كانت تعرض كيف هي حياة اللصوص وقُطّاع الطرق، وكيف كانوا يعيشون بداخل تلك الجبال والمغارات وكأنها مسكنهم الأصلي ولهم أُسر وعائلات يعيشون فيها أبًا عن جد!

حتى الدَّرج في نهاية القاعة والذي يؤدي إلى الطابق الثاني، ما هو إلا نحتٌ وتسويةٌ حتى بات أملسَ يصلح بالكاد لأن يُطلق عليه لقب سُلّم!

إذن هو ليس معبدًا أو ما شابه كما ظن من البداية، غريب التصميم في الخارج، النقوش والزخارف على الجدران الخارجية ليست سوى واجهةٍ أنيقة. ما هذه بالضبط؟!

كادت عيناه أن تعود للطاولات من جديدٍ لولا ذلك الطول الفارع والأكتاف العريضة التي لم تكن إلا لـــــ «أكرم» الذي وقف أمام «خالد» يُغلق عليه مساحة الرؤية بجسده الضخم، متفحصًا في الطاولات التي أثارت بداخله الحنين لأيام الجريدة ورواقها الطويل الذي يضم مكاتبهم

هو وزملائه، الصخب ورائحة القهوة وعبقها اللذيذ والأوراق المتناثرة هنا وهناك، إنه يفتقد كل شيءٍ حتى نبرة صوت عامل البوفيه وهو يطالبه بالحساب المتأخر وديونه غير المعدومة.

- ماذا فعلت بعدما قاموا بطردك من الجريدة يا «أكرم»؟

ارتدت رأس «أكرم» بعنفٍ نحو «مازن» الذي همس له تلك العبارة بنبرةٍ ماكرةٍ ونظرةٍ بريئةٍ في عينيه:

- وما شأنك أنت؟

صوت «أكرم «كان أعنف من رده، مما جعل الكل يلتفت!، ومط مازن شفتيه. بريء.. ووسامته تشهد بذلك!

تقدم «فادي الموافي» نحوهما وكاد أن يصدر عنه تعليقٌ ما عن اللطف والزّمالة وما شابه ولكن نحنحةً متوترةً صادرةً من الخلف قاطعته، وأتاه صوت «فريد» قائلًا:

- من فضلك، هل هناك فرصة للعودة اليوم؟

صدرت عن «خالد» زفراتٌ حانقةٌ وشبه ضحكةٍ من «مازن» والتفاتةٌ كاملةٌ من «دارين» و «أكرم» نحو «فريد» الذي كان منزويًا منذ البداية خلفهم.

كل ما يعرفونه عنه أنه يكتب للأطفال، صدرت له مجموعة قصصية نالت شهرةً لا بأس بها تحت عنوان «حكايات عمو فريد»، ثم توقف لسنةٍ كاملة.

وبهدوءٍ ونبرةٍ منخفضةٍ قال «فادي الموافي» وهو يتخطاهم إليه بتمهل:

- اسمعني يا أديب، الأمر كله ليلة ويوم واحد، والمشاحنات واردة بين الزملاء في أي مكان فلا تتوتر. سآخذكم الآن إلى غُرفكم

المنفصلة كما اتفقنا. أنت مُتعبٌ وفي حاجةٍ ماسةٍ للراحة والنوم، مثلنا جميعًا.

تشتتت نظرات «فريد» أسفل عويناته الطبية وقد بدى عليه التفكير العميق قبل أن يومئ برأسه موافقًا.

الجميع بالفعل كان بحاجةٍ إلى الفراش كما هم بحاجةٍ إلى إجابة السؤال المُعلَّق الذي يرفض «فادي» الإفصاح عنها.

وبرغم استيائهم وخوفهم مما يخفيه «فادي» عنهم، إلا أن هذا لم يمنع دهشتهم من تلك الغرف التي تشبه الزنازين -كما وصفها «أكرم»-

ضيقة كالتوابيت -هكذا سخِر منها مازن-.

بلا مرآة ولا خزانة ملابس -ملحوظة فتاة كـــ «دارين»-.

لم تُصمم للراحة ولا الإقامة أبدًا -همس بها «خالد» لنفسه-.

إلا أنها دافئةٌ تكفي لغرض النوم -كما شعر بها «فريد»-.

أبوابها حديدية والأسّرة المعدنية قوائمها مثبتة إلى الأرض، إلا أنهم كان يكفيهم المراتب الإسفنجية المريحة من فوقها والوسائد الناعمة التي ما إن لمستها رؤوسهم حتى غابت ذاكرتهم في عامين منصرمين، عندما بدأ كل شيء في الاختلاف، مما جعلهم يتواجدون هنا معًا دون اتفاق، أو هكذا ظنوا!

***

قبل عامين

شتاءً

فراشًا مبعثرًا كصاحبته التي تخوض معاركها الخاصة في أثناء نومها، أسيرة كابوس مزعج يتكرر يوميًا، والدها يتلاشى تدريجيًا أمام عينيها وتتناثر بقاياه متساقطةً كأوراق الشجر الذابلة بينما هي تصرخ وتناديه وتُسرع لتمسك بتلك البقايا لكنها تتعثر ساقطةً في بئرٍ سحيقة بلا قاع لتظل تصرخ للأبد، تلك الصرخات لا تنقطع أبدًا حتى تفتح عينيها فجأة فَزِعة شاهقةً وتسعل مرةً ومراتٍ تليها متحسسة حلقها المتألم.

تمسح وجهها بكفيها فتلسعها برودتهما، الغطاء متكوم أسفل الفراش الأشبه بساحة معركةٍ يبدو أنها أسقطته من الجولة الأولى، ظلت بقية الليلة متجمدة الأطراف، فكان لكابوسها اليومي الفضل في صحوتها قبل أن يتجمد بقية جسدها، حتى الأحلام المفزعة تمتلك بعض النوايا الحسنة!

زفرت «دارين» وهي تنحني لتجذب الغطاء وترفعه متدثرةً به متكومةً فوق فراشها متخذةً وضع الجنين داخل الرحم تتلمس بعض الدفء والأمان، متى يرحمها عقلها اللاواعي ويتوقف عن وضعها يوميًا داخل خزينة ذكرياتها الأكثر ألمًا.

لماذا لا تنتهي تلك الكوابيس وتموت مع الذين ماتوا، لماذا لا تنسى، لما لا ينتهي أبدًا هذا الشعور بعدم الاكتفاء والنقص داخلها؟

تحسست الفراش بكفها بحثًا عن الهاتف، عن طريق الهروب الأمثل والأجمل في هذا العالم عن «خالد»!

ابتسمت وقد عثرت أصابعها عليه من بين طيات الفراش المبعثر، استلقت، جذبت الغطاء الثقيل فوقها حتى ذقنها المدببة، رفعت الهاتف أمام وجهها وفتحت التطبيق الذي تراسله من خلاله، هو بالتأكيد نائمٌ الآن؛ فلقد أنهت مكالمتها معه بعد شروق الشمس وقد أتاها صوت شخيره المنتظم فعلمت أنه استسلم أخيرًا للنعاس بعد عناد منه ورفض تركها وليذهب النوم إلى الجحيم، وفجأة غرق في النوم كمن وقع في غيبوبة وهو يحادثها بعد أن قام بتأكيد موعد لقائهما صباحًا.

وقبل أن تسرد له حلمها كتابةً كعادتها معه وتشتكي إلى قلبه الحنون ككل يومٍ وترسلها إليه، تفاجأت بأنها لا تستطيع ذلك؛ لأنه ببساطة.. قام بحظرها!

ماذا؟ هل يمزح! إن كان كذلك فهو مزاحٌ ثقيلٌ ستعاقبه عليه فيما بعد.

أغلقت التطبيق وقامت بالاتصال مباشرة، لكن الصوت الآلي البارد أخبرها بأن الهاتف ربما يكون مُغلقًا، قطبت، هل انتهى شحن هاتفه؟! نعم، لا بد وأنه كذلك، ولكن، الحظر! كيف؟!

إنها التاسعة صباحًا لقد أصبح تأخرها عن موعد عملها عادةً منذ أن وقعت في الحب معه وباتت مكالماتهما الليلية أشبه بالطقوس المفروضة! لا تستطيع التخلف عنها ولا تأجيلها لأي سبب، تحارب الإرهاق ورغبتها القوية في النعاس لأجل البقاء معه على الهاتف إلى أن ينام هو أولًا، حينها فقط تترك عقلها يسقط في غيبوبته لثلاث ساعاتٍ فقط.

نفضت رأسها ثم جسدها كله ناهضة من فراشها المختبئ جانبًا جوار أبعد جدار بالغرفة، خرجت إلى الصالة الفسيحة ككل الأبنية عتيقة الطراز، وهناك كانت والدتها تقف جوار طاولة الهاتف في الركن البعيد المواجه لباب الشقة الخشبي الثقيل، تضع سماعة الهاتف على أذنها، وجهها محتقن، تحمل وشاحها الطويل مطويًا بانتظام على ساعدها الأيمن عيناها كسيرتان أسيرتا بقعةٍ ما على السجاد الأحمر المنقوش مهترئ الأطراف، تومئ برأسها وكأن من يحادثها يراها، مُرددة بلا توقف:

- حاضر، حاضر، حاضر!

تعلم «دارين» جيدًا من صاحب المكالمة على الطرف الآخر، إنها المحادثة الشهرية التي تنخفض فيها رأس أمها وتنكسر نظراتها بل ورأسها كله في أثنائها، لذلك دون تفكير تحركت مدفوعةً بالغضب نحوها، انتزعت سماعة الهاتف من بين أصابعها ووضعتها مُنهيةً المكالمة بينما عيناها تشتعلان ثورة، هاتفةً في مواجهةٍ نادرة:

- لماذا تصرين على الانكسار أمامه بتلك الطريقة المُهينة، أخبرتكِ بأننا لم نعد في حاجة لصدقاته.

وبرد فعل عنيف دفعتها أمها بقسوةٍ لتتراجع «دارين» خطوتين إلى الوراء، أمها التي جاوزت عقدها الخامس من عمرها ما زالت تجيد الدفع،

وبقوةٍ، رغم الهزال والمرض، رغم علامات السنين التي منحتها سنوات وسنوات فوق عمرها الحقيقيّ، رغم كل شيء ما زالت تُحسن نبذها، بنبرةٍ جشاءَ فظةٍ قالت تهددها وهي تؤشر بسبابتها نحو الهاتف:

- يا عديمة التربية، لولاه لكنتِ الآن تتسولين في الأسواق، لما وجدنا من يرعانا.

ابتسمت «دارين» ساخرة محاولة ترجمة معنى كلمة رعاية التي نطقتها أمها للتو، كانت تحارب نفسها لكيلا ترفع كفها إلى صدرها لتضعه مكان الدفعة التي آلمتها، إنها حتى لا تستطيع معرفة ما يؤلمها حقًا؛ فالدفعة ليست بالقوة التي تترك خلفها كل هذا الألم!

قالت بينما الغصة ترتفع ببطءٍ لتتشبث بحلقها عنوة:

- رعاية! أي رعاية؟! آه تقصدين المعونة التي كان يرسلها إلينا في بداية الشهر ويظل باقي الشهر يمن علينا بها ويملي علينا الأوامر الخاصة بكيفية وطريقة إنفاقها!

ارتفع صوت أمها بعصبية تزجرها متسعة العينين وقد تملك منها الغضب حتى بات الكلام صراخًا:

- يا غبية يا ناكرة الجميل، هل هذا هو جزاء الرجل الذي كان يقتطع لنا من لحم الحي ليطعمنا ويكسونا؟

تراجعت «دارين» خطوات أخرى، الصراخ يخيفها ويجعل خافقها يقفز رعبًا متخبطًا بين أضلعها باحثًا عن الأمان، وتلعثمت بينما تفتح فمها لتقول بتردد لا يتناسب مع اندفاعها الأول والأهوج منذ دقيقةٍ فقط:

- لحم الحي؟! إنها أموال أبي.

عادت أمها تصرخ مجددًا وهي تلهث فقد قطعت انفعالاتها المبالغة أنفاسها:

- لعنة الله على الغباء، مليون مرة أخبرك أن والدك أفلس قبل موته لكنك غبيةٌ لا تفهمين.

- هذا ما قاله عمي وأنتِ صدقته ببساطة، ثم لماذا كل هذا الصراخ؟! كلما عارضتكِ تصرخين وتصرخين حتى بات للجيران معلوماتٌ كافيةٌ عن تفاصيل حياتنا!

كانت تعرف ما ينبغي عمله في مثل هذه المواقف، نقطة ضعف أمها؛ الجيران، الناس، الفضيحة، أن يلوك أحدهم سيرتها بأنها لم تحسن تربية ابنتها بعد موت زوجها، الخوف الأبدي الذي يلازمها منذ سنواتٍ والبطحة الساكنة على رأسها تنتظر أن يتلمسها أحدهم ليؤلمها ويذكرها بماضيها وغبائها وقتلها لزوجها!

الصمت قابعٌ الآن بينهما مُراقبًا لهذين الزوجين من العيون المتسعة انفعالًا، مستمعًا لأنفاسهما اللاهثة كمصارعيْن أنهيا للتو جولتهما الأولى وقد فازت الصغيرة، وجهت اللكمة التي تعرف طريقها جيدًا فأخرستها، وقبل أن تلتفت لتغادر شعرت بأنها لم تكتف بعد، ما زال بداخلها حقدٌ أسودُ أكلها في صمتٍ فصاحت ساخرة:

- هيا أعيدي الاتصال به، أخبريه بأن الخطوط الهاتفية باتت سيئةً للغاية، احني رأسك وقولي «حاضر» من جديد حتى لا تخسري إحسانه.

استدارت على عقبيها في هياجٍ واضحٍ نحو الحمام بينما أمها التي ليست بأقل غضبًا منها تضع كفيها على فمها ملتفتةً نحو باب الشقة خوفًا من أن يكون قد تسرب صوتها من أسفله، لا يجب أن يعرف أحد أن هناك عراكًا ما بينهما، تُرى ماذا سيقول الناس إن علموا أنهما تتعاركان، بالتأكيد ستنتشر الأكاذيب من حولهما، وربما سيصل الخبر بشكل ما إلى أقارب زوجها المُتوفَى، أخيه على الأرجح، تُرى ماذا سيقولون حينها، إنها لم تستطع تربية ابنتها، إنها فاشلة! لا، لا يمكن أن يحدث هذا.

أسرعت بخطواتها الواهنة تجاه الباب لتفتحه متلصصةً نحو الخارج مشرأبةً برأسها، تتلفت بعينيها للأعلى وللأسفل، نحو الشقة المجاورة، نحو الدرج، الحمد لله لا أحد، لقد مر الموقف بسلام، في المرة القادمة ستحرص على أن تجرها من شعرها نحو أحد الغرف البعيدة وستغلق النافذة.

أغلقت باب الشقة واهنةً متغضنة الجبين والكرامة، تقدمت إلى الهاتف واضعةً السماعة من جديدٍ على أذنها وتتنحنح لتتمالك جأشها وهي تُسرع بالتفكير في عدة عباراتٍ تعتذر بها عن انقطاع الاتصال – غير المقصود– وتسأله إن كان لديه تعليماتٌ أخرى!

هي تعلم بأن «دارين» قد أصبحت تعمل ولها وظيفةٌ ودخلٌ ثابت، هي تعلم بأن ما يرسله لا يكفيها وحدها حتى، هي تعلم بأنها تذل نفسها بلا داعٍ، ولكن ببساطة.. لقد اعتادت، والعادة قاتلة، العادة تأسر النفوس المُرحبة دومًا بالأسر!

حينها كانت «دارين» تبدل ملابسها بنزقٍ أمام انعكاس صورتها في المرآة محافظةً على ابتسامة السخرية العالقة فوق ثغرها كالدمعة الحبيسة أهدابها هناك متشبثةً بالغضب.

يداها تعملان جاهدتين لتُنهي ترتيب حقيبة يدها وتجمع شعرها كيفما اتفق دون أن يتوقف لسانها لحظةً عن قذف حمم الذكريات المتفجرة بكيانها:

قبّلي يد عمكِ.

عمكِ يرسل لنا مصروفنا الشهري فاحترميه.

عمكِ وضع لنا ميزانية لا ينبغي تخطيها.

عمكِ يقول بأنه لا داعي لحذاءٍ جديدٍ كل عامين.

عمكِ أمرنا بأن نُعيد حقيبة المدرسة الجديدة وسيشتري لكِ أخرى أقل سعرًا.

عمكِ لا يرى بأن هناك حاجةً مُلحةً للمصروف المدرسي، الشطائر تكفي.

عمكِ سيسحب أوراقكِ من هذه المدرسة وينقلك إلى أخرى.

لا تبكي يا غبية، عمكِ لا يصدق كلامك عن مُعلمك ولو رفضتي الجلوس معه ثانية فلسوف يتوقف عن رعايتنا.

عمكِ عمكِ عمكِ ......

فجأة توقفت عن اجترار ذكرياتها عندما وقعت نظرتها على هاتفها الساكن فوق طرف الفراش المبعثر وومض عقلها باسم« خالد»، حينها تركت الدمعة تشبثها بأهدابها وانزلقت، جففتها ببطءٍ هامسةً بينما تحرك رأسها برفض:

- لن أدعك تتركني أنت أيضًا، لن أسمح لك.

***

طوال الطريق إلى المجلة النسائية التي تعمل بها وهي تتوعده سرًا، بينما الهاتف ملتصق بأذنها في محاولات مستميتة للوصول إليه، لقد اختار أسوء أيامها ليمزح مزاحه الثقيل هذا.

كلما قفزت دمعةٌ من عينيها تمسحها بعصبية، تقاومها، ليس موعدها، ليس الآن، فلتنتظر كل الدموع لقياه، تُفرغ ما بجعبتها من ثرثرة وصياح وغضب منه وعليه وعلى كل شيء، ثم تأتي اللحظة المنتظرة دومًا، عندما يبتسم مُمسكًا كفها بقوة، سيُجلسها عنوة ويمسح دمعاتها المتناثرة على وجهها ويخبرها بأنها أجمل من بكى على ظهر

هذا الكوكب اللعين، فتضحك وتنسى وتعشقه أكثر فأكثر، فلتنتظر كل الدموع حتى يأتي «خالد»!

توقفت السيارة أسفل بناية المجلة فألقت «دارين» نظرةً من خلف الزجاج، إن كان ينوي الاستمرار في ذلك المزاح الثقيل فهو بالتأكيد لن يحضر إلى موعده معها هنا، أعادت ظهرها إلى الخلف ملتفتةً إلى السائق قائلةً بنبرةٍ مكتومةٍ مشحونةٍ وبدموعٍ حبيسة :

- أريد تغيير الوِجهة من فضلك.

أومأ السائق بحماس مُبديًا استعداده الكامل لأخذها للمكان الذي تريد، فلا بأس أبدًا من تغير الوجهة بعد الوصول في هذا الزحام الصباحي للمرور، وأدار المقود وبداخله يلعن الحظ الذي جعل تلك الرحلة من نصيبه!

قطعت الرواق الطويل داخل الشركة الهندسية تنظر حولها باحثةً عن أي شخص تستطيع سؤاله عن «خالد» حتى جذب انتباهها صفيرٌ منغمٌ من خلفها!

التفتت لتصطدم عينيها بذلك الشاب القريب منها لدرجة جعلتها تشهق بصوت منخفض وترجع خطواتٍ للوراء بينما تواجه نظراته العابثة المتفحصة لها، وقالت بتأففٍ وهي تلتقط أنفاسها المضطربة:

- مازن!

رفع حاجبيه ورفع يده بحركة تلقائية يمسح أعلى شعره البنيّ المصفف بعناية مبالغ فيها كملابسه المنمقة تمامًا، قائلًا بمزاح لا تحبه هي ولكنها اعتادت عليه في الثلاث مرات التي صادفته فيها:

- أعرف بأنني مشهور لدرجة يصعب معها التخفّي

حاولت «دارين» رسم شيء ما يُشبه الابتسامة على جانبيّ شفتيها، لن تستطيع أبدًا فهم تلك المشاعر الغريبة بين الرجلين، أي شخص أعمًى يستطيع تمييز تملق «مازن» الواضح لـ «خالد»، والذي كان يكرهه بشدةٍ ويتعامل معه بتعالٍ غير خفيّ!

لقد كانت هي من تسأله دائمًا لماذا قام بترشيح «مازن» لمدير النشر في الدار التي تتولى نشر كتبه المتخصصة في التنمية البشرية، وساعد على إبراز موهبة «مازن» للخروج إلى النور وبخاصةٍ مجموعته القصصية والتي لاقت رواجًا واسعًا «اجعليه يعشقكِ في عشر خطوات»

ولقد كان يجيبها بأنه يحب أن تكون له اليد العلُيا على أمثال «مازن»، يحب أن يُربكهُ وهو يضطر دومًا لشُكره على معروفه كلما صادفه سواء في الشركة الهندسية أو مناسبة أدبية تجمعهما!

زاغت نظراتها مُتلفتةً حولها في محاولة لإيجاد صيغة ما لسؤالها الأوحد، لكنه قطع عليها الطريق وقال بنبرة اشتمَّت «دارين» بها بعض الشماتة:

- تبحثين عنه؟

وجدت نفسها تتجاهل تلك النبرة وتومئ بلهفة أن نعم، عدّل من وضع ساعة معصمه بتباه ملحوظ، وقال ببطءٍ قتلها ألف مرة:

- ألم يُخبركِ!

دارت عيناها في محجريهما حيرةً بينما ارتفعت غصة مؤلمة، فقدت الكلمات الطريق إلى مخارجها لكن «مازن» لم يتأخر عنها بالإجابات وتبرع للشرح باستفاضةٍ وكأنه يتلذذ من اصفرار وجهها وانسحاب الدم منه:

- إجازة سنوية، عدة أيام يقضيها في قريته، مع زوجته وأولاده.

همهمت «دارين» بلا فهمٍ وكأنه يتحدث بلغة آتية من عالم آخر:

- زوجته!

وضع «مازن» كفه على جبينه يمسحه مُدعيًا الصدمة وفي عينيه كل التوكيدات التي تُجبر عقلها على الفهم وهو يهمهم منصرفًا:

- آسف كنت أظنك على علم بـ... اعذريني.

- انتظر!

أوقفته رافعة يدها في الهواء كمن يطلب النجاة بينما نظراتها ضائعةٌ مُشتتة، وعندما ولّاها وجهه قالت بنبرةٍ جشاء تقاوم البكاء:

- هل تعرف كيف أصل إليه.. عنوانه في قريته أو .. رقم هاتف آخر.

مط شفتيه بأسف وقال مُقترحًا:

- مدير النشر صديقه كما تعلمين، من الممكن أن يكون لديه معلومة خاصة عنه؛ لأن هنا في الشركة التفاصيل تلك متواجدةٌ فقط في الشؤون الإدارية وممنوعةٌ على من هم ليسوا أقرباء أو جهة تحقيق مثلا.

أومأت برأسها شاردةً وانصرفت صامتة، نعم ممنوعة على من هم ليسوا من أقربائه، وهي ليست منهم، وليست زوجته، متزوج! هل تحلُم!

***

كما تنسل قطرة ماءٍ ببطءٍ من صنبور مُهمَل، سقطت ببطءٍ مماثلٍ على مقعدها خلف مكتبها الخاص شاحبةً، شعرها ينفر من خلف نظارتها الشمسية التي تجمعه بها، وجهها ملطخٌ ببقايا الدموع الجافة، بينما زميلتها في نفس الغرفة داخل مجلة المرأة تميل نحوها منحنيةً بجذعها إليها مُمسكةً بأعلى ذراعها وهي تحثها على المتابعة بنبرةٍ مشتعلةٍ رافضة:

- وهل أكد لكِ صديقه ذاك ما أخبركِ به «مازن»؟

أجابتها «دارين» بنبرةٍ ميتةٍ وصوتٍ مبحوحٍ من كثرة البكاء مرةً والصياح مرات:

- رفض منحي أية معلومات عنه، فقدت أعصابي رغمًا عني فطردني.

اعتدلت زميلتها جالسة على طرف المكتب مُفكرةً ثم همست:

- وماذا عن مسألة زواجه؟

أجابتها بضياع:

- لم ينفها ولم يؤكدها، قال بأن «خالد» كتومٌ جدًا بما يخص معلوماته الشخصية لذلك لا يمكنه منحي معلومةً واحدةً عنه.

رفعت «سهيلة» كلتا يديها تجمع شعرها في رابطةٍ مرتفعةٍ خلف رأسها بعد أن شعرت به ينغز مؤخرة عنقها، الغليان بداخلها يزداد وهي ترى صديقتها دميةً في يد رجلٍ لم ترتح له منذ البداية وحذرتها منه مرارًا، لكنها رومانسيةٌ حدَّ الجنون، تصدقه وكأنه آدم نزل على الأرض للتو لم تمسسه سوى خطيئة الثمرة.

انتفضت «دارين» واقفةً فجأةً هاتفةً بجنون:

- بالتأكيد «مازن» يكذب، أنا أعرف، هو يكرهه ويغار منه، لا يمكن أن يكون كل هذا خداعًا، «خالد» في شقته، ربما أصابه مكروه، كيف لم أفكر في هذا حتى الآن!

وركضت بكل ما فيها من أملٍ تُشيعها نظرات صديقتها الحزينة عليها، متوقعةً ما سيحدث لها عندما تقرع باب شقته، ركضت وقلبها مستغيثٌ به، أرجوك لا تكن ذئبًا، أرجوك لا تتركني وحيدةً أعارك الحياة بيدين عاريتين وماضٍ تَعِسٍ وقلبٍ سيكرهك للأبد.

***

قُبيل الفجر تستلقي أرضًا أسفل نافذتها المُغلقة، يداها جوار رأسها المشعث بإهمالٍ كما هو هاتفها المنزلق عن كفها اليسرى، والعبارة المعتادة التي تخبرها بأن الهاتف ربما يكون مغلقًا أو غير متاحٍ تُصيبها بالصمم وتثير جنونها ودموعها في آنٍ واحد.

دقات المطر على زجاج النافذة تُذكِّر بقرعها المستمر على بابه لساعةٍ كاملة على أمل أن يكون نائمًا، وحارس العقار لا يمل من إخبارها بأن عقد الإيجار كان لمدة عامٍ واحدٍ وقد انتهى اليوم، وأنه قد غادر يحمل حقائبه.

كانت ترفض أن تُصدق أنه قد غادر وتركها هكذا، بلا كلمة وداعٍ وكأنها عاهرة!

والسؤال الذي ظل عالقًا بينهما بلا إجابةٍ يتردد بداخلها بجنون «لماذا؟! ماذا فعلت ليهجرها بهذه الطريقة المُهينة؟!»

تبحث عنه لا لتسترده ولكن فقط لتعرف الإجابة، كانت تريد كلمةً لكنه كان أبخل من أن يكتبها! وأفضل من يُجيد الاختفاء والتلاشي!

***

مرت الأيام بعدها كلها تحمل الخيبات، لا تستطيع الإمساك بالقلم، الحروف ضائعة، دموعٌ متألقة دومًا في حدقتيها، حاولت الاستماع لنصائح «سهيلة» والتعايش حتى تنسى، لكنها فشِلت.

ذكرياته تُحيط بها، صوته، ضحكاته، احتواؤه لبكائها وحزنها، بعثرته لمشاعرها بكلمة واحدة، لم يجعلها فقط تحبه، بل جعلها تدمنه كالمخدرات!

والآن تريد الشفاء، متأرجحةً بينه جوعها الشديد إليه وما كان يقدمه لها، وبين كرامتها المكلومة وحبها المطعون في الصميم.

طفلةٌ وحيدة في صحراءَ واقعها الأجدب، لم يعد والدها هو الذي تحاول التمسك ببقاياه في كابوسها اليومي، لقد أصبح «خالد» هو الذي يتلاشى ويبتعد تاركًا إياها تسقط في بئرها المظلمة.

***

كان نائمًا كالصخرة لا يتحرك بينما زوجته تتكئ بمرفقها فوق وسادتهما المشتركة وتراقبه، يتنفس بعمقٍ وراحة، ملامحه الحبيبة إليها هادئةٌ مسترخيةٌ وشبح ابتسامةٍ تعلو جانب ثغره، يبدو أنه يحلُم حُلمًا لطيفًا.

لم تتحرك هي أيضًا لساعةٍ كاملةٍ بجانبه ترمقه بقلبها قبل عينيها، بينما يغط هو في نومٍ عميقٍ كمن لم يذق النوم منذ شهور، مسكين، يعيش وحده كالمغتربين أحد عشر شهرًا وبضعة أيام، يأكل وحده وينظف شقته المؤجرة بنفسه ويقضي جل وقته بين شركة الهندسة ودار النشر.

يقتل نفسه لأجلهم، لا يتوقف عن إخبارها بذلك!

أرسلت تنهيدةً عميقةً مبتسمةً ولم تستطع أن تقاوم رغبتها في ملامسة شعره، يستحق الراحة بعد كل هذا المجهود الذي يبذله من أجلها هي وأبنائهما.

تحركت ببطءٍ متحمسةً لأن تُعد له وجبةً دسمةً فاخرة، هذا دَيدنُها منذ أن حضر فجأةً قبل موعد إجازته السنوية بيومين، تُغذيه وتقوم على ترميم عظامه المتشبعة بأكل الشوارع كما تسميها.

وكما خرجت من غرفة النوم بهدوءٍ تزحف حتى لا تقلقه، دلفت إلى المطبخ وبدأت دون جلبةٍ في تحضير الطعام بحماسٍ فائر.

- انتهيت من ترتيب سرير أخي يا ماما

نادتها طفلتها من خلفها بصوتها الرفيع، منغمةً ألف المد كما تفعل دومًا فالتفتت لها مُسرعة:

- ششششششـــــ. أبوكِ نائم يا «سارة».

تراجعت الطفلة لوهلةٍ بسبب النظرة الحارقة والعصبية المسجونة بحدقتي والدتها وقالت متبرمةً بصوتٍ خفيض:

- المطبخ بعيدٌ عن الغرفة!

زفرت أمها متوترةً وتابعت تقليب الحساء قبل أن تتذوقه بطرف لسانها مُهمة بحيرة:

- يحتاج القليل من الملح بعد، لكن سأتركه كما هو وأضع علبة الملح جواره على المائدة حتى لا يترك الطعام وينهض كما فعل بالأمس

- رأيته يتناول قطعة الدجاج في المطبخ

قالتها ذات الضفيرتين بعفويةٍ ضاحكةً فنهرتها أمها لتسكت وتتركها تتابع عملها.

استدارت «سارة « لتغادر لكنها ارتطمت بساقيّ والدها فشهقت قبل أن تضحك رافعةً كلتا يديها معلنةً عن رغبتها في احتضانه، ولقد انحنى بالفعل لكنه لم يرفعها بين ذراعيه كما يفعل عندما يُكافئها على طاعتها له، بل جلس القرفصاء مثبتًا نظراته الحادة في عينيها الحائرتين هامسًا بأحرفٍ حادة:

- لماذا تكذبين على والدتك؟!

صمتت الطفلة دون فهمٍ بينما يداها تتراخيان إلى جانبيها لتدخل والدتها في الحديث متسائلةً دون أن تلتفت، موجهةً كلامها للطفلة:

- ماذا فعلتِ يـــ...

- هل طلبت منكِ التدخل؟

انتفضت مبعثرةً بعض حبات الأرز على سطح الموقد على إثر غضبته المفاجئة،

همهمت:

- آسفة.

رفع كفه إشارة على رغبته في أن تتابع عملها ففعلت، موليةً اهتمامها تجاه الأواني بينما قلبها يخفق وهي تسمع حروفه المنسحقة تخرج من بين فكه المنطبق يضغط أضراسه غاضبًا قائلًا:

- هل رأيتني أنا أسرق قطعة دجاج من المطبخ؟

اتسعت حدقتا الطفلة بينما تحرك رأسها نفيًا قائلة كالملسوعة:

- لا يا بابا أنا لم أقل...

- لقد سمعتك للتو!

- والله يا بابا لم أفعل!

- مممم...

زم شفتيه مهددًا وأجبرت الأم نفسها على التدخل ثانية:

- «خالد»، «سارة» كانت تقصد...

- اخرسي!

انتفضت مبتلعةً ما تبقى من عبارتها وأيقنت أن الموقف لن يمر مرور الكرام، يا إلهي هذا البيت محسود، الناس لا تتركهم في حالهم أبدًا!

- انتظريني في غرفتك.

هطلت الدموع من عيني الطفلة وحركت رأسها نفيًا دون توقف وهي ترجوه:

- بابا لا تضربني أرجوك! أنا لم أفعل شيئًا.

- قلت اسبقيني إلى غرفتك يا «سارة»!

صرخ بوجهها فبكت بقوةٍ وهرولت خائفة باتجاه غرفتها فاستقام واقفًا بينما زوجته تتقرب منه وتربط على صدره تُهدِّئه:

- «خالد» لأجلي لا تضربها، الموضوع بسيط، إنها مجرد قطعة دجاج.

نفض يدها وحدَّق إليها بنظراتٍ آتيةً من الجحيم هاتفًا:

- الكذب موضوع بسيط؟! هل هذا هو ما تربين الأولاد عليه في غيابي!

ارتبكت محتقنة الوجه، إنها لم.. كيف فهم هذا من كلامها:

- لا أقصد ما فهمته.

- فهمي ضعيف، أليس كذلك؟

التهديد المُطل من عينيه جعلها تعتذر مرارًا وتكرارًا وهي لا تدري على ماذا تتأسف تحديدًا، لكن يبدو أنها كلما فتحت فمها ترتكب خطيئةً لا تدرك كُنهها!

- تردين كلمتي وتخالفين رأيي وفي النهاية تُخبريني بأنني ضعيف الفهم، ثم ما هذا!

لاحقت نظراته فوجدته يرمق شعرها مقطب الحاجبين ويتلمس خصلةً هاربةً من خلف أذنها مُعلقًا:

- خصلات بيضاء!

سحبت الخصلة من بين أصابعه مهرولة نحو المرآة المُعلقة على جدار الممر الصغير الفاصل بين غرفة النوم وبقية الشقة، أضاءت

المصباح الكبير وحدقت إلى المرآة تبحث عن تلك الشعيرات البيضاء، فلم تلمح أيًا منها فغمغمت بحيرةٍ تحدث نفسها:

- لا شيء!

- صحيح النظر نعمة!

قال وهو يقف خلفها ساخرًا من محاولتها اليائسة في إيجاد ذلك الشيب المبكر على امرأةٍ لم تبلغ الخامسة والثلاثين بعد.

حينها سمعت صرخةً آتيةً من غرفة «سارة» ولم تجد انعكاسه خلفها في المرآة، علمت أين ذهب تحديدًا.

خمس دقائق كاملة مرت عليها كالدهر بينما لا تجرؤ حتى على طرق الباب، فقط تقف في الخارج لتسمع بكاء ابنتها وصرخاتها التي تعلو بعد كل ضربة تؤلمها، حتى انتهى.

جلس على طرف الفراش، لم يتعب ولم يبذل مجهودًا كبيرًا، كان يعرف كيف يضرب، وكيف يؤلم دون ترك فوضى كبيرةٍ خلفه.

خمس دقائق أخرى مرت يتسمع إلى نشيجها ويعرف بأنها منزوية في الركن البعيد عنه من الفراش، تضم كلتا ساقيها إلى صدرها لا تجرؤ هي الأخرى على الحركة ولا حتى التفكير في الفرار، وحينها قرر العفو عنها!

كان مستندًا بمرفقيه إلى فخذيه يميل للأمام قليلًا، فرفع ذراعه للأعلى يناديها بهدوء:

- تعالي هنا.

زحفت طفلته على يديها وركبتيها حتى وصلت لطرف الفراش باتجاهه فقال مُكررًا بينما يشير لها بعينيه أسفل ذراعه المرتفعة:

- تعالي هنا.

أسرعت أسفل ذراعه تضم نفسها إليه فاحتضنها بحنانٍ وقال معاتبًا:

- تأسفي ولا تفعليها ثانية.

- آسفة آسفة.

ظلت تكررها وتبكي، تختض في حضنه بينما هو يشدد على احتضانه لها مبتسمًا ويتابع:

- تعلمين أن بابا لا يحب الكذب.

أعلم يا بابا لكنني لم...

- ها؟

أرخى ذراعه من حولها فضمت نفسها إليه متشبثة بملابسه مستدركةً بسرعة:

- آسفة يا بابا لن أكررها.

- حسنًا.

ابتعد قليلًا وربت على خديها مهدهدًا دموعها وقال بمرحٍ مفاجئ:

- هيا، اغسلي وجهك وأعدي المائدة مع أمك

أومأت عدة مرات أن نعم، وقبل أن تفتح الباب قال من خلفها:

- لا تنسي أن تخبري والدتك أنك اعتذرتِ عن كذبتك تلك.

عادت تومئ ثانيةً وتهرول نحو الخارج تنفذ بطاعةٍ ما أمرها به، نهض واقفًا مهندما ملابسه أمام المرآة مُتمتًما لانعكاسه هناك بتقدير وبثقة:

- ليت كل الآباء مثلك، اليد التي تضرب هي نفسها التي تحتضن، أحسنت.

***

خرج من الغرفة ليجدهما تُسرعلن بغرف الأطباق ووضعها بشكلٍ متناسقٍ فوق الطاولة فسأل وهو يبحث برأسه هنا وهنا:

- أين «يونس»؟

أجابت زوجته بينما تضع قدر الحساء بتمهل في المنتصف:

- كان يلعب مع ابنة خاله أمام باب الشقة.

خرج « خالد» متمهلًا يبحث عنه بهدوئه المعتاد، لم يجد لولده أثرًا، نزل إلى الطابق السفلي فلمح الفتاة تخرج من تحت السلم جريًا تنفض جلبابها الصغير بينما ولده الأصغر، والذي لم يتم الحادية عشرة بعد، يدفعها لتسقط ثانية فوق كومة القش المتراكمة أسفل السلم ويضحكان.

لكن «يونس» توقف عن الضحك ونهض قافزًا عندما لمح أباه يقف في منتصف السلم واضعا كلتا يديه في خصره مراقبًا بابتسامةٍ مستمتعةٍ ما يحدث!

- بابا!

جرى نحوه مُمسكًا بكفه فداعب شعره الكثيف قائلًا بمكر:

- ماذا كنت تفعل معها أسفل الدرج؟

ظهرت الحيرة على وجه الطفل ورفع كتفيه مجيبًا:

- ندفع بعضنا فوق القش ونتدحرج

انحنى نحو أذن ولده هامسًا بها:

- لكنني رأيتك تتشبث بطرف جلبابها بهدف النظر إلى ساقيها.

نظر له الولد ببلاهة فضحك بصوتٍ متفكهًا ثم عاد يهمس له من جديد:

- اطمئن لن أخبر والدها.

ثم ألقى نظرة على الفتاة التي ما زالت تتدحرج في الأسفل ببراءةٍ وأشار إليها متابعًا بهمس:

- بيني وبينك الفتيات لم تُخلق إلا لنستمتع بسيقانهن.

اعتدل واقفًا دون أن يتوقف عن الضحك ويصعد مجددًا هاتفًا بتفاخر:

- لقد ورثت شقاوتي كما ورثت وسامتي، الْحَقْ بي لنتناول الغداء معًا.

وعندما اجتمعوا حول المائدة، أمر «سارة» أن توزع هي قطع الدجاج وتمنح أخاها القطعة الأكبر، ففعلت بينما أخوها ينظر إليها بانتصارٍ ليغيظها.

استوت على مقعدها بينما تضع في طبقها القطعة الصغيرة ناظرة إليها بحنق، فهذه من نصيبها مدى الحياة لا لشيءٍ إلا لأنها فتاةٌ فقط!

وعندما ارتفعت وتيرة المضغ في سكونٍ تكلم فجأة دون مقدمات، وهو يُخرج هاتفه من جيب سرواله ويضعه أمامه فوق المنضدة جوار صحنه:

- ما كل هذه الرسائل، أنا في إجازتي يا بهائم، ألا تستطيعون إنجاز أي شيء دوني!

وضعت زوجته كوب المياه وهي تسأله بفضول:

- الشركة أم دار النشر؟

أجاب مُسرعًا:

- كلاهما.

ثم رفع عينيه للأعلى زافرًا [illegible] موجهًا حديثه إليها متابعًا:

- تعلمين، بدوني لغرقوا جميعًا في مصائبَ لا حصر لها.

أومأت برأسها مؤكدة:

- طبعًا، أنت ذكي ومتميز في كل شيء، نحن نتفاخر بك في كل مكان.

منحها ابتسامة مُقدرة بينما يميل مستندًا بمرفقيه إلى حافة الطاولة وقال مُستدركًا:

- بالمناسبة، كنت أمزح معكِ بشأن الخصلة البيضاء.

اتسعت ابتسامتها الشاكرة وارتفعت يدها تمسح فوق خصلةٍ من غرتها تضعها خلف أذنها حرجًا، وقالت متلكئةً وهي تحاول استغلال رضاه عنها:

- زوجة أخي أخبرتني أن صفحتك على الفيسبوك -ما شاء الله- يتابعك عليها أعدادٌ كبيرةٌ من الناس.

لم يرفع عينيه عنها، يحفظها كـكف يده، ويعرف أنها ستطلب شيئًا، ولم تُخيِّب ظنه وقد أنهت عباراتها تسأله:

- ألن تسمح لي أن أمتلك حسابًا على الفيسبوك لأفرح بك أكثر.

وعندما لم يجبها بينما نظراته متجمدةٌ فوقها، ملأت ملعقتها بالأرز وتناولتها متنحنحةً خافضةً عينيها نحو طبقها، بينما «سارة» قد توقفت عن المضغ تراقب تراجع أمها البادي، حينها تعلمت معنى تلك النظرة الصلبة المهددة منه، ومن أي ذكر ستتعامل معه بعد الآن!

- بابا، هل أخبرتك أن المدرسة منحتني شهادة تقديرٍ في مسابقة للقصة؟

اختلف محياه من النقيض للنقيض وضرب كتف «يونس» بلطف:

- حقًا!

ضحك الطفل بسعادة، فتابع «خالد» بتفاخر:

- الولد لأبيه، الموهبة تسري في دمك.

توقف فجأةً واتسعت حدقتاه بحماسٍ آمرًا الولد:

- اذهب واحضر شهادة التفوق لألتقط لها صورةً وعندما أعود إلى العمل سأقوم برفعها على حسابي الشخصي.

نهض الطفل مُسارعًا إلى تلبية الأمر بحماسٍ أكبر من حماس أبيه وعاد بعد لحظاتٍ يلوح بها في الهواء بين أنامله الصغيرة:

- ها هي.

قالها وجلس بشغفٍ مفرطٍ مراقبًا والده بينما يلتقط للجائزة صورةً جوار وجهه مبتسمًا ابتسامةً جذابةً سعيدة، وعندما انتهى أعادها إلى طفله بهدوءٍ ونهض متجهًا نحو الأريكة العريضة التي تحتل صدر المجلس وقد شعر بالامتلاء.

لكن «يونس» ترك طعامه ونهض يلحق به هاتفًا بحماسٍ طفولي:

- بابا، التقط لي أنا أيضًا صورةً مع الجائزة واجعلها مع صورتك على الفيسبوك.

ربَّت على شعره مداعبًا بينما يجلس ممسكًا بالهاتف عيناه لا تفارقه وهو يجيب بعدم اكتراث:

- لا داعي للصورة، اسمك مكتوب في الشهادة وهذا يكفي!

لم يبدُ أن «سارة» تتعاطى مع الموقف الاحتفالي، تتناول طعامها بسكونٍ على عكس والدتها التي يتحرك رأسها متفاعلةً مع الحدث يمنةً ويسرةً مع كل حركة تصدر من ابنها وأبيه، وتبتسم ممتنةً للحظات الرضا هذه التي تنعم بها بين أسرتها ولسانها يتمتم بخفوتٍ وهي تراقب حماسة زوجها وسعادته» الله لا يحرمنا من وجودك بيننا».

وبدأت تجمع الأطباق الفارغة لتعد الشاي لزوجها، لكن «يونس» عاد إليها بوجه عابس هامسًا:

- أمي، إنه يرفض تصويري مع الشهادة.

انحنت نحو أذنه تبادله الهمس:

- سأجعل زوجة خالك تفعل لكن لا تخبر والدك.

أومأ غير راضٍ واستدار ليغادر نحو غرفته محافظًا على عبوس وجهه، فقالت «سارة» بنبرةٍ خفيضةٍ لتكيل له انتقامًا لقطعة الدجاج التي استولى عليها:

- أصلًا أمي هي من كتبت لك القصة!

نغزتها أمها وتبعت ذلك بجذب يدها بعنفٍ لتميل نحوها قائلةً بغضبٍ مكتوم:

- إياكِ أن تعيديها أمام أبيكِ، هل تفهمين؟

تألمت الطفلة وأومأت برضوخ، وعندما حملت الأطباق تساعد في تنظيف المائدة وقفت فجأةً تتأمل والدها الجالس هناك مستندًا باسترخاءٍ كبيرٍ للخلف ويكتب أشياءَ ما على شاشة هاتفه مبتسمًا ابتسامةً أعجبتها وجعلتها لا تفارق وقفتها تلك للحظات قبل أن تناديها أمها لتلحق بها إلى المطبخ.

إنها تحبه رغم كل شيء، ويومًا ما عندما تكبر وتتحول إلى شابة جميلة، لن تتزوج إلا برجل كأبيها، وسيمًا جذابًا، حنونًا.. أحيانًا كثيرة!

يضربها نعم لكن لمصلحتها؛ حتى تكون مثالية. لا يجب على ابنة «خالد يونس» إلا أن تكون مثالية، مثله، هكذا يخبرها دومًا، إما أن تكون مثله وإما أن تكون فاشلةً لا مكان لها في المجتمع.

***

كانت الأجواء هادئةً أكثر مما يجب، تلفت «أكرم» حوله بقلقٍ باحثًا بعينيه عن صديقه في أرجاء غرفة المعيشة، الطاولة المواجهة للتلفاز مبعثرٌ فوقها زجاجات المشروبات الكحولية الفارغة والمنكفئ بعضها بإهمال فوق الحافة مهددةٌ بالسقوط فوق الأرض الباردة.

الأريكة في حالةٍ تُرثى وقد نامت بقايا ملابس صاحبها فوق حوافها بإهمال، أما حول أرجلها فقد سُكب الطعام وامتلأ أسفلها بأكياس البطاطا المقلية من النوع الذي يفضله.

ثم ما تلك الرائحة المنفرة!

تجاوز «أكرم» كل الفوضى وتقدم نحو النافذة وقام بفتحها للتهوية، ترك الشمس تُطهِّر بأشعتها رائحة الخطيئة العالقة بين أرجاء الغرفة ومشى بخطواتٍ متمهلةٍ نحو غرفة النوم.

كان بابها مفتوحًا على مصراعيه والسرير العريض محتلًا الواجهة، لم يكن حالها يختلف كثيرًا عن حال غرفة المعيشة، بينما «مازن» يرقد كالأخطبوط مُمددًا ساقيه ويديه كالمصلوب فوق شراشفه المتداخلة مع أطرافه كأنما كان يصارعها في نومه.

فتح النافذة لتقتحم شمس الظهيرة عيني «مازن» حتى وهو يُغلقهما فأيقظته منتشرةً بحرارتها بين خلاياه التي اعتادت الظلام، فيضطر إلى تغطيتها بكفيه شاتمًا بفظاظة، محاولًا النظر من بين أصابعه لمعرفة هوية المتطفل.

إنه يعيش وحيدًا كالذئب ولا أحد غيره يمتلك مفاتيح الشقة سوى أقرب أصدقائه، لذا لم يكن في حاجةٍ قويةٍ للتعرف على وجه ذاك الذي

يقف جوار نافذته، يكفيه تعرفه على هيئة جسده الممتلئ ليوقن بأنه هو.

رفع الوسادة فوق وجهه صائحًا:

- أغلق النافذة يا «أكرم» من فضلك!

قطب» أكرم» حاجبيه ساخرًا، وتقدم نحو الفراش تاركًا النافذة مُشرعة قائلًا:

- من فضلك؟! ما هذا الأدب المفاجئ الذي حل عليك فجأة.

انقلب «مازن» للاتجاه الآخر دافنًا وجهه بين كل الوسائد المتراكمة حوله غير مبالٍ.

الآن سيقوم «أكرم» بالوعظ الذي حفظه عن ظهر قلب، سيبدأ في تشغيل الأسطوانة اليومية، لن يقوم بالرد كما حدث في المرة الأخيرة ويتشاجران، سيتركه حتى ينهي وعظه بينما هو يغط في نومه حتى يمل وينصرف.

وحدث ما توقعه تمامًا، جلس «أكرم» على طرف الفراش يهز كتف مدعي النوم وينهره:

- أنت تتصرف كالمراهقين، «مازن» انهض واغتسل من هذا القرف، وتعالَ لنتحدث!

- لا داعي أنا أحفظ ما تود قوله!

قالها «مازن» بصوتٍ غارقٍ في العبوس مكتومٍ بفعل الوسائد، مما أثار حفيظة الآخر وارتفعت نبرة صوته مؤنبًا:

- هل هذه تصرفات رجلٍ أوشك على الخامسة والثلاثين من عمره، ألن تخرج من مستنقع الرذائل هذا!!

قذف الوسائد غضبًا وهو ينهض جالسًا، بينما شياطينه تتقافز حوله، هاتفًا:

- صدقت، أنا رجلٌ فاسقٌ وبيتي مستنقع رذائل، هيا اخرج منه قبل أن تتسخ ملابسك الطاهرة ولا تصدع رأسي.

ناقمًا عاد يدفن وجهه مجددًا أسفل الوسادة المتبقية جواره متابعًا:

- ولا تنسَ إغلاق النافذة قبل أن تذهب.

- تعلم أنني لن أفعل ولن أتركك.

- أولمَ تفعل بعد، ألم تتخلَ عن صداقتنا التي دامت لسنوات، ألم تستبدلني بذلك اللعين.

يموج صدره بالكلمات دون أن ينبس ببنت شفه، بل كان يتظاهر بالاستغراق في النوم، يهرب، تلك الوسيلة التي لا يجيد غيرها عندما يشعر بالتخلي، بأن أحدهم يمحوه من حياته ليستبدله بغيره بكل سهولة.

- «مازن»!!!

زفر بقوةٍ يتحرك في فراشه كمن يسبح في بركةٍ قبل أن ينهض بجزعه فقط متكاسلًا، مُدعيًا عدم الاكتراث، مستندًا إلى ظهر سريره مُمررًا أصابعه فوق شعره زامًا شفتيه بمللٍ يدَّعيه:

- نعم، ماذا تريد مني؟

- وجدت لك فتاة مناسبة للزواج، التحقت بالعمل في الجريدة التي أعمل بها منذ وقت قصير و..

ضحك وضحك حتى سعل بقوةٍ فاتحًا كفه فوق قلبه المتألم بينما عيناه تنسدل منها أمواج السخرية البائسة أنهارًا، كان في أشد الحاجة إلى الانزواء وحيدًا ويجب أن يُنهي هذا العبث.

غادر سريره متجهًا نحو المقعد الذي رمى بنطاله فوقه بالأمس وأخرج علبة سجائره يحرق بها أنفاسه، استدار وقد ارتدى قناعه المحبب فوق ملامحه المتألمة ونفث كقطار الفحم دخانه بوجه «أكرم» بمزاحٍ ثقيلٍ، مما جعل الأخير يسعل مبتعدًا عن مرماه بينما «مازن» يلوح بيده هازئًا:

- وماذا أيضًا؟ اممم، انتظر! ستنصحني أن أقطع كل علاقاتي المشبوهة وأغدو زوجًا صالحًا وحينها تتركني وأنت راضٍ تمام الرضا عن نفسك، وعندما تتسامر مع «زين» صديقك الجديد عن صديق السوء الذي هو أنا، ستخبره بأنك فعلت كل ما بوسعك لإصلاحي ولم تتركني إلا وضميرك مرتاحٌ تجاهي، وعندها يرتفع صوت الآذان فيصحبك هو إلى الصلاة وينتهي هذا المشهد الملائكي بانتصار الخير على الشر.

حدق «أكرم» إليه، إنه يهلوس بكل تأكيد، لم يلتقط سوى نبرة السخرية في صوته، سخريةٍ عنيفةٍ فجة، لم يعتده فجَّ السخرية خاصةً أوقات شجارهما.

فجأة أظلمت الغرفة ثانيةً عندما أغلق «مازن» النافذة بعنف كأنما يكسرها، ثم قفز فوق فراشه قائلًا بغلظة يحرق جميع سفنه:

- دور الملاك لا يليق بك يا « أكرم»، خاصةً بكرشك هذا، أنا على يقين أنك أعلنت توبتك المزيفة هذه لأن كل امرأة أحضرتها من أجلك كانت تهرب فور رؤيتك، أنت ثقيلٌ شكلًا وموضوعًا يا صديقي!

وضحك مقهقهًا وقد بدا على «أكرم» التجمد الكامل في وقفته قريبًا من باب الغرفة للحظات، كان على استعداد لتحمل كل حماقات «مازن» وتعليقاته السخيفة، لكن الأمر وصل إلى حد الإهانة فما الذي يجعله ينتظر أكثر!

وحينما غادر، صافقًا الباب خلفه، توقفت الضحكات بل وربما يكون قد توقفت أنفاسه التي تتردد في رئتيه أيضًا، يعلم بأنه نذلٌ وحقير، لكن ما الجديد؟ ألم يكن كذلك طيلة سنوات عمره، وما الجديد في أن يتركه «أكرم»، هل سيكون أعز عليه من والدته!

«أكرم» الذي كان أقرب الناس إليه، صديق عمره، «أكرم» الذي كان يمتلك مفتاح بيته، تركه بمجرد أن وجد شخصًا آخر، وبات يتصل به ويزوره لحفظ ماء الوجه فقط، والآن بات يرتدي حُلة الوعظ ويردد كالببغاء ما يحفظه من كلام «زين».

اشتعلت عيناه متقدةً حقدًا ونقمة على هذا الأخير، ومال الفارق بين «زين» وزوج والدته الذي استحوذ عليها وطرده من بيته مرسلًا إياه إلى أبيه في منتصف الليل.

وإن كان طفلًا وقتها، ولم يستطع الانتقام ممن سرق والدته فإنه الآن رجلٌ قادرٌ على ذلك وبكل طريقةٍ ممكنة، متبعًا المثل الذي حفظه عن أبيه منذ صِغره» البئر التي لا تشرب منها قم بتعكيرها»!

هبط «أكرم» من شقة «مازن» وقد أعماه الغضب، حتى إنه تجاهل النداء المتكرر لحارس العقار حينما لحق به يسأله هل أخبر البشمهندس «مازن» بشكاوى جيرانه عمّا يفعله في بيته كما أوصاه في أثناء صعوده إليه أم لا؟!

كان مُتعرقًا رغم برودة الجو، لكنها عادة جسده عندما يبذل مجهودًا بدنيًا أو حتى نفسيًا، كم مرةٍ حاول أن يتحكم برد فعله العنيف ليواجه تنمرًا ما، لكنها هذه المرة جاءت من صديقه المقرب، الوحيد الذي أطلعه على خبايا نفسه وأخبره كم يتألم وتنفلت أعصابه في تلك اللحظة التي يسمح فيها أي شخصٍ لنفسه بأن يسخر من امتلاء جسده.

المحرمة الورقية المتبقية في عُلبة المحارم، استخدمها بقوةٍ مجففًا العرق الذي تجمع حول عنقه ثم كوّرها داخل قبضته محتفظًا بها متجاهلًا رنين هاتفه المتواصل.

النغمة المخصصة لأخته الكبرى، ارتفعت وتيرة غضبه المختلطة هذه المرة بالسخرية وهو يتخيل سبب اتصالها اليومي والذي لا تمل منه على الإطلاق:

- «أكرم»، من فضلك حاول تناول غدائك في العمل فأنا مريضةٌ ولم أستطع إعداد طعام الغداء اليوم.

وفي كل مرةٍ يجيبها موقنًا بأنها تكذب:

- لا بأس عليكِ، ارتاحي ولا تجهدي نفسك، سأتناول الطعام مع «مازن».

منذ عدة أشهرٍ وهي تفعل هذا يوميًا بينما هو يجيب نفس الإجابة دون أن يُظهر حنقه من كذبها البيّن، إنها تقوم بتنفيذ تعليمات زوجها حرفيًا.

فلقد وافق على تزويجها معه في شقة العائلة بعد استعطاف خطيبها له ومحايلاتٍ لا تنتهي منها؛ فالحالة لا تسمح للبحث عن شقةٍ للزواج جديدةٍ بينما أخته قد اقتربت من الأربعين، وهذا في شرع المجتمع من حولهم جريمة.

وافق دون اقتناع ومنذ ذلك الحين وهو يدفع ثمن موافقته تلك.

فلقد بات شغلهم الشاغل هو محاولاتٌ لا تنتهي بتطفيشه من بيت أبيه وأمه والاستحواذ عليه مِلكًا خالصًا لهما، وهو يعرف ويتغافل، أن تكون كريمًا زيادة عن اللازم حتى يعتقد الآخرون أنك تتنازل لهم عن

حقوقك لأنك لا تريدها، ومع الوقت يوقنون أنك لم تكن تملك أي حق من البداية وأن ما منحته كان واجبًا عليك لا أكثر!

عاد الرنين مجددًا لكنها ليست أخته، كان «زين» هذه المرة، يسأل عن مكان تواجده ليلتقيا.

- لدينا موعد عمل يا «أكرم»، أين أنت؟

- «زين» لا تكن لحوحًا، امنحني نصف ساعةٍ فقط وسأكون أمامك.

كانت حروفه تنهت بينما هو يحدث في أثناء سيره السريع متلفتًا حوله باحثًا بعينيه عن سيارة أجرة تقله، لكن «زين» استطاع لمس تلك النبرة البائسة، كمن يوشك على البكاء ولا يريد إظهار ضعفه فيستبدل ذلك بادعاء الحنق.

سأل بروية:

- «أكرم»، هل تشاجرت مع «مازن» اليوم أيضًا؟!

- اللعنة، لا أريد أن تذكره أمامي مُجددًا، مفهوم!

هتف «أكرم» بكل ما يحمل بداخله من مشاعر متناقضة، لقد اتخذ قرارًا أن يتركه لأفعاله المشينة، فليذهب للجحيم إن أراد إن كان تقويمه يتطلب كل هذا الجهد من بذل الكرامة.

سينساه تمامًا ويدعه لشيطانه ونفسه اللعينة التي تخبره ليل نهار بأنه فاسقٌ ولا بد وأن يسير في طريق والده؛ لأنه ابنه ببساطة، ولأن العرق دساس!

لا يردعه رادعٌ ولا حتى كرامة صديقه الذي لم يُسئ إليه يومًا، يغار كالفتيات ويتصرف بخبثٍ رافضًا أن ينضم لهما ثالث، وكأن «أكرم» ملكيةٌ خاصةٌ به وحده!

والذي زاد الطين بِلة أن «زين» ليس أي ثالث، إنه مختلف، يقول هذا حرامٌ وهذا حلال، أو كما وصفه «مازن» بعد أول لقاءٍ جمع بين ثلاثتهم: «أشعر بأنني لا يجوز لي في أثناء صحبته إلا أن أتناول المثلجات فقط».

وبدأ يبتعد عنهما معًا شاعرًا بالحنق، خاصةً حين وجد» أكرم» قد بدأ يتغير ويبتعد ويتخلى عنه لأجل ذاك النحيل الأشقر الذي عمل معه مؤخرًا كمصورٍ صحفي، والذي ما انفك أن يقص عليهما في هذا اللقاء الوحيد أنه له أخٌ يكبره وأختان تصغرانه وأن والدته لا تنام قبل أن يعود للمنزل لتحضر له الطعام وتطعمه بيديها، بينما والده يسأله هل صلى العشاء أم لا؟

والده الذي أخرج أمامهما صورته معه متباهيًا بسماحة ملامحه وطيبته الناضحة من ابتسامته العذبة بينما يستند إلى كتف «زين» متفاخرًا به.

ذلك الشعور الذي لم ولن يعرفه «مازن» على الإطلاق، تلك الضمة الفخورة التي لم ولن يذوقَها أبدًا، تانك العينان التي لا تنام قبل أن تطمئن أنه قد صلى الفروض.

«زين» يملك كل هذا ولم يكفيه فأتى ليأخذ منه صديقه الوحيد أيضًا بكل بساطة!

ولقد نجح في مبتغاه، فلينعم إذن بصديقه ولكن في مكانٍ آخر، مكانٍ لا تصل له الشمس!

***

- عاد؟!

هتفت «سُهيلة» مشدوهةً بينما «دارين» تخبرها بأنه قد عاد، هكذا ببساطة وقد مر ما يقارب الشهر على اختفائه:

- ثلاثة أسابيع!

همست «دارين» ونظراتها متجمدةٌ على المنشور الأول له على صفحته الشخصية يُخبر فيه جميع الأصدقاء المتابعين أن ولده قد فاز بجائزة القصة القصيرة في المدرسة بفضل توجيهاته وبأن هذا الشبل من ذاك الأسد! وفي الأسفل يضع صورته مع الجائزة ويخبر الجميع بأنه قد اشتاق إليهم.

هكذا يعلن ببساطةٍ أنه متزوجٌ ولديه طفلٌ وطفلة، يبدو أنها كانت هي الحمقاء الأخيرة!

صورةٌ شخصيةٌ جديدةٌ له وحده جوار باب سيارته مرتكنًا إلى حافته، ابتسامةٌ لامعةٌ مُشرقةٌ مُتفائلة، عينان براقتان، أما ذقنه فكما اعتادته، يتركها تنبت قليلًا لتمنحه المظهر الرجولي الذي باتت الفتيات تنجذب إليه مؤخرًا.

لا، هناك بعض التغيرات. لقد قص شعره بطريقةٍ مختلفةٍ حتى أصبح أصغر عمرًا، زاد وزنه قليلًا، وهذا القميص جديد، تعلق بصرها بسلسلة مفاتيحه المعلقة بحزام بنطاله، ومن بين مفاتحه الكثيرة كانت هديتها هناك، ميداليةٌ على شكل قلبٍ بألوان الطاووس، إنها تذكر ذاك اليوم جيدًا، كان يوم ميلاده، أخبرها فجأة وهي تجلس جواره في السيارة فارتبكت خجلًا لأنها لم تكن تعرف، فضحك وقال بأنها يسامحها لكنه لن يتنازل عن هديته وهو من سيختارها بنفسه.

- دارين!!

استفاقت «دارين» مُرغمةً من تأملها له عندما خطفت «سهيلة» الهاتف من بين أصابعها فجأةً وهي تناديها غاضبة وتعنفها قائلة:

- ما هذه النظرة الحالمة! أفيقي! هل نسيتِ في لحظةٍ ما فعله بكِ؟!

كانت تنظر إلى صديقتها بضياعٍ مُشتتةً، ما الذي يحدث؟ إنها تنتفض! كل خلية بها تنبض! لا تعرف لماذا؟ تقف ثم تجلس ثانية، تضع شعرها خلف أذنها متوترة تحيد بنظراتها نحو الباب، تُرى هل سيأتي؟ أيخبرها بالسبب؟

وهمست مدافعة، لا تعرف عن ماذا، عن وجهها الذي تورد فجأةً، عن نظرتها التي انفلتت منها مع مفاجأة ظهوره، عن ارتباكها وتلعثمها، قالت:

- لم أنسَ، كانت مفاجأة. وأنا أردتُ فقط أن..

أين الحروف! بحثت عنها فلم تجد سوى عَبَراتٍ اندفعت دون إرادة إلى مقلتيها، تراخٍ يسبح من ذراعيها إلى كتفيها، ونظرة استغاثةٍ أطلت من عينيها دفعت «سُهيلة» إلى إمساكها من كتفيها تهزها هزًا لعلها تستيقظ من غيبوبتها، تؤلمها إن كان الألم سيشفيها من إدمانها المُدمر:

- سبب؟! السبب هو أنه مجرد وغدٍ كالبقية؛ يخون زوجته ويكذب عليكِ وعلى الجميع. يتلاعب بكِ كالدمية، «دارين»، مستغلًا حاجتكِ الضارية للحب. لقد قلتها لكِ مرارًا وسأقولها للمرة الأخيرة، من يخون مرة يخون ألف مرة.

لو كانت تركتها في التو لانهارت مغشيًا عليها، لكنها ظلت متمسكة بها، ترمقها بنظراتها الكارهة للرجال محاولةً نقل بعضٍ من كرهها لهم إليها.

الفارق الوحيد بين «دارين» و «سهيلة»، أن الأولى ما زالت تأمل في الحياة وتنتظر حظها من الحب والسعادة، أما الثانية فقدت كل معاني الحب في اللحظة التي فتحت بها باب غرفة نومها لتجد غيرها تحتل مكانها في كل شيءٍ هناك!

***

لم تنم تلك الليلة، مرت بوالدتها الجالسة باستكانة تشاهد التلفاز ودموعها تنهال بغزارة تأثرًا بينما شكري سرحان يبحث عن أمه حتى عثر عليها تمسح بلاط المشفى، فـارتمى على قدميها يقبلها بدموعه ثم حملها بين يديه ومضى.

تبادلت مع أمها عبارةً جوفاء معتادة عن تناول العشاء ثم توجهت إلى غرفتها بمعدةٍ فارغة فاقدةً للشهية، وضميرها يؤنبها تجاه والدتها التي تظل حبيسة البيت وحيدةً طوال اليوم يكاد يفتك بها.

أما عنها، فلقد كانت متأرجحةً بين الكرامة والتمنّي، ارتمت في فراشها وبين أغطيتها، الهاتف لم يغادرها، تتابع ردود المعجبات على منشوره، وتتفحص كلماته لهن، إطراء، غزل، تأكلها الغيرة كما تأكل النار الحطب، تدون تعليقًا ثم تقوم بمسحه قبل أن تُرسله، تضع له إعجابًا ثم تقوم بإلغائه.

تلك اللحظة العجيبة التي تجد بها نفسك كالغرباء بعد أن كنت من المُقربين!

تُغلق جفنيها وتنتظر، لا تعرف ما تنتظره تحديدًا، رسالة، اتصالًا، تناقش مع نفسها الردود التي ستفحمه بها عندما يتصل، طوال الليل حتى انبلاج النهار، وأخيرًا غرقت في غيبوبةٍ لثلاث ساعاتٍ أخرى، مرغمة بعد أن أهلكت روحها على أعتاب الأمل!

***

ترجلت من سيارة الأجرة ببطءٍ وتكاسل، لم تنم بشكلٍ كافٍ، حتى ساعات نومها الثلاث كانت متخمة بالأحلام المُزعِجة وبطلها هو مُعذبها الأوحد.

دلفت إلى مصعد البناية وضغطت زر الطابق الثالث حيث المجلة، وبإبهام اليد الأخرى تضغط رابط صفحته الشخصية التي غادرتها منذ خمس دقائق فقط ولم يكن بها أي جديد يخصه.

ربما تقوم بتعويض رسائله اليومية المتوالية التي كان يُرسلها إليها بتواجدها الآن بصفةٍ مستمرةٍ في حسابه الشخصي، وربما قلبها يحاول التعايش بما تبقى منه فقط.

وعندما توقف المصعد في الطابق المنشود وفُتحت أبوابه لم تخرج منه، كانت متصلبةً أمام تحديثٍ جديدٍ ظهر للتو عن مكان وجوده، ويخبر أصدقاءه بأنه في دار النشر لمطالعة عقد كتابه الجديد الذي ما زال قيد الكتابة.

ودون تفكير، وجدت نفسها تضغط الأزرار للهبوط عائدةً للطابق الأرضي، حربٌ كلامية دارت مخيفةً بين قلبها وعقلها بينما جسدها يقوم بتنفيذ ما اعتاد عليه خلال عامٍ كاملٍ منصرم، الأصابع تضغط تطبيق طلب سيارةٍ تقلها إليه حيث كان، أما روحها فهي عالقةٌ لا محالة بينهم، واقفةً على أحد الأرصفة تنتظر وصول السيارة التي قامت بطلبها بنظراتٍ خاوية كالمنومة مغناطيسيًا، المُسيَّرة بلا إدارة!

وظلت على نفس حالها طوال رحلتها حتى وصلت إلى وجهتها وتحركت مُسرعةً وقد دب بجسدها نشاطٌ غريبٌ وشحنةٌ متوترةٌ تقلصت عندها أمعائها بينما قدماها تصعدان حيث الطابق الأول.

- داري!

نداءٌ ما كان دومًا يُطرب قلبها، أما اليوم، وفي تلك اللحظة، وبعد كل هذا الغياب، فلقد كان كفيلًا بإيقاف كل نبضاته.

احتقن وجهها وعقلها يرسم ألف تعبير على وجهه قبل أن تستدير إليه، لكن كل الألف كنَّ على خطأ!

كان مبتسمًا ككل الصباحات، مُشرقًا، مُتأنقًا كالعادة، تفوح رائحة عطره لتعلن عن حضوره بهيمنةٍ اعتادتها وصارت حاسة الشم لديها تُدمنها، لا تعلو وجهه تعبيراتٌ عن ندمٍ أو اعتذار، لا خجل، وكأنه لم يغب يومًا!، أما قلب الطاووس فما زال مُعلقًا هناك عند خصره.

- فقدتِ الكثير من وزنك ولا زلتِ أيقونة الأنثى في عينيّ.

قالها بنبرةٍ متأثرةٍ وهو يتأملها، فاحتضنت حزام حقيبتها المُعلقة على كتِفها بكلتا يديها وهي تنظر ببلاهةٍ وشيءٍ من الصدمة حتى وهي تعرف بوجوده، حتى وهي متعمدة الحضور لِلُقياه، لكنها الدهشة المُلجمة للحروف، التعبيرات الطبيعية وكلماته المُختلفة كالعادة أربكتها، هل كان «مازن» يكذب، أتكون قد ظلمته فعلًا!

همهمت بنوع من الاشتعال وترقب للإجابة:

- أنت متزوج؟!

ثبت نظراته بعينيها للحظة، وأجاب بنبرةٍ خشنةٍ خفيضةٍ مُتخمةٍ بالتأثر وكأنها سألته عن موت عزيزٍ لديه:

- أنا كما أنا يا قلب حبيبك، لم أتغير، خُذيني بكل عيوبي وحياتي البائسة الحزينة، لا تتخلي عني لأجل واقعٍ ليس بيدي تغييره!

التوى قلبها ألمًا وهي تراقب نظراته التي كانت ثابتة واثقة قد انكسرت فجأةً بوهنٍ وحزن، إجابته تعني نعم، كما تعني أنه لا يحب زوجته وإن لم يقلها بصراحة.

همهمت «دارين» مُجددًا بينما الغصة تظهر جليةً في نبرتها:

- لماذا كذبت عليّ؟

رفع عينيه ثانية إلي وجهها وأجابها مُدافعًا عن نفسه:

- لم أكذب عليكِ يومًا، لقد كنتُ صريحًا معكِ من البداية، لقد أخبرتكِ منذ اللحظة الأولى بأنني لستُ سعيدًا في حياتي وأنكِ الأولى بقلبي.

كان يُضيّق ما بين حاجبيه ويضع كفه مُخلصًا فوق قلبه وصوته يشع الصدق منه بأشعة تغشى قلب فتاةٍ لم ترَ النور يومًا، فتاةٍ تتخبط طيلة صباها في الظلام وتتشوق لوهجٍ دافئٍ واحد حتى وإن أحرقها في النهاية!

- لكنك اختفيت و..

- فعلت هذا من أجلكِ.

- من أجلي!!

- نعم.

- لا أفهم!

تلفت من حوله ثم نظر إلى الساعة في هاتفه وقال بجديةٍ ونبرةٍ آمرة يعلم كم تأتي بثمارها مع الفتاة الطيّعة بداخلها:

- لديّ موعدٌ مع صديقي كما تعلمين لتجديد العقد بالأعلى، ثم سأذهب بعدها لعملي وأنتِ أيضًا ستذهبين إلى عملك، سنتكلم ليلًا كالعادة وسأحكي لكِ كل شيء، اتفقنا؟

لم يكن سؤالًا، كان أمرًا، لكنها لم تتحرك من مكانها، حتى بعد أن بدأ هو بالتحرك مما جعله يتوقف ناظرًا إلى عينيها الجائعة إليه، وهو بارع في قراءتهما، وهي الآن تستعد لخوض معركةٍ كلاميةٍ لا لشيءٍ إلا لجعله يبقى فقط؛ لذلك عالجها سريعًا وابتسم يغوي براءتها هامسًا بوعد:

- لقد افتقدت النوم على صوت أنفاسك كثيرًا، إياكِ أن تنامي قبل اتصالي، مفهوم؟

راقبته يصعد الدرج بسرعة، لم ينظر خلفه ولا مرةً حتى، كانت تنتظر أن يسألها عن سبب مجيئها هنا في هذا التوقيت المبكر، لقد أعدت كذبةً مُتقنة عن إنهاء عقدها، لقد حفظت ما ستقوله حتى لا تبدو في صورة البلهاء التي أتت خصيصى بحثًا عن لقاء، لكنه لم يسألها، بل وقال في أثناء عبارته الأخيرة -كما تعلمين - وكأنه يُخبرها بأنه يعرف.

وهذا ما زادها خِزيًا!

****

تلقت «سُهيلة» قُبلةً مُنعشة قوية على وجنتها فانتفضت ملتفتةً مُستعدةً للصفع لكن ضحكة «دارين» المرحة استوقفتها قبل أن تتنهد ثم تزفر قائلة:

- كُنتِ ستتلقين صفعة تجعل قفاكِ في المُقدمة!

تابعت «دارين» ضحكاتها وهي تدور لتجلس خلف مكتبها جاذبةً المقعد نحوه حين دلف العامل ليضع فنجان القهوة الداكنة أمام «سُهيلة» على مكتبها بينما «دارين» تطلب منه بلطفٍ مشروب الشيكولاتة الساخنة

والتي كانت توقفت عن طلبه منذ أن أصبحت حياتها باردةً واستبدلته بالقهوة السادة، مما جعل «سُهيلة» تنظر لها بشكٍ للحظاتٍ ثم علقت بريبة:

- مُتأخرة ساعة كاملة ومعنوياتك مرتفعة!

توردت البراءة على خديها وتلعثمت وهي ترد بمزاح:

- وهل المعنويات المرتفعة تهمةٌ هذه الأيام يا كئيبة!

رفعت «سُهيلة» كتفيها بما تسمح لها سُترتها الضيقة بالحركة وتلاعبت بالقلم بين أصابعها وأضافت:

- والشيكولاتة؟!

اتسعت عينا «دارين» مسترسلةً في مزاحها هاتفة:

- ما بها؟ هل تم منع تناولها في المجلة!

ضيقت «سُهيلة» عينيها المرتسم فوقهما خطٌ أسودُ دقيقٌ للغاية يبرز اتساع عينيها أكثر مما هي عليه، بينما تعود لتجلس مُجددًا دون ابتسامةٍ واحدةٍ بينما تسبر أغوار «دارين» الواضحة للغاية.

حاستها تُخبرها بشيءٍ يجعل الدماء تفور في رأسها، فتحرك رأسها نفيًا، لقد وجدت نفس الخبر صباحًا عن تواجد «خالد» في دار النشر التي تحتكر نشر وتوزيع كُتبه، وبمجهودٍ ضئيل ربطت بين الخبر وتأخر «دارين» وحالتها الطارئة الغريبة تلك، ثم تعود وتنفي ظنونها ثانية، لا، مستحيلٌ أن تنسى ما فعله بها بهذه البساطة. مستحيل!

في تلك اللحظة رفعت «دارين» سماعة الهاتف وطلبت مقالتها الأخيرة لأنها تريد مراجعتها وتعديل بعض الأخطاء بها، وضعت السماعة برضا وشرعت في فتح مسودة ورقية فوق مكتبها وبدأت تؤشر بقلمها الأحمر في بعض الأسطر وتعيد صياغة بعض الكلمات.

قضت اليوم كله تنظر إلى شاشة هاتفها بين كل ساعةٍ وأخرى، تستعجل الوقت، أرجوكَ امضِ، كل الأيام تسير سريعًا إلا هذا النهار يزحف!

وبعد الظهيرة وجدت صورةً على حائطه الشخصي، يظهر فيها مبتسمًا ويجاوره صديقه مدير النشر، والعقد عالقًا بينهما ويكتب أعلاها بأنه تم توقيع عقد كتابه الجديد، أسفلها عشرات التعليقات تُهنئه وتدعوا له بمزيد من النجاح، وهو يضع الإعجابات الموحدة لكل التعليقات ويرد بنفس الإجابة النمطية ذاتها.

ألقت نظرةً جانبيةً إلى «سُهيلة» لتطمئن بأنها منشغلةٌ عنها وتدون أفكارها مستغرقةً بين الصفحات، وحركت أصابعها وتعلق مُهنئةً له بحرارةٍ عن تمنيها من خالص قلبها له دومًا بمزيدٍ ومزيدٍ من التقدم والتوفيق لأنه يستحق الأفضل.

وضعت الهاتف جانبًا وهي ما زالت تراقب صديقتها عن جُنب، وعادت إلى عملها لعشر دقائقَ قبل أن تتفقد صفحته مُجددًا بقلبٍ خافق، وخيالها يرسم لها ردًا خاصًا منه مختلفًا تمامًا عن البقية.

لكنها صُدمت بأن تعليقها الوحيد الذي اكتفى بأن يضع له إعجابًا فقط، حتى الرد النمطي المتوقع الذي يضعه للجميع بخل به عليها!

أسرعت إلى فتح الرسائل الخاصة لعله أراد أن يكون رده خاصًا جدًا ولها وحدها، ولكن لا شيء أيضًا.

تركت الهاتف بعصبيةٍ وهي تزفر مُشتتةً وتضغط جبينها بتوترٍ ملحوظ، سألتها «سُهيلة» عن سبب عصبيتها فمنحتها إجابةً زائفةً غير مُقنعةٍ عن عدم تمكنها من إيجاد أفكار جديدة للكتابة عنها.

رمقتها بنظراتها الخبيرة بها، موقعةً أن السبب له علاقة بتلك المشاعر السامة التي تتغلغل بعروقها، فلا شيء على الإطلاق بقادر على تغير حالتها المزاجية بهذه السرعة غيره!

أجبرت نفسها على الصمت، فلقد حذرتها كثيرًا بأنه متلاعب، لكن ماذا ستفعل النصائح أمام هذا الإدمان الذي تراه أمامها!

وفي المساء كانت على عجلةٍ من أمرها حتى أنها رفضت تناول العشاء بصحبة والدتها مكتفيةً بصحنٍ صغيرٍ رغم فراغ معدتها من الطعام طوال اليوم واصطحبته معها لغرفة نومها.

أعدت معه كوبًا من الكاكاو الساخن وضعته بجوار الفراش، كانت تريد أن تُشعره عندما يتصل بأنها كانت نائمة ولا تنتظره على الإطلاق، لماذا؟

لأنها مُستاءةٌ مما فعله، من كل أفعاله حقيقةً، وعندما يحاول ترضيتها ستخبره بأنها لن ترضى حتى يُخبرها بكل شيء، الحقيقة كاملة، كل تفصيلةٍ عنه وعن أمر زواجه وسبب اختفائه، وحتى تجاهله لتعليقها ستحاسبه عليه بشدة.

ضغطت الطعام بفمها سريعًا وسكبت مشروب الكاكاو بعده دون تلذذٍ بجرعات كبيرة في معدتها وتمددت على الفراش مغلقةً الأنوار تتخيل آلاف الكلمات، كلماتٍ حُرمت منها لشهور في أثناء غيابه، الدماء تضج بأوردتها وهي تستعيد حديثه العابث في نهاية كل مكالمةٍ ليلية بينهما، وكيف سيكون مشتاقًا بعد كل هذا الغياب!

زوجته؟! لا بد وأنها سليطة اللسان مثلًا، لا بد وأنها جامدة المشاعر لا تستطيع منحه الحب الذي يريد، أو هي ليست جميلة، أو ..

لقد تأخر!، تفقدت كل التطبيقات التي تربط بينهما وهو غير متواجد على الإطلاق، تخطت الساعة منتصف الليل وهي تعيث بفراشها فسادًا تحارب رغبتها في الاتصال به، حروبٌ ضاريةٌ بين عقلها وقلبها، وعندما دقت الساعة الثانية صباحًا استسلم عقلها المُتعب وتركها لشأنها.

ساعة كاملة تحاول وتحاول، وفي كل مرة ينتهي الجرس الطويل المتواتر دون رد، تجلس ثم ترقد بينما عصبيتها تزداد وانفعالاتها تتراكم وتثور كرامتها ويفور غضبها عليه كالبركان مع كل رنةٍ تنتهي دون إجابة.

لم تتوقف دموعها بينما دموع الخذلان الأول لم تجف بعد.

وعند الرابعة فجرًا كانت قد أُنهكت تمامًا وانطبق جفناها انهيارًا بعد كل هذا التعب، وفجأةً انطلق الهاتف يُعلن عن تحرك الحجر تجاهها أخيرًا، فتحت عينيها التي صارت تُشبه دُب الباندا وسواد السهر المتواصل والإرهاق يحيط بهما كالغمامة المُنذرة بالعذاب، والتقطت الهاتف وأجابت على الفور دون ترددٍ بنبرةٍ مذبوحةٍ من فرط البكاء تختزل كل معاناتها باسمه:

- خالد!

جاءها صوته الرخيم مُتخمًا بالشوق:

- روحي، كيف حالك؟

غلبتها ثورتها وهتفت دون تفكير:

- كيف حالي؟! حالي أنني أنتظرك منذ العاشرة مساءً!

لم تتغير نبرته قيد أنملة وهو يرد ببعض الأسف:

- تقبلي اعتذاري، لقد غلبني النوم والهاتف كان بعيدًا عني فلم أسمع اتصالاتك.

ضجت الدماء بعروقها واستشعرت ارتفاع حرارتها فنزعت قبعتها الصوفية التي كانت تُدفئها، إنها تحفظ صوته عن ظهر قلب عندما يكون مستيقظًا للتو من نومه، تلك النبرة الرائقة لا تنتمي إليه في هذه الحالة على الإطلاق، وكعادتها تُصرِّح ثائرة بما يدور بخلدها:

- أنا أعرفك جيدًا، أنت لم تكن نائمًا، ثم منذ متى وأنت تترك الهاتف بعيدًا عنك، ومنذ متى لا تسمع اتصالاتي، لقد كنت ترد سريعًا مهما كنت مستغرقًا في النوم.

ومُجددًا يجيبها بنفس النبرة الهادئة:

- هذا ما حدث.
- أنت تتهرب مني.
- ولماذا أتهرب منك؟!
- لأنك تريد إنهاء علاقتنا أليس كذلك.
- إن كنت أريد إنهاء العلاقة فلماذا اتصل بكِ الآن!
- لا أعرف!

قالتها وبكت، بكت بقوةٍ شاعرةً بالقهر، ليس لديها إجابة، إنه متناقضٌ وهي لم تعد تفهمه! هناك خطأٌ ما به، هذا ليس «خالدًا» حبيبها الذي تعرفه!

- «داري» أنا مُرهق، مُتعب، أنا أحمل همًا كبيرًا وحدي، احتويني كما كنتِ تفعلين دومًا.

سقطت رأسها فوق الوسادة وأطبقت جفنيها تستنشق عبارته الأثيرة إلى قلبها، الكنيلة بجعلها تنسحق تمامًا وتضيع، وهو يعرف كم تعشق طريقته تلك في منحها ما تريد بكلمتين فقط، ولم ينتظر حتى تفيق بل عالجها بنبرته الآسفة المُعتذرة على الفور:

- سأحرص على جعل الهاتف قريبًا مني فيما بعد.

قطبت جبينها مغمغمةً بنبرةٍ تحمل الكثير من الشك:

- لكن صوتك ليس كما أعهده عندما تكون مستيقظًا للتو!

زفر بقوةٍ قائلًا باختناقٍ تنضح به كلماته:

- أوف! لومٌ وعتابٌ ومحاكماتٌ وتساؤلاتٌ لا نهايةَ لها هنا وهناك. لقد تحولتِ لنسخةٍ منها ولم يعد هناك فارق.

- لا أقصد أن ألومك أو أحاكمك. لقد كنت .. فقط..

- كنتِ ماذا؟ أنا لم أنم منذ عودتي للقاهرة، مشاكلي تلاحقني، وبرغم ذلك لم أكن أفكر إلا بكِ، لقد استيقظت هلعًا لأنني تأخرت عليكِ، برغم كل ظروفي الصعبة وهمومي وحاجتي الماسة للنوم، فهل هذه هي الطريقة التي تستقبلينني بها؟!

تهدج صوتها بينما تحاول إثبات أنها لم تكن تقصد أن تزيد من مشاكله، لا تريد أن تضغط عليه كما تفعل زوجته كما لمّح لها، لن تدفعه بإلحاحها ليبتعد عنها.

نازعت غصة بكاء حروفها فأوقفتها عن المتابعة، هي لا ولن تشبهها؛ لن تتحول إليها، ستكون مختلفة، يبدو أنها ترتكب بكل جملةٍ تقولها خطأً فادحًا، ستتوقف عن طرح الأسئلة، ستتوقف حتى عن التنفس إن لزم الأمر، ستظل محبوبته الأثيرة كما كانت، إنه بالفعل من اتصل بها فلماذا تُشكك في نواياه، لماذا باتت لجوجة على هذا النحو!

لم تكن تعلم أن أفكارها كانت ظاهرةً للغاية في تنفسها العنيف الباكي، بأنه كان موقنًا بأنها تُدافع الدمع ألا ينهمر.

تركها حتى تنتهي من مداولاتها مع عقلها لدقيقتين، إنها الطريقة المُثلى لعدم الإجابة، ولا تصلح إلا لشخصيةٍ مثلها، هشةٍ وحيدةٍ، تعاني عقدة الترك والتخلي!

- أنا آسفة!

نطقتها بضعف وكأنها ترجوه، فزفر بقوةٍ وصمت وطال صمته العقابي حتى قرر تحريرها أخيرًا وقال بنبرة أبوية يعلم بأنها تعشقها:

- لا عليكِ حبيبتي. رصيدك عندي يسمح لكِ بكل حماقاتك هذه.

ابتسمت ممتنةً وهمهمت ضاحكةً مكتومةً خافتةً ضعيفة، يا لصبره وحنانه الأبوي الرائع! لقد قال «مازن» أن لديه أولادًا، ترى هل يعاملهم بهذا الحنان، هل يكلمهم بنفس النبرة، هل يحتضنهم ويشتمُّون رائحته الآسرة!

التقط ضحكتها المستسلمة تلك وباغتها بنبرةٍ ثقيلةٍ دومًا ما تثير الرعشة في أوصالها:

- أكثر ما أعشقه فيكِ هو خضوعك هذا.

ارتج خافقها استجابةً وحنينًا، فتنحنحت على الفور تجلي صوتها وقالت تُغيِّر مجرى الحديث بنبرةٍ متوترة:

- عندما تعرفنا أخبرتني بأنكَ لست متزوجًا.

لا بأس، فلتهرب كما تشاء، في النهاية لن تبتعد كثيرًا. ما أشهى مذاق الطعام الناضج فوق نيران هادئة، يحبه كذلك وهو صبور إلى حد الملل أحيانًا، لقد استعمل العصا والآن حان وقت الجزرة. قال:

- كما تعرفينني. أنا لا أحب مشاركة حياتي الشخصية مع أحد، ولما تعرفتُ إليكِ لم أجد أي داعٍ لإخبارك، كنا مجرد أصدقاء، وكنتِ صريحةً للغاية تشاركينني كل ما يدور بعقلك، أفكارك،

طموحاتك، مبادئك، والتي كان على رأسها أنك لن تدخلي يومًا علاقةً عاطفيةً مع رجلٍ متزوج، بل تعتقدين أن الزواج الثاني جريمةٌ لن ترتكبيها يومًا.

صمتت. نعم، إنها تتذكر ذاك النقاش الذي دار بينهما يومًا حول موضوع المقالة التي كتبتها في المجلة عن تعدد الزوجات، وكم كانت هجوميةً إلى درجةٍ جعلته يصمت وينتظر بهدوءٍ كعادته حتى تُخرِج كل ما في جعبتها، إلا أنه في النهاية لم يعقب على كلامها بل انتقل إلى موضوعٍ آخر ببساطة!

قاطع صوته الهادئ أفكارها مستكملًا حديثه:

- بعدها، وفي كل يومٍ تتطور فيه علاقتنا كانت مشاعري تجاهك تتطور هي الأخرى أكثر فأكثر وأجد عندك ما حرمت منه كرجل، أحببتك. لا أعرف كيف حدث هذا ولأول مرةٍ أشعر بالخوف عندما خفت أن أفقدك، لهذا لم أصارحك بزواجي، خشيت أن تتركيني، فإن كنت تضعين هذا في خانة الخداع، فــنعم، لقد خدعتك، أنا المخادع المتيم بك.

لم تكن تستمع، كانت تنتشي بكلماته، تستنشق حروفه التي تغطي عقلها ومنطقها مخترقةً قلبها المحروم، فتهدلت أطرافها حتى كاد الهاتف يزلق من بين أناملها وهمست بمزيدٍ من العتب لتحصل على مزيدٍ من الكلمات.

- لكنك اختفيت فجأة!!

يحفظها عن ظهر قلب، يعرفها أكثر مما تعرف نفسها، فمنحها ما تريد قائلًا:

- وماذا كنتِ تنتظرين؟! كيف لي مواجهة عينيك وأنا أخبرك الحقيقة، الموت عندي أهون من فقدك؛ لم أنم طيلة الأسابيع المنصرمة، كنتِ تحاصرين أفكاري، لو كنت مخادعًا بالفعل ما الذي كان سيمنعني من الاستمرار في الخداع، ما الذي كان سيمنعني أن أخبرك بأمر الإجازة السنوية وأنني أقضيها مع أهلي وإخوتي مثلًا، لكن لم أستطع أن أكذب هذه المرة أمام عينيك، حاربت نفسي وحاربتني حتى انسحقتُ تماما فهربتُ كالطفل الذي يهرب من أمه حتى لا يعترف بخطئه ويراها تغضب منه.

صمتت لثوانٍ بينما هي تستمع إلى تنفسه العميق قبل أن يردف بنبرةٍ راجيةٍ أكثر عمقًا وخوفًا:

- لكن الطفل يعلم جيدًا أن أمه ستسامحه وستمنحه من حنانها كما تفعل دوما وستحتويه لِيَعِدَها أنه لن يكررها ثانيةً أبدًا. أقسم على هذا.

أنهى كلماته بانفعالٍ يلامس شغاف قلبها، إنه يرجوها! كيف ترده وهي التي كانت تموت من غيره، وهي التي لم يتشبث بها أحدٌ يومًا ما!

لكن هناك الكثير والكثير من العتاب وعلامات الاستفهام، لقد سامحته منذ عودته وقبل حتى أن يقول أي كلمةٍ، كانت تكتب صك غفرانها وتوقعه، إلا أنها تريد الكثير من الإجابات والتبريرات تهدد به عقلها ليكف عن المقاومة، وقبل أن تتفوه بكلمةٍ باغتها.

- هل قلبك ما زال ملكي؟

فـــانبرت تدافع عن حبها بإخلاصٍ أعمى:

- قلبي وعقلي وحياتي كلها ملكك، كيف تفكر هكذا؟ فلا رجل يملأ عيني وقلبي غيرك، لقد كنت ميتةً في غيابك، والآن على قيد الحياة بسببك.

كان يبتسم وتتسع ابتسامته شيئًا فشيئًا مسبلًا عينيه ويتغذى. يمتص إخلاصها ومشاعرها حتى بدا وكأنه يزداد قوة. إنها تُغذيه بكل تفانٍ وجدارة.

أما هي فقد أخذت تنهت من فرط الانفعال وقد خانتها دمعاتها بمجرد أن شعرت في سؤاله ببعض الاتهام لإخلاصها، فقالت معاتبةً بأحرف تملؤها الغيرة.

- وأنت، بالطبع نسيتني تمامًا بينما كنت مع زوجتك.

الغصة أوقفتها عن التكملة وهي تتخيل مئات الصور له مع زوجته والحريق ينشب بكيانها كله، فانهمرت دمعات العتاب وهي تنتظر منه أي كلمةٍ لتهدئتها، لا بل لطمأنتها.

كلمةٌ واحدةٌ قادرةٌ على إيقاف تلك النيران المنبعثة منها وفيها.

لكنه تأخر كثيرًا. كان مستمتعًا وهي تعري أمامه مشاعرها بالكامل، ويبدو أنه ما زال هناك المزيد، فكيف يمنع نفسه تلك المتعة.

صمته جعلها تتآكل حرفيا من الداخل وهي تظنه يستعيد ذكرياته مع امرأةٍ أخرى ملقيًا إياها في الجحيم.

عادت تسأله وكأنها تتوسله أن ينفي، كرامتها ترزح أسفل غيرتها الطاحنة مطالبةً إياه بالجواب، وأخيرا جاءها ما أرادت.

قال باقتضاب:

- دارين، إنها زوجتي. هل تطالبينني بأن أظلمها مثلًا.

وكأنه سكب البنزين على النار، انفلت لسانها من عقاله تتهمه تارةً بالكذب، تارةً بالخداع ثم تبكي غيرتها المحمومة، تغضب وتهدأ وتنفعل وتثور.

استطاع الوصول إلى أعماق أفكارها بسهولة، الأمر ممتعٌ إلى أقصى حد، فكيف يوقفها، إنه يتلذذ كما لم يفعل طيلة حياته.

تركها بين أمواجها المتخبطة حتى الغرق، وفي اللحظة الأخيرة طوَّح لها حبلًا تتشبث به قائلًا:

- سامحكِ الله. لو تعلمين ماذا حدث لي لما ظننتِ بي كل هذا السوء، ومع الأسف لن أستطيع إخبارك، كنت آمل أن يلتقط قلبك ما أعانيه من همٍّ وتشتت، لكن للأسف، أنا معتاد على الظلم من الجميع.

- ماذا حدث لك؟ أخبرني!

قالتها بنبرةٍ مرتجفةٍ، متشككةً، متوترةً، لكنه لم يرد سريعًا كالعادة، فكررت سؤاله بإلحاحٍ أكبر حتى جاءها صوته حزينًا عميقًا مرهقًا.

- «داري»، أريد النوم أرجوكِ. نتحدث غدا.

كانت ضائعةً تمامًا في خضم مشاعرها المتضاربة، تتأرجح بين الاتهام والقسوة والحنان، صوته يبدو وكأنه يحمل همًا كبيرًا، تُرى ماذا حدث له؟ هل ظلمته بالفعل؟ هل تسرعت؟ هل؟ ... هل؟ ...

حتى بدأت تتهم نفسها بالعصبية الزائدة والأنانية. لا تفهم، كل ما تعرفه أن خافقها عاد للنبض مجددًا.

***

سبعةُ أيام كانت كافية لتوقن «سهيلة» بأن صديقتها قد عادت إليه، يكفي حالتها المزاجية المتقلبة، يومًا سعيدًا وآخر حزينًا، يومًا شاردةً

باكيةً ويومًا تعزف بأناملها على سطح المكتب في أثناء عملها وتدندن (وقابلته.. نسيت إني خاصمته.. ونسيت الليل اللي سهرته).

حتى مقالاتها متضاربة، وخاصةً تلك التي تتحدث عن الزواج الثاني، مسوداتها متخمةٌ بالجمل المحذوفة والبقية يغلب عليها طابع الكآبة تارةً والسعادة المفرطة تارةً أخرى، وفي كل الأحوال السهر والسهاد يصرخان على ملامحها محفوران أسفل عينيها.

في البداية كان مجرد شك، لكنها أذكى من ألا تلاحظ من بعيد تلك النظرة في عينيها التي تريد البوح وتحتاج إلى المشورة.

تبدأ في فتح الموضوع ثم تغلقه وتنصرف مطأطأة الرأس داخل دائرةٍ من الخزي تغلب عليها، الشك بات يقينًا عندما لاحظت تعليقاتها في صفحته الشخصية وكأنه لم يتركها يومًا.

«دارين» تحتاج إلى مساعدةٍ، لكنها تعرف ما الذي سينتظرها عندما تتكلم.

لن تتحلى «سهيلة» بالصبر أكثر، ستساعدها دون أن تطلب، ستضع أمامها ما يجعلها تنساه وتحذفه من عقلها وقلبها للأبد.

وبعد سبعةٍ أخرى، كانت قد حققت مرادها وحصدت ثمار صبرها وحققت هدفها.

وفّت بعهدها الذي قطعته لصديقتها سرًا، وجاءتها كهدهد سليمان بالخبر اليقين.

ولجت مكتبها صباحًا بحلتها الخمرية كلون بشرتها، تشد سترتها الضيقة حول خصرها، ترتدي قناعًا جليديًا مُحكمًا بينما تضع هاتفها المحمول أمام ناظري «دارين» مفتوحًا على محادثةٍ خاصةٍ قائلةً لها:

- اقرئي واستمعي.

رفعت «دارين» عينيها صوب «سهيلة» بنظراتٍ مبهمةٍ، ثم عادت إلى الهاتف تقرأ بداية المحادثة المضاءة أمامها، محادثةٌ خاصة على تطبيق ماسنجر بين فتاةٍ تدعى «نور» و.. «خالد»! لتتسع عيناها شيئًا فشيئًا كلما سحبت الشاشة لأعلى، ووصلت إلى الرسائل الصوتية القصيرة المتبادلة بينهما، حسابه الشخصي، صوته، أسلوبه وطريقته، مزاحه، غزله المتخفي بين الكلمات البريئة، ثم مكالماتٍ ليلية مستمرة، في نفس الأوقات التي يخصها هي بها وحدها.

راقبت «سهيلة» تتابع انفعالاتها الضارية فوق صفح وجهها المتغضن والذي شحب للتو. تعلم بأنها تقتلها، ولكن بعض الأمراض لا يصلح معها سوى البتر.

سحبت «دارين» الشاشة من أعلى كالمجنونة وكأنها تعدو فوقها بأناملها، وتبكي بكاءً يمزق نياط قلبها بينما تتركز عيناها على مواعيد المكالمات.

تلك الليلة كانت تنتظره ولم يتصل بها، وظلت تكافح النوم حتى الصباح بينما هو لا يرد، وهذه ليلة أخرى أغلق هاتفه تماما متحججًا باستكمال العمل على كتابه الجديد على حاسوبه المحمول.

وليلة ثالثة أشعل فيها فتيل مشكلةٍ قديمةٍ وبدأ يلومها على تفاصيلَ لم تعد تتذكرها قبل أن يدعي الاختناق والتأثر لينهي المكالمة.

ورابعة وخامسة، وكلهن ينتهين بنفس الطريقة، يُلفق مشكلةً تارةً، ويكذب تارةً أخرى، ويستفزها مراتٍ كثيرةٍ لتنهي هي المكالمة بعد أن تشعر بكرامتها تتفتت تحت وطءِ كلماته الباردة، وتظل تبكي للصباح وحيدة، ثم دون نومٍ تذهب لعملها في اليوم التالي.

أكان يتصنع كل هذا لأجل تلك الجديدة التي كان ينعتها بكتابه الجديد! قصف صوت «سهيلة» في أذنيها وكأنها تقرأ أفكارها قائلة:

- ضحيةٌ جديدة.

رفعت «دارين» رأسها كالسهم وبنبرة شرسةٍ سألتها:

- من تكون « نور « هذه؟

صُدمت «سهيلة» غيرَ مصدقة، ثم انحنت نحوها تحاول التحكم في غضبها هاتفةً بها:

- هل هذا هو كل ما تفكرين به! من تكون؟! حسنًا، حساب وهمي يا «دارين» وعلى هاتفي والرسائل الصوتية بصوتي، فمن تكون سواي؟

دارت معركةٌ بين نظراتهما لبعضهما البعض لمدة دقيقةٍ كاملةٍ صرعتها «سهيلة» على الفور، فأطرقت تتمسك بالهاتف بأصابعَ متشنجة، صديقتها أوقعت به لأيامٍ وسقط هو بسرعةٍ غريبة وبعد أن حققت هدفها أحضرت إليها الدليل الواضح كالشمس على خيانته ثم تأتي هي لتسأل ذاك السؤال الواهي؛ من تكون!

تناولت هاتفها بعنفٍ لتتصل به مرةً بعد مرة، لينتهي الرنين في كل مرةٍ دون رد، بينما جسدها يتأرجح ويتشنج من فرط الانفعال.

سحبت «سهيلة» هاتفها من بين أصابع «دارين» المتشنجة وراسلته من جديد تسأله:

- لقد فكرت في كلامك. أنت على حقٍ، ولكن هل أستطيع مهاتفتك الآن بدلا من الانتظار إلى الليل أم أنك مشغول؟

على الفور أتاها الرد وبجانبه القلب الأحمر النابض:

- اتصلي أنا في انتظارك.

أدارت «سهيلة» الهاتف لتمكن «دارين» من قراءة رده، وكأن الكلمات قد دفعتها للخلف فسقطت فوق مقعدها مذهولةً صدرها يعلو ويهبط، وجهها شاحب كالأموات، تتمتم بعقلٍ مسلوب:

- لماذا يفعل بي كل هذا؟! لماذا يطعنني في كل مرة؟! لماذا يتلاعب بي؟! لماذا يخونني؟!

أخذت «سهيلة» كفها البارد كالثلج بين يديها الدافئة مهدئةً إياها محاولةً إزالة الغشاوة عن بصيرتها:

- أخبرتك من قبل، من يخون مرة يخون ألف مرة. وهو في الأساس يخون زوجته أُمُّ أبنائه، أم أنك لا تضعين تلك المسكينة في حساباتك، إنه يخونها معك ومع غيرك، بينما هي هناك تربي له أولاده وتنتظر عودته السنوية مكتفيةً بهذا النذر القليل من الزواج.

لم تكد تنتهي «سهيلة» من آخر كلماتها، حتى نهضت «دارين» فجأةً كالملسوعة مختطفةً هاتف «سهيلة» من يدها وتسحب حقيبتها بعنفٍ يتناقض مع شحوبها، وانطلقت مهرولةً خارج الغرفة ثم إلى الدرج.

وبعد أقل من نصف ساعةٍ كانت في مبنى الشركة الهندسية تقف أمامه متشنجةً قابضةً على هاتف صديقتها بين يديها، تسيل دموعها أنهارًا بين ملامحها الضائعة.

نظرات زملائه المتسائلة والعابثة من حولهما جعلته يغضب ويقبض على معصمها بقسوةٍ ساحبًا إياها خارج الغرفة حتى وصل بها إلى آخر الرواق وجذبها خارج المكتب كله، دافعًا إياها تجاه الحائط المواجه للدرج.

وقف مواجهًا لها قائلًا بغضب مكبوتٍ وهو يضغط أسنانه:

- للمرة الثانية تخرقين الاتفاق الذي بيننا وتأتين لمكان عملي، ثم ما هذه الحالة المزرية التي تعتريكِ؟!

قالها ببعض القرف وهو يلتفت حوله محافظًا على نبرة صوته، لكنه لم يلاحظ ذاك الذي يقف أسفل الدرج مسترقًا للسمع لما يدور بينهما.

رفعت «دارين» هاتف «سهيلة» في وجهه تواجهه بخيانته، دون أن تنطق بحرف.

لقد رسمت في مخيلتها كل رد فعلٍ ممكنٍ لوجهه لحظة المواجهة إلا أنها لم تتخيل أبدًا أن يكون رد فعله الوحيد.. صفرًا...

جمودٌ تامًا غطى ملامحه فجأةً مثبتًا نظراته على الشاشة ثم في عينيها وبصمتٍ كصمت القبور قبل أن يحرك رأسه ببطءٍ يمينًا ويسَارا هامسًا بدهشة:

- أنتِ! أنت تفعلين هذا؟ أنا مصدوم!!

- مصدوم؟!

كررتها خلفه غاضبةً وقد اتسعت حدقتاها بدهشةٍ بالغةٍ متهمةً نفسها بالغباء.

ربما لم تفهم ما قاله للتو، لكن كيف بتلك المشاعر المتعاقبة على وجهه، الخيبة، عدم التصديق، ثم النفور!

فعادت تكررها حائرةً للمرة الثانية هامسة:

- أنت المصدوم؟!

زم شفتيه الحادتين حتى باتا كخطين رفيعين متلاصقين قبل أن يمطهما شاعرًا بالأسى محركًا رأسه مُنكرًا للموقف الذي وضعته به، وقد ابتعد بنظراته عنها للأسفل قائلًا بنبرةٍ جشاء متخمةٍ بالحزن:

- إلى هنا وكفى. لقد تحملت الكثير؛ تقلباتك المزاجية التي لا تنتهي، اتهاماتك الباطلة كلها، تعريضي للتوبيخ من مدير النشر بسبب طريقتك وتهجمك عليه في مكتبه بكلمات لا تليق في غيابي، همزَ ولمزَ زملائي عني هنا في الشركة بسبب رعونتك، تحقيقاتك ومحاكماتك اليومية، باتت علاقتنا كالجحيم دون لحظة تَعقُّلٍ واحدة. لقد كنت على استعدادٍ للتحمل أكثر بصبرٍ وحب. لكن أن تَصِلِي معي إلى هذا الحد! تجلسين مع صديقاتك وتجعلينني طبق المائدة الرئيسي وتخططين للإيقاع بي! وأنا الذي كنت أخبئكِ بين ضلوعي وأجعلكِ سري حتى لا يخدشك أحدٌ ما بكلمةٍ تَمَسُّ سُمعتكِ! هذا فوق طاقتي وفوق قدرتي على التحمل. انتهينا!!

استدار ببطءٍ عنها عائدًا للداخل متخاذل المنكبين مطأطأ الجبين، فاندفعت كالإعصار الأهوج تهتف رافعةً كلتا يديها دون أن تجرأ على لمسه:

- لم أخطط لشيء. «سهيلة» هي من فاجأتني بالمحادثة، ذُهلت وجئتك لأسألك، أنت لم تدافع عن نفسك بكلمة!

التفت إليها غاضبًا، كانت ترتعش بكل ما تحمل الكلمة من معنى، نبرتها مرتفعة مرتعشة، بداخلها ينتفض، حتى أطرافها الباردة كانت ترتجف بوضوح، متوسلة النظرات مجنونة المنطق، تهاب سؤاله وكأنه أبوها وترجوه أن يُنكر!

انطفأ غضبه فجأةً وقال بهدوء:

- هل كنتِ تظنينني بهذا الغباء؟ فجأةً تراسلني فتاةٌ لا أعرفها وتطلب مساعدتي، فأسقط معها هذه السقطة كالأبله بهذه البساطة دون حتى أن أنتبه إلى صوتها الذي أعرفه جيدًا!!

همست دون فهم:

- ماذا تعني؟

ارتفع طرف شفتيه قليلًا بسخريةٍ قائلًا:

- لا شيء، فقط قمت بدوري في خطتك لأمنحك ما تسعين إليه في النهاية.

فَغَرَتْ فاها ببلاهةٍ لا تعرف هل تنكر أنها خطتها أم تحاول استيعاب تلك الألغاز في كلماته، أما هو فقد شرد بنظراته يمينًا قائلًا بنبرة متهدجة:

- أتعتقدين بأنني لا أفهم حزنك الساكن، نظراتك ونبرة صوتك منذ عودتي؟، أنتِ مرتبكةٌ يا حبيبتي، حائرةٌ بين قلبك وأفكارك التي تنادين بها في كل كتاباتك، حزينةٌ ولم تستطيعي نسيان أنني خذلتك وأخفيت عنكِ زواجي، حتى ضحكتك باتت حزينةً مثلك، لقد تغيرتِ كثيرًا، وأعلم أنني السبب، أنا المسؤول عن حزنك هذا، وأعلم كذلك أن بداخلك تبحثين عن سببٍ مقنعٍ لحسم الأمر بشأني، تريدين إثبات تهمة الخيانة لتتركيني بنفسٍ راضية، لذلك منحتك كل ما تحتاجين لحسم مشاعرك تجاهي، وللعلم أنا لا ألومك.

عادت تهمهم مأخوذةً:

- كل هذا لم يحدث!

واجهها بنظراته القوية مهاجمًا، قال:

- أتنكرين أنكِ بالفعل حائرةٌ في مشاعرك تجاهي منذ عودتي، أتنكرين بأنها صديقتك؟

حركتِ رأسها مرة بالموافقة ومرة بالرفض هامسة:

- نعم ولكن أنا لم..

صاح فجأةً بوجهها مما جعلها تندفع خوفًا للخلف ليرتطم ظهرها بالجدار فأغمضت عينيها متألمةً بينما هو يوبخها:

- وتتبجحين بوقوفك أمامي الآن وهاتفها بيدك.

ألقى نحوها نظرة أخيرة قبل أن يستدير مودعًا بنبرةٍ يملؤها الشجن:

- أتمنى أن تكوني قد شعرتِ بالراحة الآن، ومن كل قلبي أرجو لكِ السعادة بعد أن تحط سفينتك أخيرًا بدوني، لن أنساكِ أبدًا، ولن تأخذ غيرك مكانك مهما حدث.

هتفت منهارةً من بين دموعها المنهمرة:

- أرجوك! أرجوك لا تفعل بي هذا! هل حقًا كنت تعرف أنها «سهيلة»!

تنهد بعمقٍ حتى ملأ رئتيه بالهواء ثم أجابها خافضًا نبرته وعينيه:

- نعم، عرفت صوتها من أول كلمة. ليس لأنني معجبٌ بها أو أي شيءٍ مريضٍ مما يدور برأسك؛ فأنا أعلم جيدًا أنها لا تطيق تواجدي حولك منذ أول مرةٍ قابلتها عندما جئت لزيارتك في المجلة، ولكن لأنني لا أنسى أبدًا أي تفصيلة تخصك أو تخص المحيطين بكِ، كنت أظن أنك ستقدرين، لم أتخيل يومًا أن تجعليني مادةً للسخرية.

اختنقت بالدمع وتخلت عنها قدماها وقد أدركت أنها النهاية وصارت تكرر بلا توقف:

- لم أكن أنا! لم أكن أعلم! كانت سهيلة! لم أخطط لتركك! لا أستطيع تركك!!!

عاد إليها يسندها من كتفيها بلهفةٍ وقد أوشكت على السقوط منهارةً ويناديها لتخرج من تلك الحالة:

- داري! تماسكي! تعالي معي لأقلك.

تَمسَّك بها بقوةٍ دافعًا إياها لتسير أمامه هابطًا بها إلى الطابق السفلي، وضعها في سيارته واحتل مقعد القيادة وانطلق إلى مقر عملها، تركها تبكي وتُفرغ ما بداخلها من انفعالٍ وترددٍ، كلماتٍ عشوائيةٍ تدافع عن نفسها تارةً وترجوه ألا يتركها كوالدها تارة.

وقبل أن يصل إلى مقر عملها كانت قد هدأت وتوقفت عن البكاء، لكنها لا ترفع عينيها عن جانب وجهه بينما هو لا يرفع عينيه عن الطريق أمامه صامتًا ولا يبدو حتى أنه يتنفس.

توقف أسفل البناية وأمرها أن تغادر إلى عملها ولا تفكر في أي شيءٍ يحزنها الآن، حاولت أن تتفوه بأي كلمة لكنه أوقفها بإشارةٍ حاسمةٍ من يده دون أن يلتفت نحوها:

- اذهبي الآن، لا بد أن نهدأ قليلًا فأنا مشوشٌ للغاية وأريد الانفراد بنفسي، سنتكلم فيما بعد، هيا حتى لا تتأخري أكثر عن عملك.

نهضت «سهيلة» مرتعبةً عندما خطت «دارين» داخل الحجرة متهدلة الكتفين باكيةً كمن علمت للتو بخبر وفاة والدها، مستندةً بكفها إلى الجدار كأنما تتحسسه، بينما يدها الأخرى تتخلى عن كل ما تحمله فتسقط حقيبتها أرضًا بدويٍّ مكتوم، وقبل أن تحذو «دارين» حذوها كانت «سهيلة» قد وصلت إليها جريًا وتمسكت بها هاتفة بلوعة:

- حبيبتي، هل أصابكِ مكروه؟ هل تطاول عليكِ بأي شكل؟ أخبريني وأنا أقسم لكِ بأنني سوف..

دفعتها «دارين» فجأة عنها وقد أطل الكره متوحشًا من خلف عينيها صارخةً بها:

- أنتِ السبب! جعلتِه يتركني للأبد.. اخرجي من حياتي.. اذهبي للجحيم.. لا أريد رؤيتك مجددًا أيتها الحقيرة!

طالت صرختها الغرف المجاورة فأسرعت زميلاتهما لمعرفة ما يحدث بفضولٍ مندفعاتٍ واحدةً تلو الأخرى للداخل ليشهدن سقوطها الأخير أرضًا مغشيًا عليها بوجهٍ شاحبٍ كالأموات، بينما «سهيلة» تقف على بُعد خطوات منها متجمدةً متسعة العينين زائغة النظرات.

***

- ماذا فعلتِ بابنتي يا «سهيلة»؟!

لم يكن سؤالًا، كان اتهامًا واضحًا في عيني والدتها بينما ترمق «سهيلة» بنظراتٍ ناريةٍ جوار الفراش الذي ترقد «دارين» فوقه بين النوم واليقظة، لا تفعل سوى البكاء ولا تهمس إلا بتوجيه اللوم إلى «سهيلة».

مما جعل والدتها تتحفز ويظهر في عينيها كل هذا الكره، تُرى ماذا فعلت بالفتاة!

- لم أفعل أي شيءٍ خاطئٍ خالتي، تعلمين كم أخاف عليها وأعتبرها أختي الصغرى.

- لماذا إذن تردد بأنكِ السبب يا «سهيلة»؟! والسبب في ماذا أنا لا أفهم!

غمغمت «سهيلة» بفؤادٍ مُدْمًى ترمق ملامح «دارين» المنهارة هناك:

- اسأليها بنفسك عندما تستفيق مما هي فيه، ونصيحة يا خالتي، دارين في حاجة لزيارة طبيب نفسي فهي تعاني من..

استشاطت الأم غضبًا لكنها ما زالت حريصة على خفض صوتها لذلك دفعت مرفقها بغلظة تقاطعها:

- ابنتي ليست مجنونة، هل تريدين أن تنشري الإشاعات حولنا ويلوكنا الناس بأفواههم! فلا تجد المسكينة من يتزوجها؟

نظرت «سهيلة» إلى مرفقها لثوانٍ، للمرة الأولى تُدرك أن المرأة سريعة الغضب هكذا، بل ومن الواضح أنها حين تغضب تخرج عن سيطرتها سريعًا فتصبح عنيفةً للغاية!

الوضع كله بالنسبة لها كان مؤلمًا ومهينًا وساخرًا، لقد اتخذت الأم نفس ردة فعل ابنتها عندما حاولت المساعدة، وأي زواجٍ هذا الذي تتحدث عنه وتتشبث به بينما كل هذه المشاكل التي يرزحون أسفلها كانت بسبب رجل!

أرسلت تنهيدةً حانقةً وهي تنحني لتلتقط حقيبتها قائلةً بنبرةٍ محايدةٍ محاولةً إخفاء الحنق فيها:

- خالتي سأذهب الآن يجب أن أعود للعمل، وسأمر عليكما غدًا لأطمئن عليها.

- لا أريد أن أراك حول ابنتي مرةً أخرى!

قطبت جبينها متهمةً نفسها بضعف السمع، لكن حتى وإن لم تسمع، ألم ترَ تلك التعبيرات الوحشية على وجه المرأة ونظراتها الحارقة الكارهة!

ابتسمت مشوشةً مغمغمة:

- لم أفهم.

كانت همهمات «دارين» تقطع الصمت بينهما كموسيقى تصويرية تناسب الحالة الدرامية السائرة بينهما، لا تتوقف عن اتهام «سهيلة» بأنها السبب!

نظرت الأم إلى ابنتها ثم عادت تنظر إليها قائلةً باشتعال:

- ما فهمته.. لا أريد أن يخيب أملي فيها وتصير مثلك. اتركينا وشأننا.

لن تبكي. لم تفعلها حين طردها والدها من بيته وخيَّرها بين أن يتبرأ منها وبين تصميمها على الطلاق، اختارت الطلاق والوحدة، فهل تبكي الآن عندما تسمع نفس الكلمات من فم والدة صديقتها.. أو من كانت يومًا.

***

بما استطاعت جمع شتات عقلها لم تخبر أمها بشيءٍ مما حدث، بل قامت بتأليف كذبةٍ عن كون «سهيلة» تسببت لها بمشكلةٍ في العمل ستضطر على آثارها إلى المكوث في المنزل حتى تعثر على وظيفةٍ أخرى.

كانت تخرج يوميًا للبحث عن عملٍ بالفعل في مجلةٍ أو جريدةٍ أخرى، حتى تحصلت في النهاية على وظيفةٍ، لكنها بالقطعة.

وبالقطعة هنا تعني أنه لن يكون لها دخلٌ ثابتٌ شهريًا، أو مكان عمل تذهب إليه يوميًا في مواعيدَ محددةٍ، ستكتب عدة مقالاتٍ وقصصًا وترسلها وإذا قبلوا بها سينشرونها ويمنحونها المقابل المتفق عليه والذي اضطرت أن تقبل به!

ويومًا ما وبينما هي تسير هائمةً بين المكتبات المتخصصة في بيع الكتب القديمة لعلها تزفر بفكرة ما بينهم، وقعت عيناها على كتابٍ بعنوانٍ جذب انتباهها، فخ الطاووس!

اقتربت من من الكتاب وقلبته بين أصابعها، ليس قديمًا ككل الكتب من حوله، نعم هو نسخة مُقلدةٌ ككل الكتب هنا، لكن لا بأس فمجموعتها القصصية الوحيدة أيضًا تُباع كنسخةٍ زائفةٍ عند نفس البائع!

عادت بالكتاب إلى منزلها واصطحبته معها إلى فراشها، الكتاب كان يتحدث عن الشخصية النرجسية ومدى تأثيرها على المحيطين بها.

كان «خالد» هناك في كل صفحةٍ وبين كل سطر، بل ومختبئًا بين حروف الكلمة الواحدة، كل الصفات تنطبق عليه، كل الخدع والتلاعب بالكلمات، كيف يجعلها تُصاب بانهيارٍ وبكاءٍ يَفطِر قلبها بينما هو هادئٌ لا تتحرك في رأسه شعرة.

إنه هو. وكأن الكاتبة لم ينقصها سوى أن تذكر اسمه، كل هذا الوقت كانت ترزح أسفل علاقةٍ خيوطها كلها بين أصابع رجلٍ نرجسيٍّ منتفشِ بريش يزهو به بينما يُخبئ أسفل منه قلب طاووس لا عَرف معنى التعاطف ولا الحب إلا لنفسه وفقط!

شعرت بغليان يسري بأوصالها، لقد كانت لُعبةً لا أكثر ولا أقل، كان يستغلها ويتغذى عليها دون أن تشعر!

هل تسكت؟ هل تتركه؟ هل تنتقم؟ تواجهه؟ تخبره بأنها عرفت خطته؟ تخبر زوجته؟ تفضحه في عمله؟

الكثير والكثير جال بخاطرها بينما تقطع مساحة الغرفة ذهابًا وإيابًا تفكر في وسيلة انتقامية منه!

لكن الكتاب يُحذر كل من تفكر في الانتقام من النرجسيِّ، ببساطةٍ هي لا تملك صفاته ولا براعة إقناعه بأنه مظلومٌ، وكل ما ستحصل عليه مزيدٌ من التعاطف الذي سيكتسبه هو من وراء ما ستفعله، وستخرج هي في النهاية في صورة فتاةٍ دخلت في علاقةٍ مع رجل متزوجٍ وعندما تركها قررت فضحه!

بكت بقوةٍ حزنًا على ما فاتها، ليالٍ طويلة، بكاءٌ وحزنٌ واكتئاب، تذرف روحها في علاقةٍ أنهكتها وجففت ينابيعها، لتكتشف في النهاية أنها خرجت من تلك العلاقة صفر اليدين.

الآن فهمت أنها كانت ضحية، فهمت لماذا كانت هي التي تعتذر بعد كل مشكلةٍ تحدث بينهما حتى وإن هو المخطئ، فهمت لماذا كانت تخرج من بعد كل مناقشة معه باكيةً تدور حول نفسها في حلقةٍ مفرغةٍ من تساؤلاتٍ ليس لها إجابة ولن يكون يومًا!

هل أهملت عملها وفقدت صديقتها وأضاعت نفسها وسلامها من أجل رجلٍ كهذا.. لا تُصدق!

***

يسير بخطًى سريعةٍ يغلب عليها التعثر والارتباك، دائمًا ما يكون شارد الذهن وكأنه يمارس حالة ذهولٍ أبديةٍ لا يخرج من فكاكها إلا عندما يناديه أحدهم، وقتها يضطر إلى استفاقةٍ سريعةٍ ثم يعود بعدها بإرادته ظلمتَه التي اختارته فاختارها.

وهذه المرة أحدهم هذا كان جارًا يسكن بالشقة المقابلة له:

- أستاذ فريد!

توقفت يده التي كانت في طريقها إلى غلق الباب ورفع رأسه نحو مناديه بتمهل، إنه يقطن هذا المسكن منذ سنوات ورغم انزوائه وحرصه على عدم الاختلاط بأيٍّ منهم إلا معاملاته الضرورية فقط وكثيرًا منها يقوم بها حارس العقار بالنيابة عنه، لكنهم دائمًا ما يصرون على إقحام أنفسهم في حياته بشكلٍ ما:

- مساء الخير!

قاله جاره بابتسامةٍ متكلفةٍ بينما يخطو تجاهه مُتابعًا:

- هناك شخص ما طرق بابك اليوم وأنت متغيبٌ وعندما سألته عن هويته قال بأنه قريبك، لكنني أشك في ذلك فهو لا يشبهك على الإطلاق ويبدو أجنبيًا من أول وهلة!

زوى ما بين حاجبيه مُعدلًا وضع عويناته الطبية، لا أحد يزوره على الإطلاق بخلاف عمته، وتلك الأخيرة لا تفعل إلا بعد أن تتصل به أولًا.

نبتت فجأةً حبات العرق فوق صدغيه واضعًا حقيبة الأوراق السوداء التي كان يحملها أرضًا جوار الباب من الداخل، وعندما اعتدل لاحظَ

الرجل الشحوب الذي غزى وبشرته قمحية اللون واتساع عينيه خلف زجاج نظارته وهو يسأله بتحفزٍ قلق:

- لونه يشبه..

قاطعه جاره مستكملًا وصفه بضحكاتٍ متقطعةٍ متوقعًا أن يجاريه «فريد» ويتبادل معه الضحكات:

- البرتقال.. يتكلم بطريقةٍ غريبةٍ جدًا ويقول إنك تعرف بموعد الزيارة منذ سنوات!

لكن شحوبه الآن بات ظاهرًا بشكلٍ مخيف، واتسعت حدقتاه أكثر مما كانتا عليه، وكأنه كُشف عنه الحُجب فجأةً وشاهد ملائكة العذاب يرفعون سِياطهم النارية!

يا إلهي إنه هو، لقد أتى كما وعده واستطاع الوصول إليه في عقر داره!

- ماذا بك يا أستاذ «فريد» هل أنت مريض؟

لم يُجبه، لم يسمعه أصلًا، تراجع خطوةً للخلف مُغلقًا مستندًا بكل أصابعه إلى لوحة أزرار الإضاءة لتسطع كلها دفعةً واحدة.

شهق شهقةً عاليةً عندما وجده في الداخل، جالسًا بهدوءٍ واضعًا قدمًا فوق الأخرى مُسترخيًا أمام التلفاز كأنه في بيته تمامًا.

- ما زلت جبانًا كما كنت.

لم يتزحزح خطوةً ولم يأتِ بحركةٍ واحدة، فقط كان هلِعًا مُتجمدًا يتصبب عرقًا في يناير!

وقف الزائر بتمهل يبعثر به أعصاب «فريد» واقترب:

- ما زلت على نحولتك، فقط ازدت طولًا، وكأنك لم تكبر أبدًا، مثلي تمامًا.

دار ببطءٍ حول نقطة ارتكازه فاتحًا كلتا ذراعيه بعجبٍ بالغٍ يعرض نفسه ومحاسنه:

- ما زلتُ رشيقًا جذابًا أحمل عضلاتٍ متناسقةً، كل ما طرأ عليّ هو هذا الشيب اللعين!

قالها وهو يمسح فوديه ويتابع بغرور:

- ليس لعينًا جدًا في الحقيقة، فلقد منحني مظهرًا وقورًا ويزيد من مصداقيتي وقوة إقناعي.

صمت أخيرًا بعد استعراض صفاته ووسامته منتظرًا تعليقًا ما، لكنه لم يحصل إلا على عينين محدقتين وهمسةٍ خافتة:

- كيف عرفت طريقي، كيف دخلت؟!

دنا منه الغريب مثبتًا عينيه التي باتت كفنجانين تدور بهما دوامةٌ زرقاءُ لا قاع فيها، شعر «فريد» بالدوار، حاول رفع ذراعه للاستناد إلى أي شيءٍ يصلح لكنه لم يقوَ إلا على الإنصات لكلماتٍ آتيةٍ من جحيم ما نحو أذنيه لها حرارة تكاد تحرقهما:

- دع عنك هذه التفاهات، كيف ومتى وأين، هذه الأسئلة لم تعد تكفي لاحتوائي أنا.. وبداخلك تدُرك ذلك جيدًا وتفهمه ولذاك تخشاني كالشيطان ذاته!

وضع كفه على كتف «فريد» بقوةٍ فشهق متراجعًا بينما فرائصه ترتعد ويكاد قلبه يهرب قافزًا من بين فكيه وقد أعيته الخفقات المتزايدة والتي تحولت إلى ضرباتٍ مؤلمةٍ بينما يسحبه غريمه نحو مقاعد الاستقبال ويُجلسه فوق أحدهم في المقعد المقابل له بينما ينتشي من الخوف المُطل صارخًا من عيني فأره المرتعب قائلًا بخفوت:

- هل تذكر اللحظة الأخيرة قبل هروبك، أتذكر كيف تركتني هناك وحيدًا ألاقي مصيري وحدي معها، هذه اللحظة لم ولن أنساها ما حييت ولها ثمنٌ عليك دفعه.

حينها عثر «فريد» أخيرًا على حنجرته مكتشفًا أن له أحبالًا صوتية، فتكلم لاهثًا بينما عقله يرسم له مئات الصور من العذاب الذي سيلاقيه على يدي ذلك المجنون:

- أقسم، أقسم لم أستطع، كنت مرتعبًا وأنت تعرف، أقسم..
- ششششش..

وضع سبابته أمام شفتيه يُسكته، وبالفعل صمت مستمعًا لتعقيب زائره:

- لم يكن عليك تركي، ولكن وبما أنك فعلت، فلا بد وأن تقاسمني المصير نفسه.
- أي مصير؟!

تراجع للوراء مستندًا إلى ظهر مقعده مستعيدًا هيئته الأولى قدمًا فوق الأخرى، مرفقاه يستندان بكبرياء ملك جالسٍ على عرشه مستمتعًا يحكي قصة كفاحه:

- لقد بقيت لسنواتٍ بعد هروبك ألاقي العذاب ضعفين، حتى جاءت اللحظة التي سمعتها تصرخ بالأعلى، ثم رأيتها تلج من باب القبو مندفعةً تتدحرج على الدرج بينما النار تأكل جسدها، لكنها لم تكن قد ماتت بعد.

ومن خلفها اقتحم المكان مجموعة من رجالٍ ونساءٍ عرفت بعدها أنهم يسمون أنفسهم «المتطهرون»، قاموا بفك قيدي وتركوني أشاهدها تموت حتى لفظتْ أنفاسها الأخيرة.

سقطتُ مغشيًا عليّ من فرط الإعياء، وعندما استيقظتُ وجدتُ نفسي بينهم وقد غدوت أحد أفراد مجموعتهم وعليّ تقديم فروض الطاعة ومساعدتهم، أولًا بمعلوماتي التي أعرفها عن النساء اللاتي يقمن بالسحر في الخفاء أمامي في القبو مع أمي، وثانيًا في الانضمام إليهم في حرقهن، وقد كان.

بينهم تعلمت الكثير مما يُخضع رقاب البشر والساحرات كليهما، لكن طموحي لم يتوقف عند هذا الحد، فهذه المجموعة لا تفعل سوى تقصِّي أخبار النساء في «سايلم» ومن يكتشفون أنها تعمل بالسحر يقتلونها، ليس لتطهير البلدة كما يدعون أمام العامة في المجالس نهارًا، ولكن حتى لا يكون هنا من هو أقوى منهم في المجال ذاته وتكون الغلبة لهم وحدهم. أما أنا فقد أردت ما هو أكبر من كل هذا، أردت أن أكون زعيم كل هذه الطوائف، ولم يعد ينقصني سوى خطوةٍ واحدة.. تقديم الأضاحي!

***



المهلة الأولى

صافرةٌ مزعجةٌ كصفارات إنذار الحريق دوت قبل الشروق لعشر ثوانٍ كاملةٍ لتوقظهم فزعين منتصبين في أسرّتهم.

الأولى تتحسس الفراش للعثور على عويناتها لاهثة، لم تكن يومًا بحاجة شديدة للرؤية الواضحة كحاجتها الآن.

الثاني يقفز واقفًا يتشمم هواء الغرفة لعله يلتقط رائحة حريق ما، هل أشعل أحدهم لفافة تبغ تسببت في إطلاق إنذار الحريق؟! لكن عيناه لم تكتشف بالأمس ولا حتى الآن أي أثر لأي جهاز إنذار أو مضخة مياه!

الثالث يجلس على ركبتيه فوق الفراش الذي يموج أسفل جسده الضخم، يستند بكفيه إلى فخذيه ويتلفت فزعًا هنا وهناك عن مصدر هذا الإزعاج، هل كان يحلُم! أم ما زالت ذاكرة سجن طرة محفورة بداخله إلى هذه الحد!

و الرابع فقد كان يمرر كفيه على شعره يعيد ترتيب وسامته بعد أن شعثتها كوابيسه التي لم تفارقه طوال ساعات نومه، يسُب ويشتم وينعت نفسه بالرعونة والبلاهة لموافقته على هذه الرحلة الغبية.

أما «فريد» فلم يكن نائمًا مثلهم، كان يقف خلف النافذة يتأمل الجبال المحيطة بالمبنى قبل أن تنطلق الصافرة، ربما لذلك لم يحدث له سوى انتفاضةٌ بسيطةٌ لجسده الهزيل، تنحنح على إثرها بعد أن أخرجه الصوت المزعج من حديقة تأملاته الخصبة!

أبواب غرفهم لم تكن موصدةً من الخارج، فبمجرد أن أدار كل واحدٍ منهم الرتاج الحديدي من الداخل فُتحت أبوابهم بسهولة، ويبدو أن الجميع كان لهم نفس الغرض.

الرجال الأربعة يبحثون عن الحمام، أما «دارين» فلقد كانت تبحث عن شيء مختلف... غرفة السيدات!

نعم، هي نفس المعنى، ولكن السيدات يفضلن هذا اللقب أكثر وأنا مضطرة إلى مجاراتهن -عن غير اقتناع-!

تأملها «خالد» وهو يغادر الحجرة التي قضى ليلته فيها قاصدًا الحمام هو الآخر، يُشمر أكمام قميصه الأزرق متمهلًا في خطواته.

كانت تقف بخجلٍ تنتظر دورها في الدخول، تستند بظهرها إلى جدار الرواق المقابل، تتململ في وقفتها، يبدو أن صخور الجدار من خلفها مدببةٌ ممتلئةٌ بالنتوءات وبروز الحجارة تنغز ظهرها فتعتدل في وقفتها متأففةً تنتظر دورها في الدخول بأدب!

بسيطة، متوترةٌ كأول موعد بينهما.

عندما وقفت بنفس التململ تنتظره في نهاية الرواق المؤدي إلى غرفة مكتب مدير دار النشر التي كانت تحتكر كتب التنمية البشرية خاصته.

عيناها حائرتان بينما تتلفت تبحث عنه، تضرب الأرض بكعب حذائها، فلقد تأخر كثيرًا حتى ظنت بأنه لن يأتي أبدًا.

هو يعترف بأنه تعمد التأخير، ألم يكفِ بأنه تنازل ووافق بعد إلحاحٍ منها بأن يأخذ لها موعدًا كنوع من أنواع «الواسطة»!

يعترف أيضًا بأنه حصل على ما أراد؛ كان يريد تلك الوقفة المنتبهة المنتشية بمجرد أن تلمح قدومه، الابتسامة السعيدة المُرهَقة، هندمتها لملابسها بأصابعَ سريعةٍ مرتبكة، نظرتها السريعة التقيمية نحو المرآة الجانبية عن يسارها، تحرك حنجرتها وهي تبتلع ريقها الجاف، ألق التوق في عينيها نصّبَه راعٍ للثقافة العربية فتنحنح ليُكسِب صوته الحزم اللازم لتولي منصبه الجديد لديها!

ما زال يتذكر رسائلها المتوالية بلا هوادةٍ على حسابه الشخصي، وهي ترجوه أن يطَّلع على مجموعتها القصصية ويمنحها فرصة ويتوسط لها.

كانت شغوفةً حالمةً، كانت حقيقية!

أما هذه المرة فلقد أشاحت بوجهها وقد شعرت بنظراته تخترقها دون أن تنظر، نظراته تنغزها كما تفعل نتوءات الصخر من خلفها، تزرعُها مجددًا في رواق الذكريات بعد أن قررت مغادرته للأبد.

- داري..

انتفضت تلتفت نحوه التفاتة تشبه القذيفة، اشتعلت عينيها بالنيران واحتقن وجهها غضبًا وهي ترفع إصبعها محذرةً:

- اسمي هو أستاذة «دارين فاروق».

لم يبتسم، لم يسخر، كانت مُحقة، هو نفسه لم يكن مُحبًا لأن يُذكرها ويُذكر نفسه بالاسم الذي كان قد اعتاد مناداتها به، وهي عَشِقت ذلك حتى بات اسمًا لها دون اسمها، يناديها به سعيدًا كان أو وهو حزين أو محبط، حتى وهو يصرخ بوجهها حينما تُغضبه.

همهمات «أكرم» المنزعجة وهو يفتح باب الحمام ويمر بهما دون حتى أن يكلف نفسه عناء إلقاء سلامٍ من أي نوع عليهما، مرر إليها شحنة إزعاجٍ جعلتها تشد ملابسها دون حاجة وتُسرع الخطى لتستحوذ على غرفة السيدات قبل أن يسبقها «خالد» الذي لم يحاول حتى!

وصل «أكرم» إلى بداية السُلم متجاهلًا وجود «مازن» على الطرف الآخر منه، يكفي تلك المصادفة الصباحية التي وقعت قبل دقائق، لا بل كانت مصادمة!

- صباح الخير يا صاحبي.

- صباحك زفت على دماغك

وقبل أن يتفوه بكلمة أزاحه ساعد «أكرم» جانبًا بعنفٍ عن طريقه ليرتطم ظهره بجدار الرواق المُدبب مُتأوهًا بخفوت.

لمحت «دارين» ما يحدث وهي تخرج من غرفتها فتمهلت خطواتها حتى انتهى كل شيء وصفع «أكرم» باب الحمام من خلفه في حالة هياجٍ نفسيٍّ شديدة.

لو كانت تعلم بأن انتظارها سيجعلها تقف وجهًا لوجه أمام ماضيها لا يفصلها عنه سوى مترين لكانت تجاهلت ما يحدث بين «أكرم» و «مازن» وسبقت الجميع وانتهى الأمر. لماذا دومًا تتردد كالفتيات؟!

***

بالأسفل كان طعام الإفطار ينتظرهم، فوق كل مائدة صحن من الورق المقوى يحوي إفطار صاحبه المفضل والمختلف عن غيره.

«فريد» فقط هو من قام بملامسة إطار عويناته برضًا مُعاينًا ما وُضع فوق طاولته، خُبزٌ محمص وقطعةٌ من الزبد وفنجان قهوةٍ بالحليب!

«دارين» جلست بتماسكٍ داخليٍّ أمام طاولتها تنظر إلى فنجان القهوة الصغير والوحيد هناك!

بينما أصوات معدة «أكرم» تُعلن رفضها عما وُضع على طاولته من طبقٍ به شرائح الخيار والجزر.. وبيضةٌ واحدة!

مُدعيًا، جلس «مازن» سريعًا مبتسمًا بتملقٍ لكأسيّ الماء أمامه، وكذلك فعل «خالد» وهو يضبط مقعده أمام طاولته الفارغة ويبتلع ريقه بابتسامة خفيفة تُخفي إحباطه!

- أرجو أن تكون مفاجأة سارة.

التفت الجميع نحو «فادي الموافي» الذي ظهر من اللامكان تقريبًا يرتدي كما كان بالأمس، حُلةً كاملةً سوداءَ ذات ذيل طويل بعض الشيء وربطة العنق غير موجودة كما كانت عند استقبالهم نهارًا في المطار.

بابتسامته المتحفظة خطا نحوهم خطواتٍ ثابتةً واثقةً مُشيرًا إلى طاولاتهم بزهو:

- لقد تتبع فريقي صفحاتكم طوال الشهور الماضية على مواقع التواصل الاجتماعي، لذلك قمنا بإعداد وجبات اليوم وفقًا لذلك. هل أعجبتكم المفاجأة؟

قاموا بحركات عشوائية برؤوسهم يبدو أنها تحمل نوعًا ما من الاستحسان متزامنًا مع السباب الدائر في عقولهم وابتساماتهم الباردة وحركة أمعائهم التي يبدو أيضًا أنها استمعت لما قاله الرجل فشعُرت للتو بمجاعة قادمة!

ثم نظرة ثابتة حاسدة نحو «فريد» الذي شعر بالخجل لكن كل خلجاته تنطق بالراحة.

بينما يتناول قطعة الخبز المحمص الساخنة بيدٍ ويقوم بتذويب قلوبهم مع قطعة الزبد فوقها!

وبعد حفلة التعذيب المُسماة بالإفطار أشار للسائق المتجمد دون أي تعبير فوق ملامحه فدار بين الطاولات يجمع الصحون ويُلقي بها في صندوق المهملات الرمادي الذي كانِ يجره من خلفه.

ثم سار بتمهلٍ وجديةٍ نحو أحد أركان القاعة البعيد وتركه هناك بينما يصدر عن مشيته صوت ضعيف مع حركته يشبه صوت صرير المعدن!

- متى سنبدأ التحرك من هنا مستر «فادي»؟

قالها «خالد» وعيناه تُعيد تقييم أركان القاعة من جديدٍ وقد جاءته الإجابة أسرع مما توقعها ولكن بسؤال آخر:

- نتحرك! إلى أين؟

تبادل الجميع النظرات المتعجبة بينما «خالد» يستكمل حديثه بريبة ظهرت واضحةً للجميع:

- الرحلة الجبلية التي أحضرتنا هنا من أجلها!

ابتسم «فادي» وقال مؤكدًا:

- بالطبع، وإلا لماذا نحن هنا من الأساس؟!

ثم تباطأت الحروف على شفتيه وكأنها تتلكأ متعمدةً بينما يفتح كلا يديه بحماس متابعًا:

- في البداية سنلعب لعبة خفيفة ستدفع الدماء في عروق الجميع من شدة الترقب!

ثم اتجه بحماس مبالغ فيه نحو أول طاولةٍ على طرف النصف دائرة التي تحوي الطاولات الخمس.

كانت طاولة «خالد»، مد كفه المفتوحة إليه قائلًا ببساطةٍ وثقةٍ كبيرة:

- ناولني رسغك الأيسر من فضلك.

تبادل «خالد» نظرات الدهشة مع البقية بينما يمد رسغه باستسلامٍ باتجاه «فادي» الذي أمسك بها، وما زالت ابتسامته تحتل شفتيه، ثم انحنى للأسفل وباليد الأخرى تناول شيئًا ما كان يعلقه بحزامه وراء ظهره، وفي لحظةٍ خاطفةٍ شَعَر «خالد» بمعدنٍ يلتف حول رسغه ثم صوت تكةٍ كالقفل مما جعله يحني رأسه لينظر ماذا يحدث.

عقد جبينه وهو يهتف بذهول:

- أصفاد!

ندت شهقة عن «دارين» في اللحظة التي انتفض فيها «أكرم» صائحًا:

- ما هذه اللعبة السخيفة!

عاين «خالد» أصفاده وهو يجذبها مختبرًا قوتها، طرفًا مثبتًا برسغه بينما الآخر في أحد قوائم الطاولة المعدنية المثبتة داخل تجويف في الأرض بإحكام!

- أستاذ «أكرم»، هي مجرد لُعبةٍ لتحفيز عقولكم، ولإفراز مادة الأدرينالين كذلك.

ثم التفت بوجهه نحو «مازن» وهو يُشير إليه بفخرٍ قائلًا:

- لِما لا تحذون جميعكم حذو ذلك الهادئ وتتحلوا ببعضٍ من ثباته!

مرر «مازن» أصابعه بين شعره الكثيف ثم رفع ياقة قميصه يحاول تهدئة خلجاته مُتمتمًا بخفوت:

- طبعًا.. لكن ..

ترك جملته مُعلقة لا يعرف ما الذي جعل «فادي» يظن سكونه في انتظار ما سيحدث ثباتًا، هل يثق الرجل به إلى هذا الحد؟

رفع ساعده الأيسر بعبثٍ مادًا إياه نحو «فادي» مستسلمًا لثقة الرجل بردة فعله، مُدعيًا وقارًا لا يليق به، بينما يتم تقييده إلى الطاولة بأناقة!

أنهى «الموافي» عمله سريعًا والتفت نحو «دارين» الرافضة عاقدة ساعديها أمام صدرها بإحكامٍ وسألها ممازحًا:

- ألم تركبي الأفعوانية يومًا يا أستاذتنا الجميلة. فكري بأنها نفس الشيء!

تذكرت « دارين» عبارة «أم سهل» في الطائرة عن الأفعوانية وأنها تخشاها أكثر من التحليق الحقيقي فوق السحب.

حينها تكلم «فريد» وللمرة الأولى منذ نصف ساعةٍ مضت يستوضح متسائلًا:

- ماذا سيحدث بعد الأصفاد؟

تقدم «فادي» نحوه وتناول رسغه الأيمن بسهولةٍ معتبرًا تساؤله موافقةً منه وانحنى يُقيده مُجيبًا:

- لو أجبتك لتوقف اندفاع الأدرينالين. لا بد وأن يشعر الدماغ بالخطر. هذه نقطة في غاية الأهمية!

وعندما اعتدل عاد واقفًا إلى المنتصف أمامهم جميعًا مستطردًا بجديته المعهودة:

- والسؤال الأهم هنا، لماذا أراهن على أحصنةٍ خرجت من المضمار، لماذا أدفع لكم أموالًا كالتي قرأتموها في العقود مقدمًا بينما أنا وأنتم متأكدون بأن الناس قد نسوكم منذ عامٍ على أقل تقدير.

لقد تعهدت لكم في لقائنا الأول بأنني قادر على إعادتكم للحياة، فهل ظننتم أن أفعل ذلك بالطرق المتوقعة؟! لماذا إذًا لم أجب سؤالكم عن ظلام الأمس المفاجئ!

هل ظننتم بأنني سأصحبكم إلى الجبال لتشاهدوا المناظر الطبيعية مثلا؟! ألم يخطر ببالي أنكم فعلتم أكثر من هذا طوال العام المنصرم لتُعيدوا موهبتكم من جديد وفشلتم! الاسترخاء.. المناظر الطبيعية.. الراحة.. كل هذا لم يجدِ نفعًا وأنتم تعرفون هذا جيدًا.. صحيح؟!

عمَّ السكون وغلب الصمت خمستهم، تنحنح «أكرم» بشيء من الهزيمة، بينما الحرج انتشر فوق وجنتي «دارين» بلونه الباهت وهي تتجنب النظر نحو «خالد».

تم تصفيد الجميع بسلاسة، ووقف «فادي» في المنتصف كما يحب، يوزع نظراته بينهم في صمت.

دقيقة متخمة بالترقب قبل أن يتفوه بما جعل قلوبهم ترتج في صدورهم:

- الآن سأضع أمام كل منكم دفترًا وقلمًا، وسأمنحكم ثلاث ساعات، مُهلةً أولى، مطلوبٌ منكم في تلك الساعات الثلاث قصةٌ بديعةٌ متقنة، لا تشبه أي شيءٍ مما كتبتموه من قبل، غير مقلده ولا منسوخة، فكرة عبقرية، لم تُقرأ من قبل ولم تُشاهد كعمل مصور. وإذا لم يحدث ما أمرتكم به أو خالف أحدكم هذه القواعد، فسيقع العقاب على الجميع و..

توقف قليلًا قبل أن يقوم بإخراج قلمٍ خشبيٍّ كبيرٍ كان مُعلقًا إياه داخل سترته الطويلة وله سنٌ مُدبب طويلٌ وحادٌ بينما يستطرد متوعدًا:

- سيقع العقاب على الجميع. وسنبدأ بالحفر لإخراج موهبتكم المدفونة.. الحفر حرفيًّا!

***

لقد تركهم وغادر منذ ثلاثة دقائق وبرغم ذلك لم تتحرك أعينهم مغادرة الباب الحديدي الذي تلاشى خلفه كالسراب!

صمتٌ مُطبقٌ عم الأنفاس، شكٌ مُرعب احتل الوجوه، سخريةٌ حائرة على الثغور، ولكن السؤال واحد؛ هل يمزح الرجل مزاحًا ثقيلًا؟!

- من الواضح أن كل هذا جزء من الخطة، لا داعي للخوف.

بحركة ميكانيكية جماعية التفتت العيون كلها نحو «مازن» الذي يبدو أنه أول من امتلك أنفاسه بينهم وبدأ يفكر بالمنطق ويستطرد شارحًا لما هداه إليه عقله:

- أعتقد أن هدفه الأول هو تحريك مشاعر الخوف بداخلنا، كان هذا واضحًا منذ حديثه عن الأفعوانية!

لكن شيئًا ما يدور داخل عقل «خالد» يُصر أن الرجل يستمتع بما يفعل، وأن القادم أسوء، فقال وكل حروفه تنطق بالشك:

- وما علاقة الخوف بالإبداع كما تزعم؟

لمعت عينا «مازن» وقد بدأ الحماس يدب بين خلاياه ويوقظ بعضًا من الشغف النائم هناك وقد بات محط الأنظار كما يسعى دومًا أن يكون:

- مشاعر الخوف تتفوق على بقية مشاعر الإنسان بصفةٍ عامة، فهي قادرةٌ على دفعك لعمل أشياءَ جنونية لتنجو لم تكن لتفعلها في أحوالك الطبيعية!

لكن «فريد» قاطعهم بشحنةٍ متوترةٍ ونبرةٍ خفيضةٍ مهتزةٍ وكأنه يحادث نفسه:

- من الممكن أن تنطبق هذه النظرية عليكم وحدكم، أما أنا فبالنسبة لي الوضع يختلف، أنا أكتب للأطفال فقط!

مطت «دارين» شفتيها تجاهد عقلها لتقنعه بمنطقية ما يدور حولها حتى لا تدخل في نوبة خوفٍ سببتها تلك الأصفاد التي رفعت وتيرة نبضاتها المتلاحقة والتي تخبرها أنها بلا شك قد باتت مقيدةً بين رجالٍ في مكانٍ مُغلقٍ بعيد، أيًا كان السبب، وأيًا كانت نوعية هؤلاء الرجال. قالت مُشتِّتَةً لأفكارها السوداء وهي تُلملم أنفاسها المسروقة موجهةً حديثها نحو «فريد»:

- قرأت لك قصةً مرةً وبصراحة لا أعلم كيف تكون موجهةً للأطفال!

ضحك «مازن» ضحكةً متوترةً حين أجابها «فريد» بشيءٍ من العصبية الطارئة عليه:

- أنا لا أكتب قصصًا نمطيةً مما تعرفينها، فأطفال هذه الأيام مختلفةٌ عن الأطفال التي كانت تشرب الحليب وتغسل قدميها وأسنانها قبل النوم وتذهب للفراش بتهذيب.

نقر «خالد» بأطراف أصابع يمناه فوق الطاولة عدة نقراتٍ رتيبة وهو يزفر بملل، كل هذه المشاحنات الجانبية لا طائل من ورائها، لن تفيد بشيء، ولن تفعل سوى تبديد ما تبقى من طاقاتهم، لا بد وأن يتولى أحدهم القيادة.

رفع نظراته المصممة يمررها للجميع قبل أن يقول بحسم:

- فلنفعل ما يريد وننتهي من كل هذا الملل.

وكعادة «أكرم» يهتز جسده حينما يضحك ويتعرق، فيمسح جبينه بكفه وتهدأ ضحكاته دفعة واحدة تاركةً أثرها على وجهه المبتسم بلا سعادة.

لقد تذكر آخر محاضرةٍ حضرها لـ «خالد» وهو يتحدث عن كتابه الأخير ومفهوم القيادة والوصول للهدف.

لقد كانت آخر محاضرة بالنسبة لهما معًا، بعدها «أكرم» شعر بالحماسة الشديدة وكتب مقالًا متخمًا بالتساؤلات للحكومة، وبعد أن قضى بعدها سنة كاملة بين أروقة النيابات والحبس الاحتياطي أُطلق سراحه وتم طرده من الجريدة، كما وصلته معلومة أكيدة عن أن «مازن» هو من وجه الأعين نحوه هو و «زين».

لم تكن المرة الأولى التي يكتب فيها مقالًا مثل هذا، فلماذا هذه المرة بالذات، ولماذا «زين»!

وأثناء تصفحه لمواقع التواصل الاجتماعي لم يجد أثرًا لمحاضرات «خالد يونس» منذ تلك المحاضرة المشؤومة، وبعد اليسير من البحث الفضولي علِم بأن كتابه الأخير «نحو الهدف» قد فَشِل فشلًا ذريعًا وانطفأ الوهج! دون سبب معروف سوى أن الكتب التي تتحدث عن الطاقة الروحانية والخروج من الجسد وجذب الأشياء بالتخاطر هي التي كانت تكتسح السوق، ولم يعد للتنمية البشرية القدرة على إشعال فتيل الحماسة، لقد كان هو آخر المغفلين!

الساعة المعلقة الكبيرة فوق الشاشة العملاقة تدق كل ساعةٍ دقةً واحدة، دقة تليها أخرى، ساعة بعد ساعة، وصفحات الدفاتر لا تضم سوى نقر بالقلم ورسومات لا معنى لها ونقاط تم توصيلها ببعضها البعض بدقة.

لم يكتب أحدهم حرفًا واحدًا، التململ والنظرات الخاوية فقط!

حتى كانت الدقة الثالثة التي أعلنت عن إنتهاء المهلة الأولى! وانطفأت المصابيح وساد الظلام!

مزلاج الباب الحديدي الضخم يتحرك بصريرٍ مُزعج، كيف لم تتسرب أشعة الشمس إلى الداخل بعد انفراج جزءٍ منه صغير يسمح بمرور جسد «فادي الموافي» للداخل؟

إنها التاسعة صباحًا وقرص الشمس في طريقه لكبد السماء فكيف لم يخترق ولو شعاعٌ ضئيل هذه الظُلمة!

الصرير مرةً أخرى وانغلاق الباب بدويٍّ أعلى من السابق، أرهف الجميع سمعه يتتبعون خطوات القادم نحوهم ببطء، عم الصمت مع توقف الخطوات ولم يشقه سوى نبرة صوت «مازن» المازحة محاولًا اختراق الخوف:

- مستر «فادي» ما هذه الأجواء المُرعبة؟

تحركت الخطوات مرة أخرى ثم دوت الصرخة، شهق الجميع بينما يلتفون دفعة واحدة باتجاه الصوت.

استطاعوا تميز صرخة «فريد» ثم أناته المتألمة، ناداه «خالد» مذعورًا مرةً بعد أخرى بينما أناته تنخفض رويدًا حتى باتت لا تكادُ تُسمع. سطعت الأضواء تغمر أعينهم فحجبوها عن الضوء متألمين.

وعندما نظروا أخيرًا كان «فريد» واضعًا كفه اليسرى على أعلى ساعده الأيمن المُصفد بينما الدم ينزف من بين أصابعه بغزارة، أما رأسه فقد كان منحنيًا يسنده فوق سطح الطاولة بإعياءٍ شديدٍ ولهاثه يصلهم بعنف، بينما يقف بجواره «فادي الموافي» مُمسكًا بالقلم الخشبي الكبير ذي السن المُدبب الطويل والذي كان ملوثًا بالدماء!

مبتسمًا بهدوء قائلًا لأعينهم الذاهلة:

- سنحفر لإخراج مواهبكم المدفونة كما وعدتكم!

وانطفأت المصابيح مجددًا، الهدير كان قويًا للغاية، أمواجُ متداخلة من شهقات «دارين» المذعورة وأنات «فريد» الخفيضة.

تخبطٌ وصريرٌ مزعج للأصفاد وهي تحتك بقوةٍ بالقوائم الحديدية في محاولاتٍ قويةٍ لخلعها من «خالد» و «أكرم» و «مازن» الذي دوت صرخته هو هذه المرة لتشتعل المصابيح ثانية!

الدماء تنساب من نفس الموضع أعلى ساعده الأيسر والقلم يقطر بدمائه الطازجة.

تخبطت «دارين» في مقعدها وقد ماتت نظراتها عند يد «فادي الموافي» الحاملة للقلم، بينما السُباب لا ينقطع عن الحناجر الخَشِنة تجاهه، والذي لم يُعر أيًا منهما اهتمامًا.

على العكس قابل سبابهم بابتسامةٍ خفيفةٍ وحاجبين مرفوعين بدهشةٍ وعبارةٍ جعلت أعينهم تتسع بصدمة:

- الجميع.. الجميع لا بد وأن يشعر بالألم.. الروح الحبيسة بداخلنا لا تترك تشبثها بالطين إلا عندما تتألم.. الألم هو الحل!

- لا.. لا.. لا..

ظلت «دارين» ترددها وهي تراه يقترب نحوها هذه المرة، محاولةٌ يائسةٌ للنهوض وترك المقعد لكن الأصفاد تجعلها منحنيةً للأسفل، فتعود جالسةً مرغمةً جاذبةً ساعدها بقوةٍ هيسترية، لكن الظلام يعم للمرة الثالثة وترتفع صرخات «دارين» لكنها لا تتجاوز سقف القاعة ولا جدرانها!

صاح «خالد» وهو على يقينٍ بأن الدور قد اقترب منه:

- أنت مجنون، ما تفعله جريمة!

- لمَ كل هذا الصراخ والذعر يا أستاذ «خالد»، ما المشكلة في بعض الجنون لتحرير روحك الدفينة؟!

نهض «خالد» يفعل كما كانت تفعل «دارين» والتي يبدو أنها فقدت الوعي للتو فوق طاولتها وسكنت تمامًا فور أن اختبر ساعدها ذلك النصل الرفيع الدقيق وهو يخترقه لسنتيمترات للداخل.

نصلًا معدنيًا رفيعًا دائريًا له سنٌ مُدبب، السائل اللزج الدافئ الذي اندفع منه والألم القاتل المصاحب له يؤكد ذلك، الخِدر استشرى في جسدها وشعرت به يعود مرغمًا للمقعد ورأسها تسقط هناك!

حاول «خالد» جذب المقعد بالقوة وكذلك فعل «أكرم» ولكنهما فشلا في نزعه، قوائمه الحديدية المثبتة في الأرض بإحكامٍ والمتصلة بقوائم الطاولة أنهكت قواهما، بينما «فادي» يرقبهما بابتسامة راقيةٍ قائلًا بعبثٍ متزن:

- تُذكرانني بالأطفال وهم يبحثون عن مهربٍ من التطعيم، ولكن هيهات!

علا لهاثهما وغمر العرق جبينيهما وانطفأت الأنوار دفعةً واحدةً فسكن جسداهما في لحظة وأرهفا السمع، لكن تأوهات «مازن» المستمرة أفسدت عليهما تحديد وجهة خطواته.

صرخة الألم التي خرجت مندفعةً من حنجرة «خالد» جعلت «أكرم» برد فعلٍ تلقائيٍّ أن يتحسس الطاولة بيمناه حتى استطاع الإمساك بقلمه ثم اعتدل وبدأ يطوح به يمنةً ويسرةً بحركاتٍ عشوائيةٍ علّه يستطيع إصابة خصمه الذي لا يراه.

التأوهات الخفيضة المتباينة، الظلام، الترقب والخوف، اشتعلت الذاكرة تقرع عقله بذكريات السجن الكريهة، غرفة التعذيب، جدران

الزنزانة التي تعلموا أسفلها التهجئة من جديد فصاروا يستبدلون «الأمل» بـ «الألم»!

الألم؟! لا مزيد منه.. لا مزيد!

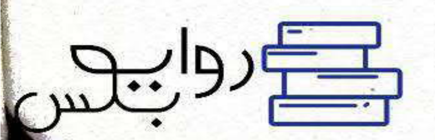
طوح بذراعه أكثر وأكثر وطاقةٌ حالكةٌ من حوله تدفعه للمقاومة حتى التعب!

فجأةً شعر بتمزق عضلات ذراعه والخِدر يغمرها فتخمد حركتها رويدًا رويدًا حتى اللهاث!

تدفقت رائحةٌ نفاذةٌ تتغلغل هواء القاعة، ثلاث ثوانٍ من استنشاقها كانت كافية لتأخذهم جميعًا في غيبوبةٍ قصيرة تنتهي معها المهلة الأولى.

تُرى ماذا سيحدث في الثانية؟!

***



المُهلة الثانية

إفاقات متتالية بدأت بـــ «أكرم» وانتهت بـ «دارين»، الجميع يتحسس ساعده المكشوف، عجيب!

تم قص الأكمام أسفل الكتِف، قطنٌ وشاشٌ تفوح منهما رائحة جرح ما زال ينبض بالألم أسفل ضمادةٍ وُضِعَت بعنايةٍ لإيقاف النزف وتعقيم هذا الفراغ الذي خلفه نصل القلم في أنسجتهم، وأمام كلٍّ منهم صحنٌ آخر يحوي طعام الغذاء.

الطعام وحده نوعٌ آخر من الألم، روائح الخضار المسلوق بلا نكهات في صحن «أكرم» الذي يلعن منذ الإفطار حديثه المتواصل على صفحته الشخصية عن الوجبات الصحية التي لا يتناول غيرها لتخفيف وزنه مدعيًا السعادة وتلذذه بها!

اختلطت برائحة المقرمشات أمام «خالد» الذي طالما أخبر الناس كذلك عن عدم تضييعه للوقت في صنع وجباتٍ خاصةٍ ويكتفي ببعض المقرمشات في أثناء عمله.

أما رائحة الشمر الذي يعلو شيئًا ما لم تفهمه «دارين» في صحنها ذكرتها بالمنشور الذي رفعت فيه صورةً لطبق لا تعلم من مكوناته

سوى الشمر فقط، وقالت بأنه طبقها المفضل! لماذا لم تختر صورةً أخرى لوجبة تعرف محتوياتها على الأقل!

«مازن»؟! إنه بائسٌ جدًا فلقد كان يتكلم كثيرًا عن شغفه بالأكلات الصينية الغريبة!

وكالعادة كان «فريد» الأكثر حظًا من بينهم، فأمامه وجبة مُضرة مما يفضلها الأطفال، صحنٌ يحوي أربع قطعٍ من البيتزا وبطاطا مقلية وكوبًا من المياه الغازية المثلّجة!

تُرى من سينتصر؟ الألم، أم الخوف من مجهولٍ قادم، أم الجوع؟!

لو كان كل منهم في غرفةٍ وحده لربما تُوِّجَ الجوع ملكًا منتصرًا، لكن وهم ينظرون إلى بعضهم البعض بترقبٍ وتساؤلٍ ونظراتٍ حائرة، بالإضافة إلى تلك الوجبات التي تثير اشمئزازهم.. فلقد انتصر شيءٌ آخر، الغضب!

غالبًا ما يثور بركان الكرامة عندما تُوَجه نحوه الأعين، أما غير ذلك فهو خامد!

أخذ ثلاثتهم يضربون الطاولات ويمزقون الدفاتر ويصرخون نداءً باسم «فادي» الذي أوقع بهم، أما خامسهم فلم ينظر حتى نحوهم ولم يُلق بالًا لهتافاتهم الشبيهة بالصرخات، فلقد أقبل على صحنه بجوعٍ كأي طفلٍ ينسى كل مأساته أمام وجبته المفضلة.

- هل أنت عديم الإحساس إلى هذا الحد؟

- كان معي حقٌ عندما هاجمت كتاب مخبولٍ مثلك، أنا الآن أشعر بالفخر لأنه تم رفعه من الأسواق بسببي.

- منذ أن رأيتك في المعرض أول مرةٍ علمت بأنك مخبول.

- لا أعتقد أنك تختلف شيئًا عن ذلك المجنون!

لم يرفع حتى نظراته إليهم، بل ظل منهكمًا في صممٍ مقصود حتى فُتح الباب الحديديُّ وأطل وجه «فادي» بابتسامته الباردة القادرة على تفجير براكينهم في تلك اللحظة.

- ألم يعجبكم الطعام يا رفاق!

قالها وتشابكت أصابع كفيه في انتظار موجة الغضب الكاسحة.

ولثوانٍ اختفت ابتسامته وعلت نظرة خطرة في عينيه أسفل عُويناته وهو يلاحظ تمزق الدفاتر والفوضى التي صنعوها، ولكن بمجرد أن بدأوا بالسُباب وأطلقوا عنان غضبهم يخرج من أفواههم كهديرٍ يعلو ويهبط وتتماوج خطورته بين أربعتهم حتى عادت ابتسامته من جديد، ولكنها هذه المرة ابتسامةٌ مُستمتعةٌ.. للغاية!

أربعُ دقائقَ يقف في ثباتٍ ينتظرهم حتى ينتهوا تعبًا، وكما علا الموج هدأ ببطءٍ وبحناجرَ مذبوحة، ولكن النظرة الشرسة ما زالت تعلو وجوههم والدموع تجمعت في مقلتيّ «دارين» في انتظار النتيجة المرتسمة مسبقًا في عينيه.. هذا الرجل لن يتراجع مهما فعلوا!

الجميع أدركوا الحقيقة التي أدركتها هي، إنه يستمتع بصرخاتهم.. يستمتع بالألم!

هل هو ساديّ! الفكرة تناقلتها إشارات عقولهم كموجات الراديو فارتجفوا لها وسرت قشعريرةٌ على طول عمودهم الفقري بينما يتبادلون النظرات الضائعة.

- من الجيد أنكم أفرغتم شحنة الغضب بداخلكم.. هذه خطوة مهمة للاسترخاء.. والآن، أمامكم خمس عشرة دقيقة قبل أن تبدأ المُهلة الثانية.

وأشار إلى الساعة الضخمة المُعلقة على الجدار والتي يُحب أن يقف أسفلها مباشرةً في كل مرة يتحدث فيها إليهم.

كانت العقارب تُشير إلى الحادية عشرة وخمسٍ وأربعين دقيقة ظهرًا.

لقد غابوا عن الوعي لساعتين ونصف تقريبًا، من المستحيل أن يكونوا قد ناموا في مقاعدهم طوال هذا الوقت، فلا أحد يشتكي من ألم في رقبته أو جذعه على سبيل المثال.

شيءٌ ما بداخل «دارين» كان يخبرها بهذا، لقد تم نقلهم إلى أسرَّتهم ثم أُعيدوا إلى طاولاتهم قبل أن ينتهي مفعول المخدر!

الرجل مجنونٌ حقًا، يغرسُ نصلًا في سواعدهم ويتركهم يفقدون الوعي، ثم يداويهم ويحرص على راحة أجسادهم:

- أنت لا تريد قتلنا أليس كذلك؟

كانت عبارتها أول ما نبش حاجز الذهول والغضب المسيطر على القاعة، نطقتها ببحةٍ بعد أن تهالكت حنجرتها بسبب حفلة الصراخ الغاضب التي شاركتهم فيها وانتهت قبل دقيقةٍ فقط.

أحنى رأسه وهو يلتفت نحوها قليلًا رافعًا حاجبيه ساخرًا، مُعلقًا على عبارتها:

- الفتاة المصرية معروفة بالذكاء الشديد، هل استنتجتِ هذا وحدكِ؟!

رُغمًا عن «خالد» ابتسم؛ كان يعلم ماذا يحدث تمامًا عندما يسخر أحدهم من «داري» خاصته، تتفجر البراكين حرفيًا!

ولم تخب توقعاته؛ فلقد انتفضت واقفةً بانحناءةٍ فرضتها عليها قيود ساعدها المُصاب أسفل الطاولة وهتفت عاقدةً كلتا حاجبيها، لا لقد كان

جبينها كله منعقدًا ووجها مشتعلًا وقد أُصيب شعرها بمسٍ من الجن ربما:

- أنت مجنون.. مريضٌ نفسيّ.. ساديّ ..معتوه.

كانت شفاه «خالد» المبتسمة بتعبٍ وسخريةٍ تتحرك معها بنفس الوتيرة التي يحفظها:

- متعجرف.. مُدّعٍ.. متخلف.. غبي.. لن تمر فعلتك هذه مرور الكرام.

وعندما انتهت لم تكن تلهث، كانت تتحداه بنظراتها الحارقة، تعشق نفسها وهي قويةٌ تجابه الرجال، خاصةً هذ المجنون الذي حفر ساعدها ومزق أكمام قميصها والآن يسخر منها.. أمامه!

- مستر «فادي» يكفي ما حدث، سنسامحك ونفض العقد بيننا وتخرجنا من هنا.

- تكلم عن نفسك وحدك يا أستاذ.. أنا لن أسامحه ولن أترك حقي.

كانت محاولةً أخيرةً من «خالد» للتهدئة، بينما يراه يتحرك نحوها ووجهه الصلب لوحةٌ مصمتةٌ تخفي شرًا ما أسفلها.

تحفزت في وقفتها مستشعرة نظرات «خالد» نحوها، لا تريده أن يتدخل، إنها قادرةٌ على كسب الحرب وحدها!

وقف أمامها لا يفصله عنها سوى طاولتها، يتأمل وجهها بجمودٍ وهي تبادله النظرات.

لكن قناع التحدي تهاوى فجأةً عندما رفع كفه بكل قوةٍ يملكها وصفعها!!

وقعت جالسةً في مقعدها صارخةً متألمةً في نفس لحظة محاولة نهوض «أكرم» بينما تشتعل نظرات الغضب بعينيه، كيف تُصفع فتاةٌ بتلك الطريقة وهي بينهم!

ابتسم «فادي» ببرودٍ وكأنه لم يصفع فتاةً للتو قائلًا ببروده المعهود:

- اهدأ يا عزيزي، إنها لا تحتاجك؛ فلديها القدرة على مواجهتي وحدها.

ثم عاد بنظراته الباردة نحو «دارين» التي تلونت وجنتها بالأحمر القاني يحدد حفرًا لأصابعه القصيرة فوقها.

مادت الدنيا بها للحظات، الصفعة تشبه ضربة سوط، تلسع وتترك أثرًا تتدرج ألوانه حتى تستقر عند الأزرق المنطفئ.

وبرغم ذلك لم يُنكس لسانها أعلامه، حتى بعد السقوط، دمعت عيناها مُرغمة من أثر الصفعة ثم صرخت تسكب البنزين على النار:

- يا حيوان يا همجي.. سأريك!

مال «فادي» يستند بكفيه إلى طاولتها الذي انسكب الصحن فوقها نتيجة الصدمة وتناثر الشمر فوق الدفتر، وقال بحروفٍ ثقيلةٍ لها وقع تساقط الثلوج:

- ولماذا تُريني وحدي؟ لماذا لا تُرينا جميعًا؟

واعتدل ملتفتًا نحو الباب الحديدي، الذي فُتح بمجرد النظر نحوه، ودلف منه خرتيتان يرتديان حُلةً رسميةً سوداءَ كاملةً وتقدما بخطواتٍ سريعةٍ نحو سيدهما ووقفا في خضوعٍ كاملٍ في انتظار أوامره.

من هما، وكيف ظهرا هكذا من العدم بشكل مفاجئٍ لا أحد يعلم، ألا يكفي ذاك السائق الواقف بعيدًا عن ركن القاعة في انتظار إشارة سيده له!

أشار «فادي» نحوها وتكلم بأريحية وكأنما يتحدث عن الطقس ببساطة قائلًا:

- الآنسة سقطت.. وتحتاج إلى العون.

تقدم الرجلان نحوها بسرعةٍ وأوقفاها بالقوة بعد أن فك أحدهما أصفاد يسارها، مكبلين كلتا ذراعيها بقبضتيهما.

كاد جسدها يختفي بينهما، ولم تتوقف عن رفس الطاولة بينما فادي يعقد يديه أمام صدره في انتظار أن تنتهي.

هذه المرة لم يُثِر الموقف غضب «أكرم» وحده، بل فارت الدماء بعروق البقية هاتفين به أن يتوقف، وهتف «مازن» بتعبٍ ووهنٍ ونبرةٍ مبحوحة:

- مستر فادي أرجوك يكفي.

أما «فريد» فقد انزوى في مقعده وجسده يرتعد خوفًا وتوترًا وعقله يرسم مئات الاحتمالات لما سيحدث لـ «دارين»!

ولكن «فادي» كان يتحرك وكأنه في بالون يعزله عن العالم لا يستمع إلى كل هذا الهرج والمرج من حوله، ورفع أصابعه نحو قميصها وبدأ يحل أزراره مبتسمًا ببساطةٍ لها ويقول:

- تكتبين دومًا بأنك فتاةٌ بألف رجل. تُرى لو حللنا أزرار قميص رجلٍ واحد من الألف هل سينهار أو يصرخ كما ستفعلين؟!

تشعر بأنها تغرق في موجٍ كالطود بين جبلين، تحارب وتدفع وترفس الطاولة بينما هتافات «خالد» وأكرم» التحذيرية تعلو مُهددةً إياه، رغم ذلك يقف أمامها كلوحٍ من الثلج، زرًا خلف آخرٍ وكأنه يعزف مقطوعةً موسيقيةً نادرة، وأخيرًا انهارت، بكت وتوسلت:

- أرجوك.. أرجوك!

توقفت أصابعه عن العزف للحظة، قبل أن تتسع ابتسامته وهو يميل للأمام قليلًا نحوها عاقدًا حاجبيه مُدعيًا:

- ماذا قُلتِ؟ لم أسمع جيدًا!

علا نشيجها أكثر، الشعور بالقهر مؤلمٌ كالضرب بالسوط تمامًا، العجز وقلة الحيلة ينهمران بين شفتيها ويندفعان كالمر إلى حلقها وهي تكرر:

- أرجوك.. أنا آسفة.. آسفة!

ملأت الابتسامة وجهه بالكامل، ونظر إلى الرجلين فقاما بتقييد ساعدها الأيسر بالأصفاد كما كانت وكأنما يتبادلان معه شفرةً ما، أجلساها في مقعدها وانصرفا على الفور.

قبضت «دارين» على حافتي قميصها تجمعهما ودموعها تسقط فوقهما، مُطأطئةً رأسها وإحساس الذل يجتاحها اجتياحًا.

طرق «فادي» فوق طاولتها بخفةٍ مواجهًا دموعها المنكسرة ونظراتها التي تصب عليها اللعنة دون أن تنطق بحرفٍ واحدٍ وقال ساخرًا:

- كنتُ أُرَوّضكِ فقط، لا تغضبي.. ثم.. لقد كانوا ثلاثة أزرارٍ فقط تساهلي معي قليلًا!

ضحك بخفةٍ واستدار يُخرج جهازًا لا سلكيًا من سترته ويتحدث فيه آمرًا:

- صحن آخر لعزيزتنا «دارين»، فلقد أفسدت صحنها للأسف.

***

سكونٌ تام، ربما صدمة! لقد تطورت الأمور بشكلٍ مبالغٍ فيه، «دارين» نفسها لم تفتح فمها منذ انصراف «فادي» بعد أن قدم لها صحنًا جديدًا.

كانت فقط تُلملم ذُعرها، وكرامتها المبعثرة أشلاء أمامهم، هل كانت تُنتَهك حقًا؟!

ما زالت عبارته الأخيرة التي وجهها لـها تعصف بطبلتي أذنيها بضجيج « لقد كانوا ثلاثة أزرار فقط»!

أصابعه كانت حريصةً كي لا تلمس جسدها، عيناه صارمتان ونظراته تنبئها بالخطب الجلل؛ سيستمر حتى وإن اضطر إلى الوصول لآخر نقطةٍ إلى أن ترضخ وتعتذر.. تتوسل، وقد فعلت!

- جبانة.. ضعيفة!

صرخت بها تكررها وهي تبعثر ما وُضِع أمامها من جديد، وبكت مجددًا وبقوةٍ منهارةً بعد كل هذا الضغط العصبي التي تعرضت له.

تنفس «خالد» بارتياحٍ بعد أن أخرجت الغضب المعتمل بداخلها، النقمة السوداء، لا بد وأنها الآن تكره أنوثتها بشدة!

- «داري» حاولي أن تتماسكي قليلًا.

- اسكت.. اسكت!

ظلت ترددها بانهيارٍ شديدٍ وتُخفي وجهها مستندةً بجبينها إلى سطح الطاولة حتى تلاشى صوتها، ونشيجها يعلو ويهبط مع الذكرى، لقد نجح «فادي» في تعرية قوتها الأنثوية الزائفة، وتركها في العراء تواجه أعينهم الذكورية المقيتة!

غاصت في رمالها ولم تُدرك بأن لديهم مصائب مماثلة، فلقد أدركوا للتو أن وقت المزاح قد ولَّى، ولا يملكون حتى رفاهية الصدمة، لقد جُمع البيض كله في سلة واحدة! وحان وقت الطهو!

ودقت الساعة دقةً واحدةً لتُعلن عن بداية المهلة الثانية، ثلاث ساعات، وكما أخبرهم قبل خروجه المسرحي الأخير، إن انتهت ولم يجتمعوا على قصةٍ بديعةٍ غير تقليديةٍ فسيكون الحفر هذه المرة هو البتر! ولكن بتر ماذا؟ لم يخبرهم وتابع:

- لا أُحب إفساد المفاجآت السارة!

- لا بد من أن نهرب من هنا فورًا.

حدث بها «خالد» نفسه بصوتٍ مرتفعٍ وهو يدور بعينيه في المكان يعاينه من جديد، وبنظرةٍ مختلفة هذه المرة، نظرة سجينٍ يسعى للفرار، المكان الأضعف في أي بنايةٍ هو الحمام، ولكن كيف السبيل للفكاك من تلك الأصفاد؟!

- وكيف سنتخلص منها يا باشمهندس؟!

عاد بنظراته إلى «أكرم» متفاجئًا، هل كان يحادث نفسه بنبرة مرتفعةٍ دون أن يدري!

لقد كان يهمهم فقط.

إنهم يكرهون بعضهم البعض، خاصةً «أكرم» صاحب العبارة الأخيرة الساخرة منه، ولكنهم مجبرون على التعاون كي ينجوْا.

ألقى نظرةً سريعة نحو الباب ثم وجَّه إليهم أفكاره بصوتٍ منخفضٍ نسبيًا:

- ابحثوا في ملابسكم عن أي أداة تصلح لتلك المهمة؟

عاثوا الفوضى في أغراض جيوبهم بحثًا عن أي شيءٍ ممكن أن يفيدهم بعد أن تركوا له هواتفهم كالحمقى ليلة أمس.

نظر «خالد» نحو «فريد» المتكوم في مقعده ونهره بنبرةٍ خفيضةٍ يسمعها:

- حاول أن تساعدنا وتساعد نفسك!

لكنه لم يبدِ أي ردة فعلٍ تُنبئ عن سماعه لـ «خالد»، ظل متقوقعًا حول نفسه يرتعد ويُهمهم بكلماتٍ متقطعة:

- لن تستطيعوا الفرار.. أبدًا.

كلماته المذعورة البائسة تسببت في إرباكهم في أثناء البحث عن أي شيءٍ مُدبب ذي نفع.

وجد «مازن» قَصَّافة أظافرَ تحوي مبردًا صغيرًا، إنها فائدة أن يهوى رجلٌ امتلاك أظافرَ منمقةٍ دائمًا، نوعًا ما تُعتبر سلاحًا يفقأ به عين من يقترب منه.

بينما عثر «أكرم» على مفتاحٍ وحيد مُعلق في سلسلة مفاتيحَ في حلقةٍ معدنيةٍ تشبه الخاتم، استخدم أسنانه ويده الحرة في نزع الحلقة وجذبها مرةً بعد مرةٍ؛ يشكّلها من جديد لتتخذ شكلًا طوليًا مُدببًا.

كان «خالد» قد توقف عن البحث بعد فشله في العثور على شيءٍ نافعٍ غير محفظته وأوراقه الثبوتية وانتبه إلى ما يفعله «أكرم» وتيقن من الطريقة الاحترافية التي يتبعها في استخدام أصابعه الحرة ولكن بصعوبةٍ شديدةٍ لدس المعدن المدبب بداخل المكان المخصص لمفتاح الأصفاد.

التوتر يسود الجميع، حتى «دارين» التي رفعت رأسها وقد تجدد بداخلها أملٌ في الهروب، وتوسعت مقلتاها انفعالًا كما حدث مع «مازن»، بينما تتحفز كل عضلةٍ بأجسادهم مع كل حركةٍ تصدر عن «أكرم» الذي أخذ يتعرق بشدةٍ ويبذل كل ما بوسعه.

بطنه البارزة تعيق حركة يمناه لتصل إلى مكانها الصحيح نحو يساره المربوطة، لكنه يضغط ويقوم بشفط معدته للداخل وقد ارتفع الأدرينالين في دمه ودمهم أيضًا.

وأخيرًا سمِعوا صوت التكة الحبيبة.. تك!

لقد نجح «أكرم»، يبدو أن مصاحبة الجنائيين لعام كامل قد أتت ببعض ثمارها!

انتزع «أكرم» أصفاده وانتفض غير مُصدقٍ لما فعله ويدور بعينيه بينهم بانتصار الفاتحين،

إلا أن «خالد» حرمه اللذَّة المنشودة وهتف على الفور:

- فك أصفادنا بسرعة.

خطا «أكرم» خطوةً سريعةً نحو طاولة «خالد»، ولكن فجأة توقف، وتلكأ هُنيهات!

اتسعت عينا «خالد» وهتف وقد أدرك ما يدور بعقل الأخير، يفكر في الفرار بنفسه وتركهم، فهتف به بينما يطحن أضراسه:

- لن تستطيع الخروج دون مساعدتنا.

وتوسل «مازن» قائلًا كما لو كان يوشك على البكاء:

- أرجوك يا «أكرم»!

أطلت من عيني «أكرم» نظرة حقدٍ وكُره تجاهه وقد بات يفكر جديًا في تركهم بالفعل بعد أن كانت مجرد خاطر.

من هم في الأساس، لا يعرف عنهم سوى أنهم مجموعةٌ من الحمقى الحقراء الانتهازيين، هو المظلوم الوحيد بينهم، وربما لذلك هو الوحيد الذي رزقه الله بما يجعله ينجو بنفسه دون الحاجة إليهم.

صم أذنيه عن هتافاتهم الخفيضة المترجية ونظر إلى الأرجاء، الخروج من الباب مستحيل، الخرتيتان يقفان خارجًا ويحملان أسلحةً نارية، ترى من أين ظهر «فادي» أول مرة، يبدو أن هناك مخرجًا سريًا، ولكن الجدران تبدو مصمتةً جدًا!

وقعت عيناه على السُلم فاستدار نحوه مسرعًا ليصعد للطابق الثاني حيث الحجرات، ثم تلكأ هُنيهةً ثانية!

الفتاة! الشهامة تنهشه وتصرخ به، لا تترك الفتاة مهما كانت تمتلك نفس نذالتهم لكنها تظل فتاة!

عاد إليها دون تفكيرٍ وبدأ في معالجة أصفادها وصدرت التكة الحبيبة مجددًا.

صدرها كان يعلو ويهبط خوفًا وترقبًا، لقد اختار أن ينقذها معه، يبدو أن كونها أنثى ليس سيئًا دومًا!

نهضت كالملسوعة تنفض يدها وتسرع الخطوات خلف أكرم صعودًا متجاهلين النداءات اليائسة.

سريعًا إلى حجرتها، أين حقيبة يدها، أين حقيبة ظهرها، لقد اختفيا ولا أثر لهما، بينما عينا «أكرم» تأكلان الجدران والنوافذ.. النوافذ!

ضربات وضربات بكل قوة يمتلكانها ولكن لم يستطيعا سوى فعل بعض الكدمات في معصميهما فقط، الزجاج مصقولٌ ولا تخترقه حتى الرصاصات القاتلة.

صدراهما يعلوان ويهبطان وصوت أنفاس أكرم المصاحبة لضربات يديه تشبه الزئير، لكن القفص لا يمكن المرور منه، الصياد كان ماهرًا جدًا!

ساعة كاملة وهما يحاولان اختراق نوافذ كل الغرف ويجربان كل شيء، العرق يغمرهما وتَشَعثْ شعرها فجمعته بعنفٍ خلف رأسها مستخدمةً خصلةً من شعرها.

تعب وبدأ ينهت بقوةٍ ويمسح وجهه بطرف قميصه، وهي سقطت باكيةً منهارة!

أما في الأسفل فلقد انخلعت قلوب ثلاثتهم مع سماع الدقة الأولى، تبقى ساعتان من المُهلة، ضاعت منهم ساعةٌ هباءً، مشتتين وقد خارت قواهم دون أن يقوموا بحركةٍ واحدة، ما زالت صدمة التخلي عنهم بهذه البساطة تلجمهم وتُفقدهم التركيز.

ودون مقدمات، ندت عن «مازن» ضحكةٌ ساخرةٌ متشنجة مُوَجهة نحو «خالد» ثم قال:

- إنها تنتقم منك لأنك تركتها ولكن ما ذنبي أنا!

لم يكن ينقصه تعليق «مازن»، لقد أدرك في لحظة هرولتها خلف «أكرم» دون أن تلتفت عمق كرهها له، كان يظنها نسيته فقط، لكن أن تكرهه حتى الموت هكذا.. كان متفاجئًا حقًّا!!

- لم يخرجا ولن يستطيعا الخروج.

كالعادة يتمتم لنفسه بصوتٍ مسموعٍ، فسأله «مازن» متحفزًا:

- كيف عرفت؟!

بابتسامة خاويةٍ مطرقًا برأسه بينما يجيبه:

- مشكلتك يا مازن أنك لا تفكر أبعد من شعر رأسك الذي تتفاخر به، لقد نمنا في الطابق الأعلى ليلةً كاملة، ولم يلفت انتباهك أنه لا يوجد أبواب والنوافذ زجاجها من النوع المُقاوم للرصاص.

- وأنت أيضًا لا تفكر أبعد منه بكثير يا باشمهندس!

رفع «خالد» رأسه ينظر تجاه «فريد» الذي قاطع حديثهم المصدوم بالعبارة الأخيرة الغامضة:

- ماذا تقصد؟

التفت مازن إليه رافعًا كلا حاجبيه مندهشًا:

- أخيرًا نطقت!

لكن خالد استوقفه بإشارةٍ من يده بينما عيناه لم تتركا عيني «فريد» للحظةٍ مُكررًا سؤاله:

- وضح ما تريد قوله يا «فريد»!

ينحني للأسفل حتى تكاد عويناته أن تنغمس في صحن البيتزا الفارغ أمامه وتمتم بنبرةٍ لو كان للموتى حديثٌ لتكلموا بها:

- أكرم الوحيد الذي لم يؤذه «فادي الموافي» بأي طريقة، وهو الوحيد أيضًا الذي كان يمتلك أداةً قادرةً على فك أصفاده، وعندما اختار من بيننا، اختار فتاة!

وبلا إنذارٍ مسبقٍ سقطت دموعه في الصحن وهو يتابع وقد بدأ يتشنج ويهتز:

- «دارين» ستدفع ثمن أنانيتها غاليًا.

ومع آخر حروف كلمات «فريد»، انطفأت المصابيح، ودوت الصرخات بين أرجاء المبنى الصخريّ بلا انقطاع!

***



العقوبة

انتهت المهلة الثانية التي كان من المفترض أن تستمر لساعتين بعد هروب «أكرم» و«دارين».

لكن انطفاء المصابيح والصراخ الذي استمر لعشر دقائقَ كاملةٍ حتى صمَّ آذانهم أعلمهم بأنها قد انتهت وتقلص الوقت المتبقي بفضل فرارهما.

لا بد وأن العقوبة ستأتي حالًا، استطاع الرجل أن يدربهم كالحيوانات الأليفة في عدة ساعاتٍ فقط!

الظلام يعني العقوبة!

صرير الباب يعني البتر!

إلا أن الباب لم يُفتح، فقط عاد النور مصاحبًا لصوت خطوات «فادي» على السُلم يهبط من الطابق المنشود، يمسح كفيه بمحرمةٍ قماشيةٍ بيضاءَ.. ملطخةٍ بالدماء!

بلغت القلوب الحناجر في اللحظة التي رفع فيها رأسه ونظر إليهم بأسفٍ زامًّا لشفتيه متوقفًا عن الهبوط، رافعًا كلتا كتفيه ويقول:

- لم أعد كسابق عهدي للأسف في إجراء العمليات الجراحية!

سُمع لريقهم غصةٌ وهم يبتلعونها مُسننةً تجرحهم بينما تمتم «خالد» دون وعي وكأنه ينعيها:

- داري.

رفع «فادي» كفه يستوقفه وقال مُطمئنًا:

- لا تخف.. ما زالت داريكَ على قيد الحياة.. لكن...

عاد يزم شفتيه مُجددًا ويرفع كتفيه ويديه باستسلام من لا يملك من الأمر شيئًا وقال:

- لكن مع الأسف.. يسارها فقد خنصره الصغير!

أنهى عبارته ثم دس يده في جيب سترته وأخرج محرمةً قماشيةً بيضاءَ أخرى يلفها كاللفافة، وتظهر فوقها بقع الدماء متناثرةً كلما فضها حتى فتحها داخل راحته وتناول منها إصبعًا صغيرةً مُلطخةً، ثم رفعها عاليًا ليروها جيدًا بزهوٍ وبريق المتعة يلمع في عينيه متابعًا:

- منبوذ.. ليس له مكانه بين الكِبار.. يسخرون منه ويدفعونه لنهاية الصف لقصر قامته.. أُنظروا كم هو سعيدٌ بما أنجزتُ من أجله!

صرخ «فريد» ودخل في حالة هيستريا وانحنى يضرب رأسه سطح الطاولة وهو يهتز ويبكي في مقعده وينتفض بعنفٍ مُكررًا:

- لا .. لا.. لا!

أنهى «فادي» لف الإصبع وأعادها إلى مكانها في الجيب الداخلي للسترة واقترب من مقعد «فريد» منحنيًا يربت على كتفه بحنو:

- تألم يا صديقي.. الألم هو مصدر الإبداع الذي لا ينضب أبدًا!

ثم وقف معتدلًا وسار بهدوءٍ نحو المنتصف وأسفل الساعة وعاين لحظات ذهول «خالد» و «مازن»، أعاد كفيه للخلف وعقد أصابعه داخل بعضها بعضًا كما يحب وألقى عليهم محاضرته الموجزة كأي مُعلمٍ متفانٍ في مهنته:

- الآن أمامكم عدة اختيارات..

الأول أن نُنحي صديقتنا «دارين» وصديقنا «أكرم» جانبًا وكأنهما لم يكونا معنا منذ البداية وسيختفيان إلى الأبد..

الثاني أن تنتظروا ظهورهما وانضمامهما إليكم ومتابعة ما بدأنا. ولكن في هذه الحالة ستنتهي المهلة الثانية وسيقع عليكم العقاب. وسيتنازل الجميع عن خنصره المحبوب!

نفض «خالد» رأسه بقوةٍ وكأنما خرج من بين القبور ينهض ناثرًا تراب الموتى عنه وهتف مُسرعًا:

- لن ننتظر أحدًا، لقد تخليا كلاهما عنا عند أول فرصة!

لم يتوقف «فريد» عن انتفاضاته المتكررة وهز رأسه بقوة ناظرًا للاشيء مردِّدا:

- لا، لا!

ثارت أعصاب «مازن» بينما يتلفت حوله، ما زالت صدمة رؤيته لإصبعها المبتورة تُرعبه لكنه لم ينطق، لم ينبس ببنت شفة حتى أنه بالكاد يتنفس.

- نسيت أن أخبرك شيئًا هامًا يا وسيم!

التفت «مازن» تجاه مُحدثه مضطربًا متسع العينين انفعالًا بينما الأخير يقترب منه هادئًا تمامًا ومتابعًا:

- لقد أخرجت من جيبك ما يصلح ليكون أداةً للهرب، وتلك فِعلةٌ لها عقوبةٌ منفردة.

***

لدقائق مميتة.. لم يتفوه أحدهم بكلمة!

يقف أمامهم كجبل جليدٍ من القطب الشمالي.. ويبتسم!

وعن يمينه ويساره جبلان آخران قُدا من صخر، يقفان بطاعة وسكون وتحفز لأوامر سيدهما.

الأرض تحت طاولة «مازن» يتناثر فوقها شعره الكثيف البني بينما «مازن» نفسه مطأطئ الرأس بذهول.

لم يكن بحاجةٍ إلى أن يرفع كفه ليتلمس فروة رأسه، فقد وضع أمامه «فادي» مرآة كبيرة لينظر إلى مظهره الجديد قائلًا بسرور:

- ها.. ما رأيك يا صديقي؟ لقد لاحظت منذ أن رأيتني لأول مرة إعجابك الشديد برأسي الحليق، فقررت أن أمنحك نفس شعوري بالسعادة تجاهها، وأحببت أن أخفف عن كاهلك عبء التصفيف والاهتمام اليومي به كما كنت تشرح على حسابك الشخصي بالفيسبوك.

صمت لبرهة قبل أن يقترب من طاولة «مازن» المذهول ورفع أصابعه ليتلمس بطرفه الندبة التي تركها له فوق حاجبه، ندبةً لن يزول أثرها إلا بعد عدة أشهر على الأكثر.

وقال محتفظًا بنفس النبرة السعيدة والمهتمة:

- عندما يستطيل شعرك تستطيع دومًا إخفاءها بخصلتين أو ثلاث وقتها ستصبح شبيهًا بذلك الممثل الوسيم.. ما كان اسمه؟!

فرك ذقنه الحليق بتفكير عاقدًا حاجبيه قبل أن ينفرجا متذكرًا، وضرب الطاولة فانتفض «مازن» ثم صاح بانتشاء:

- آه تذكرت.. رشدي أباظة.. ألم يكن هذا منتهى أملك؟ أن تكون مصدر جذب للنساء.. أنا أعطيتك الفرصة فـــهيا اشكرني.. هيا!

ظل «مازن» محدقا إليه، ما زال جبينه يؤلمه بشدة، اللاصق الطبي يقوم بشد حافتي جلده فيؤلمه أكثر من الجرح نفسه، إنَّ ساعده لم يلتئم بعد حتى الآن وما زال يؤلمه فكيف بجرحٍ آخر فوق رأسه.

جرحٍ ظاهرٍ سيلاحقه لكثير من الوقت، هذا إن خرج من هنا حيًا، حتى وإن خرج فكيف سيواجه الناس، رباه! لا يكاد يتعرف إلى نفسه في المرآة! يمتلك ندبتين إحداهما بوجهه أسفل رأسه الأصلع.

- لا زلت أنتظر أن تشكرني يا عزيزي.

كان جادًا للغاية.. عيناه صارمتان متصلبتان في عيني «مازن» وهو ينحني أمامه مستندًا إلى طاولته.. وينتظر!

يشكره على ماذا؟! لقد شوهه، وسامته التي كانت أهم لديه من حياته، بدونها هو لا شيء حرفيًا، كما كان يخبره والده.

- ألم يعلمك والداك أن تشكر من يصنع لك معروفًا؟!

- أشكرك؟! أنت شوهتني!!

اتسعت عينا «خالد» و «فريد» وهما يريان «مازن» ينطق بحروفه الأخيرة صارخًا في هيستريا، وينحني ضاربًا رأسه بالطاولة مرةً بعد مرةٍ ثم يرفعها محدقًا بجنونٍ إلى عيني غريمه المبتسم. وفجأةً بصق في وجهه متحديًا وصارخًا:

- أتحب أن أشكرك ثانيةً؟

اعتدل «فادي» واقفًا، ثم تناول محرمة ورقية نظف بها وجهه وقال:

- لا.. ليس قبل أن أصنع لك معروفًا آخر.

زمجر «مازن» بينما الرجلان يتقدمان نحوه أحدهما يكبل ذراعه الحرة والثاني يمسك برأسه بعنفٍ ويضغطها بين راحتيه، و «فادي» يتقدم مُخرجًا من جيب سترته مديةً جديدة نزعها من غلافها للتو، قائلًا بجدية طبيبٍ مُقدِمٍ على إجراء جراحةٍ شارحًا تفاصيلها لمريضه:

- مديةٌ جديدةٌ منعًا للتلوث، حاول أن تسترخي حتى لا تصاب إحدى عينيك أو كليهما.

امتقع وجه «خالد» وانكمش «فريد» في مقعده حتى كاد أن يتلاشى، بينما صرخات «مازن» تعلو وهو يرى المدية تقترب من وجهه وأخذ يهتف بهيستريا:

- أشكرك.. أشكرك.. يكفي.. أقبّل يديك لا تفعل هذا بي..

توقفت يد «فادي» في الهواء بعدم رضًا عابسًا، تراجع للخلف حيث المنتصف ينظر إلى ثلاثتهم صائحًا:

- أنا أمنحكم السعادة بينما أنتم تحرمونني من بعض المرح.. لماذا؟ ها.. لماذا جميعكم جبناء هكذا؟! «دارين» ثم «مازن». الكل يتراجع في اللحظة الأخيرة وأنا أُحْرم من اللهو.

- عندي اقتراح..

هتف بها «خالد» مُقاطعًا ذاك الجنون وبأعصاب منفلتةٍ تمامًا كمن يسير على حبالٍ معلقةٍ في الهواء على ارتفاعٍ شاهق، أو من يحاول ترويض وحشٍ مفترسٍ بينما هو معه في نفس القفص وكلتا يديه خاويتان!

تحول «فادي» نحوه زامًا شفتيه للحظاتٍ قليلةٍ محاولًا استرجاع هدوئه المعتاد، إنها إحدى المرات النادرة التي يتبخر فيها الجليد من حوله.

أغمض عينيه وفتحهما في تؤدة ومال برأسه جانبًا، وقد بدا متفهمًا ومستعدًا للحوار، وأشار بيده نحو «خالد» قائلًا بمودةٍ حقيقة:

- بالطبع، تفضل قل اقتراحك عزيزي خالد.

غمغم «خالد» مبتلعا ريقًا وهميًا، وبحذرٍ وبطءٍ محاولًا الوصول إلى مَخرجٍ من هذا القفص المحكم حولهم:

- نبدأ من جديد.. تسامحنا على محاولة الهروب الفاشلة.. نجتمع هنا مجددًا ونبدأ في الكتابة، ما رأيك؟

ابتسم» فادي» بفطنةٍ، فصمت «خالد» مترقبًا لحركة شفتيه، بدا عليه الاقتناع وقال:

- أعلم أنك تريد أن تطمئن على «داري» خاصتك.. تريدها هنا أمام ناظريك.. لا بأس فلقد أعجبني اقتراحك.. فلنبدأ صفحةً جديدة. الآن أنتم مرهقون تمامًا لذا سأمنحكم بعض العصائر لتستعيدوا قوتكم ثم ننقلكم إلى غرفكم لترتاحوا لساعتين أو أكثر قليلًا. ما زال اليوم أمامنا طويلًا للغاية.

التفت ليغادر لكن صوت «فريد» أوقفه فجأةً وهو يتساءل عن «أكرم» ومصيره.

اتسعت ابتسامة «فادي» فاتحًا ذراعيه بترحابٍ وهو يقول بسعادةٍ غامرة:

- وأخيرا تذكرتم خامسكم الضخم، أتكرهونه لهذه الدرجة؟

وقبل أن يتفوه أحدهم بحرفٍ صاح بطريقته المسرحية مزْهُوًا:

- لا بأس، هو يستحق أن تكرهونه كما أستحق أنا تمامًا!!

تبادلوا النظرات القاتمة فيما بينهم، بينما تمتم «فريد» متعجبًا:

- ألا يكون لديك مشكلة لو كنا نكرهك؟

وضع «فادي» كفه على صدره قائلًا بامتنانٍ حقيقيٍّ ظهر جليًا في نبرة صوته:

- أنت تكرهني إذن أنا موجود!!

لذا أرجوكم وفي هذا اليوم تحديدًا أريد منكم أن تكرهونني بعمق؛ فلقد بدأت أشعر في الآونة الأخيرة بأنني غير مرئي على الإطلاق.

قالها ومطَّ شفتيه بأسف قبل أن يحرك يده في الهواء كـمن يبعد عن رأسه ذباب أفكاره المؤلمة، مستطردًا بلا مبالاة:

- عموما.. «أكرم» شخصٌ روحاني كما تعلمون، لذلك هو الآن فوق السحاب!

***

فوق السحاب، حيث لا وزن له، بخف الريشة، قدماه كالهلام، أين الثقل الذي كانت تحمله ركبتاه وتئن منه لسنوات بينما هو ينهض دون عناءٍ كما اعتاد، يُحاول تلمُس الجدران من حوله ليصل إلى «دارين» بعد أن قالت عبارتها الأخيرة وهي تنهت من فرط الإجهاد بعد يأسهما من العثور على مَخرج:

- «أكرم»، رائحة دخان غريبة!

«دارين»، لقد كانت هنا منذ قليل، ولكن فجوةً ما حدثت، هو أيضًا لاحظ الدخان والرائحة الغريبة، ثم بدأ وزن جسده يختفي رويدًا وعقله تظلله غمامة لا يدري كنهها.

ما زالت صرخاتها المُستغيثة به تَصمُّ أذنيه بعد انطفاء الأنوار، ثم أصوات أقدامٍ تدهس الأرض يليها جلبة مقاومة، كل هذا حدث دفعةً واحدة.

صرير الباب ثانيةً بينما صراخاتها المستغيثة به تبتعد: « أكرم! أكرم!»

وصل إلى الباب الموصد متخبطًا في ظلامه، يترنح والغمامة تزداد كثافة، ولكنه لا يفقد الوعي، الصراخ يجوب الرواق في الخارج ويستقر عنده!

شعور مباغت بالرغبة في الضحك، يتبعها رغبةٌ عارمةٌ في البكاء ثم الصراخ ثم اللاشيء، هل بدأ يطير؟!

يشعر بجسده يرتفع ويعلو بنعومة، لقد كان فوق السحاب تحمله الغيوم براحة تهدهده كطفل رضيع يبكي، الطيور تحلق من حوله وتدور في دوائرَ مُحكمةٍ مُغلقة، تصعد وتهبط، تداعبه، بل وتناديه: « أكرم! أكرم!»

هل هي أصوات الطيور حقًا، أم ..

لا إنه صوتٌ مألوف.. دارين؟!

لا، صوتٌ آخر مُحببٌ إلى نفسه، إنه صوت زين!

بمجرد أن أدرك ماهية الصوت فجأة تفككت الغيوم من حوله وادلهمت السماء وبدأ في السقوط كجلمود صخرٍ حطَّه السيل من عليّ!

يسقط ويسقط بلا انتهاء، لا يجد صوته ليصرخ، من قال إن الساقطين يملؤون الدنيا صراخًا كما يحدث في الأفلام والقصص، السقوط لا يسمح بأي رفيقٍ معه سوى الهلع الصامت حتى لحظة الارتطام المنتظرة أو ربما يُرحم قبلها بكثير!

لكنه لم يرتطم إلا ارتطام شخصٍ كان يسير وتعثر في شيء ما فوقع، هكذا فقط وجد نفسه مُمدًّا على سطح أرضية الغرفة المُظلمة، بينما ما زال الصراخ يلتهم حاسة سمعه بلا رحمة « أكرم! أكرم!».

هل هذه الغرفة التي حُبس بها مع «دارين»، أم عاد إلى الزنزانة التي قضى بها سنةً كاملة وبضعة أشهر بصحبة رفيقه «زين»!

إنها نفس البرودة والظلام والكآبة، نفس صرير الباب، نفس الأقدام الشرسة، نفس المقاومة والسحل فوق أرضية الغرفة، نفس الصراخ والاستغاثة باسمه!

وهو يبحث عنه بهلعٍ حتى وصل إلى الركن القادم منه أصوات الصفعات والركلات.

- «زين» أين أنت؟!

تلقى قبضةً في معدته وأخرى على رأسه وثالثة في أنفه أعادته إلى حيث كان، مترنحًا ينزف الدماء من أنفه بغزارة وفقد الوعي ليستيقظ عند الفجر، عندما بدأت خيوط الشمس تتسلل من بين القضبان ساقطةً على وجه زين الغارق في الدماء والمفارق للحياة.

اختفى «زين» وبقيت الجدران تنعيه، لكن استغاثاته لم تتوقف، ظل يسمعها كل ليلةٍ لشهورٍ فيستيقظ هلعًا يفتش عنه كما يفعل الآن، يتحسس كل شبرٍ في الجدران مناديًا «زين» مرة و «دارين» مرة أخرى.

لا يستطيع التفرقة بين الوهم والحقيقة، ما زال الضباب يغطي الوعي في عقله، فيظل يركل الجدران بكل أطرافه، وعندما أدمته بدأ يضربها برأسه فشُج وسالت الدماء على جبينه دافئة.

ترنح فحاول أن يستند إلى أي شيء، لكن قدميه التَفَّتا حول بعضهما البعض وسقط ثانيةً كالحجر فاقدًا للوعي.

لم يسمع صرير الباب الذي فُتح بعد برهةٍ ولم يسمع عودة الأقدام الثقيلة ولم يشعر بالسواعد القوية التي حملته حيث الغُرفة الطبية ليُعالَج، أو كما يُطلق عليها «فادي الموافي»

غرفة العمليات، ولم يدرِ بأنه قد نام بعدها لثلاث ساعاتٍ كاملةٍ مثل بقية رفاقه!

وعندما استيقظ، كان يجلس على مقعده وخلف طاولته، رأسه ضُمدت جيدًا، وعندما خاضت عيناه الوجوه كان الاستسلام والخضوع هو سيد الموقف!

***

خالد ودارين، مازن وأكرم، وأخيرًا فريد!

يومًا ما كانوا نجومًا ساطعة، ثم انفجرت النجوم على بُعد ملايين الأميال وتبعثرت ولم يتبقَ منها سوى زيف الاحتراق ووهجه متمثلًا في منشورات على صفحاتهم الخاصة، كلماتٍ كاذبةٍ عمن يتربص بهم، من يحقد عليهم، من يغار، أعداءٍ وهمية، عروضٍ كاذبة، أطعمةٍ لم يتناولوها يومًا.. إلخ!

حتى وصلت لكل واحد منهم منفردًا رسالة النجاة، دار نشرٍ جديدةٌ أوراقها كلها موثقة لها اسم غريب لم يُكلِّفوا أنفسهم عناء البحث عنه «الطاووس» تريد التعاقد معهم لأنهم كانوا من الأكثر مبيعًا العام قبل عامين، وبنسبة تتجاوز مخيلاتهم وأحلامهم، الكثير من الوعود، الكثير من الخوف والترقب، حتى صعدوا بأقدامهم إلى الحافلة الصفراء!

وها قد وفى بوعده الأول، كان صادقًا معهم في رغبته في الحفر بداخلهم ليتوهج إبداعهم من جديد، وقد فعل.

حفر كما لم يتوقعوا أبدًا ولا في أعتى كوابيسهم، حفر أجسادهم واقتلع منها ما شاء فباتت أضلعهم ترتجف وتزحف دماؤهم داخل أوردتهم بهدوءٍ خائفةً حتى لا تلفت أنظاره!

الخمسة جلوسٌ في مقاعدهم التي ما زالت تشكل نصف دائرة.

وليست المرة الأولى التي لا يدرون فيها كيف ناموا ولا كيف انتقلوا من سرائرهم إلى طاولاتهم في القاعة ولا كيف استيقظوا، إنهم دُمَى يُلعب بها كيفما شاء!

الوجوه مستسلمة، والقلب يحمل كراهيةً لا تنضب، ليس نحوه فقط، بل نحو أنفسهم أيضًا.

لقد أيقنوا بأنهم كانوا جبناء أكثر مما ظنوا، فمن منا لا يصف نفسه بكل صفاقةٍ بالشجاعة والنبل و، و، و .. دون أن تُختبر مبادئهم حقًا.

وها هم قد اختبرهم «فادي الموافي» ويبدو أنهم جميعًا قد فشِلوا.

هل كان يحفر أجسادهم فقط، أم حفر أرواحهم أيضًا!

حتى الآن البئر فارغة، لم تتدفق المياه من الأسفل، يعني بأن «فادي» لم يصل للأعماق بعد، فقط ظهرت بعض الحقائق، ولكن هناك الكثير ما زال تحت الركام ولا بد له أن يخرج.

هكذا ستتحرر أرواحهم كما يؤمن!

المُقَل خاضعةٌ متشنجةٌ أمام عينيه الصارمة، وكأنه ينقل إليهم أفكاره كما ينقل لهم كلماته:

- أنتم أرواحكم مُكبلة بأصفادٍ أقوى من التي تلتف حول أيديكم. سأحرركم يا رفاق مهما كلفني الأمر.

أيكون «فادي الموافي» مُحقًا!، هل هم بالفعل مقيَّدون من الداخل، هل الأصفاد بالفعل تلتف حول أرواحهم وأفكارهم حتى باتت صدأةٍ عليلة؟!

لم يعودوا يتعرفون على أنفسهم، ينكرونها، ألهذا نضب إبداعهم، أم لم يكونوا مبدعين من الأساس؟

هل كانوا مجرد موجةٍ ارتفعت وهبطت ثم تساوت ببقية مياه البحر؟ لو كانوا كذلك فلماذا اختارهم هم بالذات!

أيكونون في حاجةٍ للألم بالفعل ليتحرروا؟!

الأسئلة تضرب عقولهم بعنف بينما هو واقفٌ ينظر إليهم، يقرأ أفكارهم، ثم ابتسم عندما رفعوا نظراتهم إليه وقرأه جليًا في أعينهم، الخضوع!

لقد انتهى حفر الجسد وستبدأ المرحلة الأخيرة، مرحلة الدرس الأخير.

سيتعلمون كيف تتألم الروح حتى تصل إلى التطهير، تماما كالذهب الذي يتعرض للنار ويحترق حتى يصبح ذهبًا نقيًا خالصًا.

تلك الأرواح المُتعبة، آن لها أن تخشع، أن تُمزِّق أكفانها لتعود إلى سيرتها الأولى!

وحينها سيكونون في أتم الجهوزية ليبدأ في تشغيل شاشة العرض الكبيرة المقابلة لهم ليتعرفوا على الطاووس وجهًا لوجه!

***



مرحبا بكم تم التصوير والطباعة بواسطه موقع وقناه روايه بلس

انضموا الينا يتوفر روايات المعرض كامله وجاري توفير روايات اسبوعياً تحت هشتاج

#كل اسبوع روايه

اذا وجدتم اي صفحه صعبه القراءه او ناقصه تواصلوا معنا علي قناه التيلجرام

قناه التيلجرام

الموقع

صفحه الفيس بوك للتواصل

بوت تيلجرام للتواصل وطلب روايه

واتساب للتواصل

اذا لم تعمل معك الروابط يمكنك نسخه من هنا

https://t.me/riwayaplus

www.riwayaplus.com

www.facebook.com/riwayaplus

https://t.me/riwayaplusbot

https://api.whatsapp.com/send?phone=%2017375771220

في قلب الطاووس

مرت دقائقُ قليلةٌ لو سقطت فيها قشةٌ لأحدثت صوتًا مزعجًا في هذا الصمت المطبق وكأنهم يخشون حتى التنفس، عينا «خالد» تخطف نظرةً صامتةً نحو «دارين» الشاحبة المطأطئة الرأس لأسفل تناظر بألم الضمادة التي لُفت بمهارة مكان خنصرها المبتور، رأسها يترنح بعدم اتزان.

بالتأكيد تناولت دواءً ما جعلها تستطيع الجلوس هكذا في إعياءٍ شديد وانهيارٍ مكبوت، وكأنها تخشى البكاء، فقط تلمع مقلتاها كزجاجٍ براق. لا تصدق.. إنه كابوس بشع.

هل فقدت بالفعل إصبعها! بل أهم أصابعها لديها، لقد كانت مهووسة به وتدلِله وكأنه طفلها الصغير.

فُتحت الدفاتر من جديد، إنها المهلة قبل الأخيرة كما أخبرهم وقت انصرافه بخطواتٍ تتوعدهم بالعودة.

وضع أمامهم أكواب ورقٍ مُقوى تحوي عصائر لم يتذوقوا مثلها من قبل، وإن كانت تحمل نفس النكهة المعتادة، مع كل رشفةٍ تتحسن حالتهم المزاجية ويختفي الألم رويدًا رويدًا.

تناول كلٌّ منهم قلمه بأصابعَ مرتعشةٍ غير واثقة بأي شيء.

عقولهم تهدر كالطاحون باحثةً عن أي فكرة هنا أو هناك في زوايا العقل.

القاعدة معروفة لديهم، كلٌّ منهم سيُسطِّر فكرة ما ثم يبدؤون في دمج هذه الأفكار لتخرج في النهاية قصةً واحدةً متماسكةً إبداعيةً غير مألوفةٍ كما اشترط عليهم.

لو لم يتعاونوا فلن ينجحوا أبدًا، وبرغم كرههم لبعضهم البعض إلا أنهم رغما عنهم مضطرون أن يُكوِّنوا فريقًا.

بدؤوا في جلسة عصفٍ ذهنيٍّ للخروج بفكرة مُثلَى.

قال «مازن» وهو يعدد ويحصر أفكار الرعب المعروفة بصوتٍ يسمعونه:

- أشباح، موتى، جنٌّ عاشق، زومبي، مصاصو دماء، بيوتٌ مسكونة، متحولون، مذؤوبون، قتلٌ وأرواحٌ عائدة لتنتقم، تمثيلٌ بالجثث، أنفاقٌ تحت الأرض، سحرةٌ ومشعوذون، مقابر.

كانت عيناه تدور بينهم وهو يعرض عليهم كل ما يستطيع تذكره عن الخوف، بينما ملامحهم متشنجةٌ متقززةٌ ورافضة، الاستيعاب صفر.

وعندما توقفت الأفكار على لسانه عقّب «خالد» متابعا:

- هو لم يُحدد نوعية القصة.

تمتم «أكرم» ساخرا وهو يحاول فرك عينيه مرة بعد مرة ليطرد شبح «زين» القابع في خياله المظلم:

- وماذا سنكتب في وضعٍ هكذا.. رومانسي؟!

رد «خالد» بتشتتٍ واضح محاولًا إيجاد طريقة ما لترتيب أفكاره:

- لم أقل هذا، بل أقصد أن أفكار الرعب مُكررةٌ وهو يزيد منا فكرةً جديدة.

قاطعته «دارين» دون أن تبذل عناء رفع رأسها أو النظر إليه. وبنبرةٍ مخذولةٍ وبمزيجٍ عجيبٍ بين السخرية والألم:

- الرعب نوع من أنواع الرومانسية.

- فعلًا!

هتف بها «فريد» فجأةً بنشاطٍ واضحٍ وشغفٍ عجيبٍ مصدقًا على ما قالته، ثم تابع:

- فعلًا، الرعب القوطي فرع من فروع الأدب الرومانسي.

زفر «خالد» بملل، «فريد» في وادٍ وما تقصده «دارين» في وادٍ آخر، ربما هو الوحيد الذي يفهم أنها ما زالت تقف على شاطئ الحرمان تنتظر بعيدًا لم تنله.

النساء لا تترك أبدا فرصة للتأنيب ولا تستغلها!!

لكن «فريد» يتحدث بمهنيةٍ وحماسٍ مناقضٍ للوضع الذي يجبرهم على التعاون وكأنه في نزهة!!

وبتلقائيةٍ رفع أصابعه ليعدل وضع عويناته الطبية بارتباكٍ ويتراجع أمام نظراتهم المصوبة إليه كالسهام، صمت وكأنه لم يعد يتنفس.

ملأ «خالد» صدره بالهواء محاولًا استعادة تلك المعاني القديمة التي كان يكتبها في أعماله الزاخرة بالتنمية البشرية وتنظيم الأهداف والأفكار والعمل تحت ضغطٍ وفي ظروفٍ قاسية، ثم تنحنح ليجلب بعض الهيبة لما سيقوله فتحدث بهدوءٍ ظاهر:

- بهدوء، كل منا يطرح فكرةً وفي النهاية نقوم بمحاولة دمج كل الأفكار في فكرةٍ واحدةٍ متماسكة.

همس «فريد» وكأنه يحادث نفسه:

- طفلٌ مُقيدٌ بقبو منزله.

لم يكن منتبها إلى أنهم بدؤوا بالفعل في كتابة ما قاله برغم الاشمئزاز الذي بدا على وجوههم، وعندما انتبه إليهم كانوا يتبادلون النظرات والنقر بأقلامهم فوق الدفاتر في تفكيرٍ عميق.

تمتم «مازن»:

- قصة حبٍ فاشلةٍ انتهت بفضيحةٍ للبنت وأهلها، ثم اضطروا لتزويجها لأول خاطب ظهر فجأةً من العدم، لا يعلمون عنه شيئًا.

جرت الأقلام مجددا تخط ما يتمتم به «مازن» سريعًا وقبل أن ينتهوا همس «أكرم» محاولًا ترك خيال «زين» الذي يحاصر أفكاره:

- سجينٌ مظلومٌ، بسيطٌ، نقيٌ، متحمس.. قتلوه!

قاموا بتدوين همساته وما استطاعوا سماعه من بين شفتيه اللاهثتين.

ودون أن ترفع رأسها علمت بأن دورها قد حان في طرح ما تفكر به، فنطقت بأول ما جال بخاطرها بينما تضغط أضراسها الخلفية:

- بنت.. قتلت حبيبها الخائن وقطعته إربًا، وتخلصت من الجثة بطريقةٍ مبتكرةٍ، وأُغلقت القضية ضد مجهول.

ابتسم «مازن» بسخرية وهو يُلقي بنظرةٍ نحو «خالد» تعني الكلام لك يا جارة!!

توقف الكلام كالغصة المسننة في حلق «خالد» وشعر بسخونة تغلي منها رأسه.

متى أصبحت «دارين» دمويةً إلى هذا الحد، هل كانت تفكر في الانتقام منه بتلك الطريقة البشعة؟!

قبل أن تتكلم «دارين» كان يستطيع طرح عدة أفكار، ولكن بعدما قالته وجد نفسه مضطرًا إلى طرح بعض الحلول البديلة بما يناسب تطلعاتهم.

- بنتٌ واجهت كل ظروفها النفسية والاجتماعية وتخطت ماضيها المؤلم ونجحت وباتت رمزًا لفتيات الوطن العربي.

ثم حاول أن يُضفي بعض الدعابة مستطردًا:

- وصارت «استرونج إندبندنت وومان».

لم يبتسموا حتى، كان سخيفًا وهو يعرف ذلك جيدًا، ولو كانت القاعة أكثر هدوءًا لسمعوا اصطكاك أضراس «دارين» الحاقدة عليه.

فقال محاولًا الحفاظ على ما تبقى من ماء وجهه:

- نقرأ الأفكار كلها ثانيةً في هدوءٍ لدقائقَ ونحاول جمعهم في قصةٍ واحدةٍ بأي طريقة.

***

مرت ساعةٌ في مناقشاتٍ ومداولاتٍ والكثير من التنمر على بعضهم البعض، والكثير من الاتهامات بالسطحية وفقدان الموهبة وعراك، حتى تم الاتفاق -على مضض- وتم دمج كل الأفكار بعد صراعاتٍ فكريةٍ دامية.

ثم ساعةٌ أخرى وكلٌ منهم يكتبها بطريقته مستعملًا أسلوبه الخاص.

وساعةٌ أخيرةٌ مضت في محاولاتٍ لا نهائيةٍ للوصول إلى اتفاقٍ على أسلوبٍ واحدٍ من بين أساليبهم المختلفة، والخروج بأفضلهم من حيث السرد واللغة والحبكة والبناء القوي والالتواءة الأخيرة.

***

وضع «فادي» المسودة على طاولة «خالد» مُعيدًا إياها مكانها بعد أن انتهى من قراءتها، وجهه جامدٌ كالحجر لا يظهر فوقه أية انفعالات، لا رضا، لا قبول، لا رفض!

إلا أن تلك الحركة التي حفظوها عن ظهر قلبٍ أنبأتهم بأنه يُفكر بعمق، كفاه متشابكتان خلف ظهره ويسير الهوينى جيئةً وذهابًا مطأطأ الرأس، جبينه مُغضن!

فجأةً توقف ورفع رأسه، نظر إليهم مليًا وكأنه يلج عقولهم بنظراته المتفحصة.

كانوا ينهشون ملامحه نهشًا بنظراتهم، نبضاتهم تتسارع، يتأرجحون بين اليأس والرجاء!

حتى باغتهم فجأةً بنبرته العميقة وهو يرفع رأسه لأعلى مستجمعًا أفكاره بعد أن تنفس بعمقٍ وكأنه يطرح ما قرأه على نفسه ويتداول معها بعيدًا عنهم:

- طفل تَربى بين جدران قبوٍ على يدي والدٍ ساديٍّ، يجد لذةً في تعذيبه وكيِّه بالنار وتجويعه تارةً وجلده تارةً أخرى. اممم... سنتجاوز هذه النقطة.

وعام بعد عام كبر الطفل وصار مراهقًا مصابًا باضطرابات عقلية، منزويًا يرتعش إن سمع صوت حزامٍ جلديٍّ يتم تعليقه على مشجب ما على بُعد أميال منه!

إلا أنه يعشق والده... اممم حسنًا متلازمة ستوكهولم المعروفة.

صار الفتى رجلًا ثم مات الوالد فرفض التصديق وأصر أن يُحييه مُجددًا.. الأمر مثير هنا!

وفي هذه الأثناء، وفي بلدةٍ أخرى كانت هناك فضيحة مُدوية.. الحكاية الأبدية.. عاشقٌ غدر بمحبوبته وهرب وتركها تواجه عائلتها ببطنها البارزة، تلك البطن التي تسببت في انتشار الخبر في القرية الصغيرة، وكعادة الأخبار العفنة.. تفوح رائحتها سريعًا وتشممها الفتى فداعبت خياله وألهمته الحل!

ذهب وتزوج الفتاة وأتى بها إلى عقر داره، سجنها الأبدي. كانت تخافه، ترتعب من نظراته، تلاحظ اضطرابه وهو يراقب بروز بطنها بنشوة عجيبة، يتخيل لحظة البعث!

حتى حانت اللحظة ووُضع طفل الخطيئة، وبدأ الحفل!

إنها طفلة، تكبر ويكبر معها العذاب، تتذوق الألم هي وأمها في نفس القبو المظلم. أما هو، فينتشي طربًا بصراخها. لقد نجح، استطاع إحياء والده من الرماد.. كالعنقاء!

وجاءت لحظة الغفلة.. لحظة الخلاص.

استطاعت الأم فك وثاقها وبكل الألم المحتشد بداخلها.. قتلته!

أيقظت ابنتها وأمرتها بالصعود، وبهدوءٍ عجيبٍ قامت بفصل رأسه وتقطيعه إلى أجزاء، وأذابته في الأحماض، وما تبقى من رفاته، دفنته أسفل بيتٍ خَربٍ على مشارف بلدتها القديمة. وأبلغت عن تغيبه كما تفعل أي زوجةٍ تحترم نفسها!

ومرت الأعوام واستطاعت العودة إلى الحياة ومداراة الجروح التي تركها الزمن عليها، وصارت في بلدة زوجها يُضرب بها المثل للأم المكدة الصبورة المتحملة لغياب زوجها وتربية ابنتهما حتى صارت يافعةً جميلةً، ولكن منطوية. لا بأس فالفتيات معظمهن منطويات!

ولأن الدَّيْن لا يُنسى، ولأن العجلة دوارة، أتاها الوغد يومًا يطلب المغفرة عما اقترفه في حقها منذ سنوات عندما تركها تحمل جنينه وهرب، فلقد انتقم الله لها ونصحه أحد أصدقائه بأن يذهب إليها ليقضي الدَّيْن كخطوةٍ أولى في طريق المغفرة.

ابتسمت وأخبرته بأنه ستسامحه ودعته للدخول!

وفي الليل الحالك كقلبها، كانت رفات الذئب الأول تجاور عظام الوغد الثاني!

وهنا صمت «فادي الموافي» متوقفًا عن الاسترسال فتبادلوا النظرات القلِقة، التي لم تُطِل كثيرًا لأنه التفت نحو «أكرم» متسائلًا:

- لم أشعر بكَ في الحكاية يا أكرم، كنت أنتظر أن يكون هناك سجنًا ما، أم أنك اكتفيت بفكرة التعذيب؟!

أجابه «أكرم» الذي يبدو بأنه لن يستعيد تركيزه للأبد:

- الحكاية لا تحتمل سجونًا. ثم أنها تدور في قريةٍ ولا مكان للسياسة فيها.

مط «فادي» شفتيه باستياءٍ واضحٍ ثم قال مقترحًا:

- لو انتقل جزءٌ من الحكاية إلى المدينة فلربما استطعنا إيجاد مكانٍ مناسب لها.

عادوا يتبادلون النظرات، إنه لم يُكمل الحكاية بعد، ما زالت هناك نهاية.. ألم تعجبه؟!

هل سيوقع عليهم عقوبةً جديدة؟

قاطع حبال أفكارهم بعبارةٍ ابتلعوا بعدها غصة مُسننة وبلغت قلوبهم الحناجر:

- هذه الحكاية فاشلة، أتعلمون لماذا؟ لسببٍ واحد.

حاول «خالد» مقاطعته وطلب مهلةً جديدةً، ولكنه أشار إليه بسبابته أن يصمت وتابع:

- لأنها تدور فقط حول آلامكم القديمة، أنتم تحصرون أنفسكم في جوف الماضي البغيض، وربما لذلك توقف إبداعكم، ولم تستطيعوا كل هذا الوقت كتابة حرفٍ واحد.

تدورون في دوائركم الحزينة فلا تستطيعون الرؤية ولو لخطوة أبعد خارجها. إنكم مُكبَّلون يا أصدقاء! أنتم في حاجة إلى ألم أقوى يُنسيكم الهزائم القديمة، ربما وقتها تستطيعون التحرر!

لقد انتهى العبث. تلك الرؤوس الخانعة أمامه ما زالت تحمل أرواحًا منطفأةً وتحتاج إلى فتيلٍ لإشعالها كي تتوهج.

همس «فادي الموافي» في أذن رجله الأول عن يمينه وهو يشير له إلى الطابق الأعلى، فأومأ حارسه الخاص وهو يشير إلى الآخر أن يتبعه فتحركا معًا بتناغمٍ نحو السلم ومنه إلى الطابق الأعلى.

وبعد دقائق قليلةٍ سمعوا أصوات أقدامهم الثقيلة تهبط على الدَّرج مجددًا، وهما يحملان جهازًا غريب الشكل يرونه لأول مرةٍ كما ظهر على وجوههم المترقبة بخوف.. ما هذا؟!!

جهازٌ له شاشة تنقسم إلى لونين: أزرقَ، وأبيضَ. وفي المنتصف مؤشرٌ ثابت يتصل بها سلكان طويلان ينتهي طرفاهما بما يشبه القفازات المصنوعة من الجلد الأسود.

يحمل أحدهما الشاشة ويديرها نحوهم لكي يستطيعوا رؤيتها جميعًا، بينما الآخر ممسكٌ بالقفازين ويتجه بهما نحو طاولتيْ خالد ودارين التي تَوجه إليها أولا فتركته يأخذ بكفها الحرة ويدخلها داخل أحد القفازين.

شعرت في أطراف أصابعها بما يشبه المجسات المعدنية الباردة، أغلق القفاز جيدًا حول رسغها، ثم تركها وتوجه نحو خالد وفعل معه نفس الشيء، وهنا جن جنون المؤشر بداخل الشاشة لثوانٍ ثم هدأ، وبدأ يميل ببطءٍ يمنةً ويسرةً مع سرعة وبطء النبضات.

نبضهما كان ضعيفا للغاية وحان وقت أن يتحرك بل ويقفز وهذه مهمة فادي الموافي المحببة إليه.

وقف أمامهما في المنتصف تماما مريحا كفه اليمنى فوق اليسرى، محركا سبابته كالعادة بحركة تشبه النقر، آخذًا كل الوقت اللازم قبل أن يتحدث شارحًا ببساطة:

- إنه يشبه إلى حدٍ كبيرٍ ما تسمونه بجهاز كشف الكذب، لكنه في الحقيقة جهاز كشف الضعف، الرابح هنا هو من سينجح في إشعال نبضات الآخر.

رفع خالد عينيه إليه متسائلًا بدهشةٍ وعدم فهم:

- كيف؟!!

أرسل «فادي» تنهيدةً متعجبةً، الكلام واضحٌ ولا يحتاج لشرح، ولكن نظرة البلاهة تلك تخبره بأهمية الاسترسال فقال:

- لديكم لعبةٌ تشبهها تعتمد على القوة العضلية تسمونها «الرست» أو مصارعة الأيدي، اللاعب الأضعف هو من سيلمس كفه سطح الطاولة أولًا.

أما لعبتنا هذه فتعتمد على العضلات النفسية، والضغط هنا ليس بقوة الساعد بل بقوة الكلمات، كلٌ منكما سيضغط بقوةٍ على جراح الآخر وسيسعى لتهشيم ثباته الانفعالي، والمؤشر في هذا الجهاز سيخبرنا من منكم سيبدأ بالتحطم أولًا، ومن منكم يستطيع سحق الآخر بلا مبالاة.

ثم رفع يده مشيرا بسبابته، يرسم في الهواء القاعدة الأخيرة:

- أمامكما خمس عشرة دقيقة، وبالمناسبة هذه اللعبة غير شريفة، لا قواعد، استخدما أي شيءٍ وكل شيءٍ تعرفانه عن الآخر، لأن النهاية بها فائز واحد فقط.

اهتزت «دارين» في مقعدها كاشفةً عن ارتعاشة قويةٍ تسري في كل خليةٍ من جسدها، بينما تسمع «خالد» يسأل سؤالًا أخيرًا بنبرةٍ حزينةٍ مواسيةٍ تنعيها مقدمًا:

- وما مصير الخاسر؟ .

ابتسم «فادي» ساخرا وقد التقط إشارات النصر المسبق واضحة في سؤاله ونظراته المشيعة لدارين، فمال نحو طاولتها حتى استند بكفيه إليها قريبًا جدًا من وجهها المنحني مستعملًا نبرته المبحوحة التي تشبه الفحيح، وقال بغموض:

- الخاسر؟ ربما وقتها سيكون هو نفسه الفائز، ولكن بطريقته الخاصة.

رفعت رأسها قليلًا تبادله النظر، لم تفهم عبارته تلك، خاصةً بعد أن استطرد قائلًا ببروده المعتاد:

- بعض الهزائم تُخفي أسفلها نصرًا ما.. بعض الخسائر تمنحنا السلام.

***

ترك لها «خالد» الضربة الأولى، منحها أول دقيقةٍ هدية لكنها بقيت صامتةً كالقبور، حتى نظراتها لم ترفعها نحوه، فلم يجد بديلًا إلا البدء، وكان أول ما نطق به طعنةً نافذة:

- لا زلت أذكر رسائلك الصوتية عندما اختفيت فجأة أول مرة، كانت جميعها عبارة عن بكاءٍ وتوسلٍ وسؤالٍ واحد، لماذا تركتك.

تحرك المؤشر بغتةً، ثم أخذ يميل تجاهها رويدا رويدا بينما هي ترفع عينين مليئتين بالحقد نحوه.

هي أيضًا لم تنسَ كيف كانت تتمزق كرامتها أشلاءً وهي ترسل له تلك الرسائل تنفطر عينيها بالدموع في بكاءٍ مؤلم، ما زالت ذكرى صوتها وهي تتشنج بيأسٍ مريرٍ في الرسالة الأولى

«أجبني، أرجوك! أنا أموت من دونك، أين أنت؟»

ثم تستعطفه في الرسالة الثانية «سألت عنك في كل مكان.. لماذا تفعل بي هذا؟»

تلك الليالي الحالكة التي مضت بها تدور بغرفتها كالمدمنين، تبحث عنه كمتسولةٍ جائعةٍ، لقد أدمنته حرفيًّا كما كان يداعبها فيما مضى ويخبرها بأنه سوف يجعلها تدمنه فلا تستطيع أن تفعل سوى أن تذهب إلى المحادثات التي جرت بينهما لترسل له رسالةً ثالثة: «لا أستطيع العيش من دونك يا حبيبي، هل هُنتُ عليك لهذه الدرجة، أرجوك أجبني ولو بكلمة.»

وتمضي الأيام ورسائلها لا تُقرأ ولا تُفتح من الأساس، خلاياها تتمزق تعاني أعراض الانسحاب، إنه يعلم أنها تموت بدونه، موقنٌ تمامًا أنه يسري في دمها، لقد تسرب إلى تفاصيلها، كان جزءًا كبيرًا من يومياتها، صباح مساء، لا يفارقها سواءٌ بجسده أو بصوته عبر الهاتف، حتى باتت حواسها نفسها تعرفه دون أن ينطق بكلمةٍ وتشعر به عن بعد.

تتعاطاه حرفيًا، تستنشق كلماته لها، وبخاصة تلك العبارة التي ما فتئ يرددها على مسامعها مع كل شجارٍ لطيف: «أنتِ لستِ للنسيان أبدًا يا داري».

نعم، الآن أيقنت. إنها للخذلان أقرب!

هانت عليه، حتى كلمة وداعٍ لم يمنحها، تركها واختفى كما يُفعل مع العاهرات، دون سبب، دون إجابة، وربما كان هذا الأكثر إيلامًا من الوداع. ألا يكون هناك وداعٌ على الإطلاق، تظل معلقةً تتأرجح بين اليأس والأمل.

لا أحد على الإطلاق يستحق أن يُترك دون سبب، لا أحد على الإطلاق يستحق أن يبيت لياليه وهو يظن نفسه ليس كافيًا!

- دارين؟

نداؤه أيقظها من غيبوبة ذكرياتها العنيفة المخزية، كانت ترتعش بشدةٍ، الدموع تتقافز كتقافز المؤشر، وهو يتابع بنبرة متخمة بالشفقة:

- لقد فعلت كل هذا لصالحك.

وأخيرًا همست بضياع:

- ما أنت إلا مجرد نرجسيٌ آخر، يتلاعب بالجميع لصالحه وحده، لا تختلف كثيرًا عن مصاصي الدماء.

حركات المؤشر ما زالت قابعةً عندها، لم تتحرك نحوه قيد أنملة، إنه باردٌ كالموتى، يعرف بأنها ستحاول إهانته لينفعل خاصةً وأنها لم يعد لديها شيءٌ لتخسره.

«فادي الموافي» يتابع باستمتاعٍ ولذةٍ لا تضاهيها لذةٌ تلك المباراة الغير ودية، خاصةً عندما بدأ «خالد» يتخلى عن دور الحمل الوديع وكشر عن أنيابه قائلًا:

- كل الحريم تتحول فجأةً إلى فيلسوفة عندما يتركها رجل.

- وغد.

تمتمت بها تشتمه، لقد أحرق سفنه وأحرقها معها وهو يعلم ذلك جيدًا، لكنه لم يتوقف وقال ساخرًا:

- هذا الوغد كان هو الصدر الحنون الذي تصدعين رأسه بمشاكلك وعقدك النفسية ليل نهار، ما رأيك أن أذكّركِ بعقدة منهم، على سبيل المثال « مستر سعد»؟!

- اخرس يا وضيع!

كانت تصرخ وتتخبط بلا هوادة، لقد نسيت خنصرها المبتور، نسيت ساعدها الذي لم يُشف، نسيت كل الآلام الجسدية، لقد أحرق الوغد روحها حرفيًا.

تعلمت بالطريقة الصعبة كيف تنزف الروح دمًا حقيقيًا لا يُرى، لم تعد تراه من فرط الدموع، بل لم تعد ترى أي كائن حولها.

كيف أحبته يومًا؟! كيف؟!! كيف خُدعت هكذا؟!!! كيف كانت بريئة إلى هذا الحد الساذج، الكل كان يراه إلا هي، الكل كان يعرف إلا هي، حذروها لكن الحب قاتلٌ مُلثَّمٌ لا تدرك وجهه القبيح حتى يقرر أن يستدير إليك.

- أنت منافقٌ يا «خالد» لم تكن تخدعني وحدي، كنت تخدع كل من يعرفك، حتى ما كنت تكتبه كان في الأصل كتبًا أجنبيةً تأخذ منها ما تأخذ وتنسبه لنفسك.

قاطعها ضاحكًا قائلًا ببرودٍ غامزًا بخفة:

- كل هذا لأنني رفضت أن أتزوجك، أصبح فجأة الزواج الثاني رائعًا بعد أن كان جريمةً في كل مقالاتك ومنشوراتك يا فيمنست يا فاشلة!

- يكفي.

كانت كلمةً حاسمةً من «فادي» وبإشارةٍ منه صمت «خالد»، يكفي بالفعل، النتيجة واضحة، لقد سحقها بجدارةٍ ولم يعد هناك حاجة للمزيد.

انهارت «دارين» كليًا وباتت تتنفس بصعوبةٍ بالغةٍ علامة على الاستسلام.

هي من بحثت عن الإجابة، وها قد حصلت عليها.

أشار «فادي» برأسه لحارسه نحو «أكرم ومازن»، اللذَيْن كانا يتابعان ما يحدث بأفواهٍ مفتوحةٍ وكأنما يتابعان فيلمًا دراميًا بائسًا ماتت في نهايته البطلة الحمقاء.

وها قد حان وقت فيلمهما الخاص، بينما لا يعرفان حتى الآن ماذا سيكون تصنيفه!

****

- يبدو أنكما في حاجة إلى وسيلة مساعدة!

اضطر «فادي» إلى قولها وهو يتقدم نحو طاولتيْ أكرم ومازن، فلقد مرت خمسة دقائق كاملة وهما ينظران إلى بعضهما البعض ببلاهةٍ ربما، نظراتهما حائرة مشتتة، تجربة خالد ودارين أنبأتهما بأن الجميع خاسر!

التفت كلاهما نحو «فادي» الواقف بينهما في المنتصف متابعًا بدهشة:

- لا أفهم. كنتُ أظن أن العلاقات العاطفية أكثر متانة من الصداقة، لكنكما تبدوان وكأنكما ترهبان توجيه اللكمات لبعضكما البعض رغم...

قاطعه «أكرم» متشدّقا وهو ينظر إلى «خالد» بازدراء:

- النذالة موهبةٌ لا تتوفر لدى الجميع بنفس الدرجة.

لم يلتفت «خالد» للعبارة برغم يقينه بأنه المقصود، لقد كان في عالمٍ آخر تمامًا، حاسة سمعه وكأنها لا تلتقط سوى نشيج «دارين» الذي بدأ يخفت ويهدأ تعبًا وليس اكتفاءً.

يكاد الآن يُنكر نفسه التي بين جنبيه، كيف استطاع أن يؤذيها لهذه الدرجة، إنها الشخص الوحيد الذي أحبه بكل هذا الإخلاص والتفاني، لقد كان في استطاعته الفوز بأقل الخسائر الممكنة، فلماذا اختار أن يكون نذلًا للنهاية؟!

لماذا يستمتع دومًا بالقيام بدور الذئب وبعد أن يُصفق له الجمهور يواجه انعكاس صورته بالمرآة ويكرهها، يكرهها بشدة، ويتألم، بينما دماء الضحية لا يزال يقطر من بين شفتيه!

ربما البعض لا يكتمل إلا بنقص الآخرين!

نقر «مازن» على الطاولة متوترًا، بينما يميل «فادي» نحوه هامسًا:

- أفهم أنك كنت تغار، لهذا سعيت إلى أن تدفع بصديقك للجحيم وتلقيه هناك إلى حيث لا رجعة.

لكن الذي لم أفهمه حقًا، لماذا وشيت بذلك الفتى المصور الصحفي.. ممم ما اسمه؟ آه نعم.. «زين»!

شعر «مازن» بتلك الذبذبات المشتعلة المنبعثة من جسد «أكرم» وصمت لدقيقةٍ يبتلع فيها كلماته، كلمةً خلف أخرى حتى قرر أخيرًا

التحدث مجيبًا وهو يلحظ قفزات المؤشر بالتوازي بينه وبين «أكرم» وقال متلعثمًا:

- لم أقصد، لم أتخيل أن كل هذا سيحدث لهما.

تحرك «أكرم» للأمام وقد توهج وجهه بنيران الغضب المشتعلة بداخل ذكرياته تُنير له الطريق وتدُله إلى كل ذكرى مؤلمةٍ تسبب بها مازن، علم «فادي» بأن طرف الشعلة قد استجاب وبدأ بالتفاعل فانسحب للوراء تاركًا الساحة لهما مستعدًا للمشاهدة بشغف، خاصة بعد أن ضرب «أكرم» سطح الطاولة قائلًا بغضب مكتوم وهو يضغط أضراسه:

- لم تتخيل! هل كنت تعتقد مثلا أن وشايتك ستذهب بنا إلى الحديقة الدولية؟!

زادت ضربات قلبه وهو يتلفت يمينًا ويسارًا، يبحث عن شيءٍ ما ضائع لا يستطيع إيجاده، متلعثمًا لا يجيد جمع عبارةٍ كاملةٍ ويتحدث دون توقفٍ وكأنما لن يصمت أبدًا:

- لم أعلم أنه مريض وبأنه قلبه لن يتحمل، لقد حاولت بعدها، صدقني حاولت لكنني فشلت في إخراجكما.

لقد حقدت عليه يا «أكرم» حقدت عليه لأن لديه والد صالح، لأن لديه عائلة تحبه ووالدة تفنى في خدمته، حقدت عليه لأنني لم يكن لي سواك... لأنني كنت فاشلًا، لم أنجح في الاحتفاظ بأي شخصٍ في حياتي غيرك. لم أكن أريد أن أفشل مجددًا وأفقدك أنت أيضًا.

تلاشى صوته شيئًا فشيئًا حتى صمت بنظراتٍ زائغةٍ وبداخلٍ يقرر بأن يتوقف ويترك الفرصة لأكرم ليزمه ويخرج هو منتصرًا، ربما حينها يغفر له ما اقترفه في حقهما معًا.

تعجب «فادي» من حركات المؤشر نحو أكرم، كان هناك بعض الانفعالات لكن ليس بالشكل المتوقع، «أكرم» يهدأ.. هل تعطل الجهاز؟!

تكلم «أكرم» أخيرًا وهو يتأمل ملامح «مازن» فرفع «فادي» وجهه نحوه في انتظارٍ متحمس، لكن أكرم خذله عندما قال بهدوء:

- ولأنا لم يكن لي سواك، لكنك لم تشأ أن تخرج من مستنقعك وكأنك قد عينت نفسك خادمًا لإبليس لأجل الانتقام مما حدث لك في طفولتك أم لأجل ماذا، لا أعرف!

أطرق «مازن» بخزي بينما قال «فادي» بنبرةٍ تشبه تلك المستخدمة في جلسات التنويم المغناطيسي موجهًا سؤاله لأكرم:

- ماذا حدث معه وهو طفل، أخبرنا؟

كلاهما قفز بذهنه إلى نفس اللحظة في الماضي وكأنما اتفقا على ذلك، عندما كان «مازن» يبوح بألمه لصديقه الوحيد ويحكي عن طفولته.. ووالده.

« كان يصطحبني إلى النادي ويرمق كل النساء التي تقابلنا متفحصًا تفاصيل كل امرأة وفتاة تسقط نظراته عليها، وعندما يقع اختياره على الصيد المناسب، يطلب مني أن أذهب ببراءةٍ إليها وأبتسم لها فلا تستطيع مقاومة براءتي فتقربني منها وتبدأ بالتعرف على اسمي ومن أكون وهكذا، ثم يأتي دور أبي، يقترب منا ويبدأ في الحديث معها ثم يضغط على كتفي، علامة قام بتحفيظي إياها كي أنصرف واتركهما وحدهما، لأن ما سأسمعه بعد ذلك لا يصح لطفل في مثل عمري»

أربع سنواتٍ كاملة لا أستطيع الرفض وإذا تجرأت مرةً وفعلت، يعاقبني بقص شعري.

وسقطت دمعة وحيدة بينما يعود من ذكرياته ويرفع رأسه ينظر إلى «أكرم» ويقرأ في عينيه نفس النظرة المشفقة، فعلِم بأنه يسترجع نفس الذكرى البائسة التي تعرى فيها من تلك الهالة التي كان يحيط بها نفسه وكشف له عن أسوء مخاوفه، أن يتغير شكله وتذهب وساومته فتكرهه الناس وتبتعد عنه ويصبح مرفوضًا!

كان يعلم بأنه هالكٌ لا محالة، منهزم، وأكرم يمتلك كل عوامل الفوز، بينما هو لا يمتلك شيئًا على الإطلاق، لا يمتلك سوى «زين»، لكنه لن يؤلمه لن يذكره، يكفي بأنه من تسبب في موته.

سكت لاهثًا، صدره يعلو ويهبط، نفسه تنازعه أن يهرب بنفسه وهو يستطيع، لكنه لا يملك أن يفعل، المؤشر يتجه نحوه ويتقافز بجنون، وجهه محتقن وشفتاه باردتان ونظراته زائغة في وجه أكرم الصامت تمامًا .. دامع العينين، يمتلك السكين ويستطيع الطعن وبقوة، يحوز النصر المؤزر.. ولكن.. نصر ملوثٌ بالنذالة، وهو ليس «خالد» ليفعل.

أفكاره كلها كانت واضحةً جليةً في عينيه ليقرأها أكرم ببساطة، «زين» يلتمع كالنجمة في حدقتي «مازن» لكنه سكت ولم ينطق باسمه حتى!

غريبة، وكأنه يرى وجه «زين» تتشكل فوق ملامح «مازن»، ذلك الوجه الصبوح الهادئ الذي ابتسم يومًا ما له وهو يبوح له بخواطره قائلًا:

- «أتدري يا أكرم، كلما قلت دعاء السفر تذكرت أن الدنيا ما هي إلا مجرد سفرٍ من نوع آخر، رحلةٌ وستنتهي، فيأتيني خاطرٌ بأن الله هو الصاحب في السفر بمعناها الأوسع من ذلك، أي في كل خطوة نخطوها على هذه الأرض حتى تنقضي رحلتنا، لذلك أردد هذا الدعاء في أوقاتٍ كثيرةٍ وليس في السفر بمعناه الذي نعرفه فقط»

وهنا دون وعي تحركت شفتا أكرم يردد « اللهم أنت الصاحب في السفر» فارتفعت الدهشة على ملامح «مازن» الذي ما زال ينهت لم يخرج من دوامته بعد، وعندها تكلم أكرم قائلًا له:

- لقد سامحتك يا مازن!

هل توتر جبل الجليد الواقف بينهما؟! يبدو أنه كذلك، فلقد تغضن وجهه، لقد أفسد أكرم اللعبة المُحببة، قرر أن يحتفظ بسر مازن في البئر التي رماه فيها، لم يطعنه وفي نفس الوقت هزمه!

ثم ما تلك الجملة التي رددها، يبدو أنها تعود إلى الديانة التي يعتنقونها، لم يكن يعلم بأن أكرم لديه مسحة تدينٍ ومسحة خُلقٍ يغلبان ألمه وماضيه، هذا يفسد الأمر.. أكرم خطرٌ ولا بد وأن يخرج من اللعبة!

حينها همست «دارين» باسم «مازن» وعندما نظر لها، كانت تضع وجنتها فوق الطاولة تفتح عينيها بصعوبةٍ وتقول له صادقة:

- أنت لست فاشلًا، ولا أنا.

نظر لها من بين غلالة الدمع ف عينيه لا يفهم لماذا تخبره بذلك، راقبها تلتقط أنفاسها بصعوبةٍ وتتابع:

- نعم، عندما ذهبت حانقةً إلى دار النشر لأقابل مديرها لأسأله أن يمنحني عنوان صديقه في قريته أو رقمٍ آخر، قال لي بأنه لم يكن يومًا صديقه، كان مجرد ناشرٍ لكتبه لا أكثر ولا أقل وأنه وافق على نشر كتابي وكتابك لأنهما كانا يستحقان ذلك. وأنه غير مسؤولٍ عما يقول «خالد» عن علاقتهما.

نحن قابلان للنجاح يا «مازن». نحن لسنا فاشليْن كما نعتقد! «خالد» كان يكذب علينا.

أغمضت عينيها بينما سطع الدمع ف عينيه وهو يراقب استسلامها لإغماءةٍ غشيتها رغمًا عنها.

***

وُضِع مقعدٌ لـ «فادي الموافي» قريبًا من طاولة فريد، ليقوم هو بدور شريك النِزال، العدد فرديٌّ ولم يتبقى شريكٌ آخر سوى سيد اللُعبة.

جلس فادي بشغفٍ كبيرٍ وحماسٍ لا يُضاهى، وارتدى القفاز المتبقي، وبابتسامةٍ عريضةٍ مال للأمام قائلًا بنبرة فحيحه المشهورة:

- كالعادة يا فريد.. وحيدًا.

يبدو أن هذا النِزال من نوعية المباريات التي تنتهي سريعًا وبلكمةٍ واحدة وفي الثواني الأولى منها، فلقد قفز المؤشر سريعًا بينما انكمش فريد على نفسه متراجعًا للخلف، نظرات فادي نحوه برغم ابتسامته الواسعة إلا أنها كانت مُخيفة!

ولقد حصل على رد الفعل المثالي وأخذ يراقب صدر فريد وهو يعلو ويهبط بينما يطبق شفتيه بقوةٍ لا إراديًا ويتعرق وهو يستمع إلى استطراد فادي المتحمس:

- هل تذكر بلدة «سايلم»؟ بيتٌ كبيرٌ وحديقةٌ يحسدك عليها كل الأطفال.. وقبو!

تراجعت الدماء في جسد فريد تاركةً وجهه شاحبًا مصفرًا، متسع العينين وفادي يستكمل حديثه الشيق:

- أعلم بأنك صاحب فكرة الطفل المحبوس بقبو منزله، في الحقيقة هي ليست فكرة، إنها حقيقة، وأنت ذاك الطفل!

همس فريد مُنكِرًا:

- لا!

مال فادي برأسه يمينًا زامًا شفتيه متحسرًا:

- امممم... سمعتُ أيضًا أن زوجة أبيك كانت مختلةً عقليًا وأنك هربت منها عدة مراتٍ ووجد الناس على جسدك آثار تعذيبٍ وكدمات ولكنهم كانوا يُرجِعونك إليها قسرًا في كل مرة ويُكذِّبونك.

صرخ فريد غاضبًا عند آخر كلمة نطق بها فادي:

- لا تزِدْ!

وجهه مشتعل، عيناه متقدتان بالنيران، لكنهما زائغتان بتشتت، لا ينظر باتجاه أحد بعينه، نظراته سابحةٌ في الفراغ، إلى حيث اللا أحد!

لم يستطع أكرم أن يتحمل، هتف وكل خليةٍ به ترغب في أن يتوقف كل هذا البؤس:

- لماذا تفعل كل هذا بنا!

لكن فادي تجاهله، لم يلتفت إليه ولا حتى لخالد المُطرق برأسه أرضًا، ما زال يركز كل طاقته نحو فريد وتابع:

- لماذا هربت وتركت أخاك الأكبر وحيدًا معها؟!

أطبق فريد شفتيه وابتلع غصةً مؤلمةً وقد أجبرته عيني فادي على النظر إليه، كان يحاصره بالنظرات، حتى حبس عينيه في اتجاهه فقط، لم يستطع فريد الكلام بينما فادي لم يكن ينتظر منه إجابة، لأنه سيجيب بالنيابة عنه:

- لقد استغللت صغر حجمك واستطعت التسلق والعبور من النافذة، ونسيت أنك تركت خلفك من سيتعذب ضعفين بالنيابة عنك.. خرجت ولم تعد!

همس فريد:

- عمي أخذني وهرب على مصر، خاف يقع في مشاكل مع أهل البلدة..

قاطعه فادي بنبرةٍ قوية وقد انتفخت أوداجه فخرًا:

- أنا لا ألومك.. لقد أسديت إليّ صُنعًا عندما تركتني معها، أنظُر إليّ، قارن بيني وبينك، أنا من يُصفدك الآن، أنا الحاكم هنا، أنا من يرتعش الجميع خوفًا من قراراته، بينما أنت ...

أنت مضطرب، ضعيف، مهزوز، أنت ما زلت حبيس القبو يا أخي، لا زلت قابع داخله، روحك هناك، حيث الرائحة العطنة، حيث الأحبال والأصفاد والظلام، أشباحه تسكنك، الأشعة الضئيلة القادمة من بين قضبان النافذة المرتفعة، أصوات الناس من بعيد، مواء القطط ونباح الكلاب، أنت في ماضيك حتى هذه اللحظة.

سكنت نظرات فريد، المؤشر بات يتحرك ببطء، تكور على نفسه في جلسته وهو يهمس:

- أنا خرجت من سنوات.. لكنك لا زلت هناك!

مال فادي للأمام يبادله الهمس بهمس:

- أنا أيضًا خرجت.. بعدك بعدة سنوات، لكني خرجت أقوى. كما سبق وأخبرتك عندما زرتك في شقتك.

بادله فريد النظرات فأومأ له فادي مُحييًا، لقد لعب دوره ببراعة!

نزع القفاز ونهض واقفًا، لقد شعر بالسأم، لا يحب هذا الشعور، بل لا يحب الشعور مطلقًا!!

وقف أمامهم بملامحَ جامدةٍ يراقب نظراتهم المندهشة الصامتة، دقيقة يتشرب بها عجزهم وجهلهم ويقتات عليها حتى بدأت ابتسامته الثلجية في العودة من جديدٍ ببطءٍ حتى اتسعت وملأت وجهه وقال:

- أعلم، الجهل بما يدور مؤلم، والتخبط في الظلام أشد إيلامًا، وبما أن الاختبارات انتهت فلا حاجة لي بالمزيد، سأخبركم..

ترك عبارته مُعلقةً لثوانٍ تدور عيناه بينهم كطفل يقف أمام عدة دُمًى لا روح فيها ليختار من بينهم دُميةً تناسبه، وعندما اكتفى من تعذيبهم قال شارحًا:

- أخبرتكم من قبل أن والدتي من بلدة «سايلم» الأمريكية وأن والدي سعوديٌّ.

فرك كفيه بحماس وهو يستكمل:

- حقيقة أنا كذبت قليلًا، ولكن ليس تمامًا، فهو لم يكن والدي، الحكاية بدأت عندما جاءتني أمي ذات يوم لتخبرني بأنها ستتزوج رجلًا مُسلمًا ولديه طفل وأنهما سيأتيان للإقامة عندنا في البلدة، وقد كنت أنا مراهقًا في الخامسة عشرة من عمري، ورغم ذلك وافقت ورحبت بهم وقمت برعاية ذاك الشقي.

توقف عن فرك يديه ونظر تجاه فريد كأنما يكشف خبرًا سعيدًا وقال:

- ذلك الطفل كان من زوجته المصرية المتوفاة ولم يكن يتجاوز عامه السابع بعد عندما خطا بقدمه الصغيرة داخل بيتنا في البلدة لأول مرة!

وفتح ساعديه رافعًا كتفيه بقلة حيلة متابعًا:

- وكما تقول الدراما العربية، لعامين عاشوا في تباتٍ ونبات، لكن للأسف لم ينجبوا على الإطلاق لا صبيانًا ولا بنات، كثرت المشاكل بينهما عندما علم أن زوجته تمارس طقوس السحر ككل نساء البلدة، ولكن في الخفاء.

وقرر الزوج الرحيل، ثم اختفى ولم يعثر أحد عليه وكأنه تبخر في الهواء!

أعاد كلتا يديه خلف ظهره وهو يسألهم بصدق:

- أنا أعذرها، امرأة تزوجت برجلٍ بغير ديانتها كرست حياتها معه لسنواتٍ قامت على رعاية ابنه الصغير وفجأةً قرر هجرها.. ماذا ستفعل؟!

بدأ يتحرك بخطواتٍ بطيئةٍ جيئةً وذهابًا مستكملًا دون انتظار إجابة:

- أصابتها لوثة عقلية، قتلته وادَّعت بأنه اختفى ودفنت جثته أسفل القبو، وباتت تمارس الطقوس هناك ليل نهار.

توقف ونظر إليهم يستشيرهم وهو يحك ذقنه الحليق، ثم لمعت عيناه وهو يشير إلى فوديه قائلًا بابتهاجٍ مفاجئ:

- ولم تكتف بهذا، بل قررت أن تقدمني أنا وذلك الصغير للشياطين كي تُتم طقوسها، أنا أفهم أن تفعل هذا بابن زوجها، لكن لماذا تفعله بي أنا؟! حينها الأمر مُحير بالنسبة لي!

***



الحقيقة

الغروب.. انتهت الاختبارات وانتهى الحفر وحان وقت الحقيقة، وأُضيئت الشاشة العملاقة أخيرًا وظهر عليها مقطعٌ يُظهر مجموعةً من الرجال يتحلقون في حلقةٍ كبيرة ويرتدون المعاطف الواسعة التي تُخفي وجوههم بينما النار تشتعل في حلقةٍ معدنية في المنتصف ويصعد منها دخانٌ أسودُ كثيفٌ ينبعث من أجسادٍ تحترق لنساءٍ صارخاتٍ مقيداتٍ بالحبال.

حينها أوقف «فادي» العرض وقال مُعلقًا:

- في عام 1692 ظهرت طائفة تسمى المتطهرين، قاموا بمذبحة قضوا على كل مشعوذات «سايلم» وقاموا هم بعدها بتولي أمور التواصل مع أرواح الموتى من كل عام، يخرجون في حلقات كهذه اليوم الأول من نوفمبر من كل سنة ويبدؤون الطقوس حول النار في التواصل مع أحبائهم الذين ماتوا.

مع الوقت أصبحت «سايلم» بلدةً متحضرةً مثل كل البلدان من حولها ونسى الناس قصة المشعوذات والمتطهرين.

لكن هذا ما كان يظهر للناس للعلن فقط، أما في الخفاء فلقد توارثت طائفة المتطهرين معتقداتهم ونقلوها إلى أبنائهم وأحفادهم، خاصة بعدما علموا أنهم لم يقضوا على جميع المشعوذات؛ فمنهن من هربت من البلدة حتى نسي الناس أمرها، ومنهن كانت إحدى جداتي لأمي، وعن طريقها عبرت فنون السحر إلى أمي من بوابة خلفية.

لكن جنونها جعل جماعة المتطهرين يسمعون بها أخيرًا وجاءت لحظة الخلاص!

أعاد تشغيل شاشة العرض مرةً أخرى لتظهر مقاطعَ جديدةٍ لتلك المجموعات يجلسون لكن هذه المرة في دوائرَ صغيرة، كل مجموعةٍ منهم بها شخصان فقط، يظهر الجميع في حالة بكاءٍ وخضوعٍ وانهيارٍ كبير، يضربون وجوههم وصدورهم حتى يُغشى على أحدهم.

أوقف «فادي» العرض مجددًا قائلًا:

- هذه هي جلسات التطهير، الإنسان عبارة عن عقلٍ وجسدٍ وروح، ولكي تتسامى الروح وتعلو فوق ماديات الزمان والمكان يجب أن يتم تطهيرها، يجب أن تخضع لجلسات التطهير تلك التي خضعتم لأهمها كي تتخلص من ماضيها المؤلم وذكرياتها البائسة؛ لتطفو!

حينها هتف أكرم ساخرًا وقد كان أول من خرج من حالة الذهول التي ضربتهم جميعًا:

- وماذا تريد منا الآن؟

تقدم فادي نحو طاولة أكرم ومال نحوه قائلًا بهدوء:

- ومن قال إن الحديث يتضمنك يا صديقي!

التفت إلى حارسيه فتقدما نحو طاولة أكرم وغرس أحدهما حقنةً في جانب رقبته، كان كل شيءٍ مُعدًّا بإتقان، لقد درسهم جيدًا ويسبقهم دائمًا بخطوة!

كان يصرخ ويحاول تخليص نفسه لكن أصفاده منعته، وتأثير المخدر بدأ يغزو عقله ويغطيه.

ابتلع البقية ريقهم وهم يشاهدون أكرم محمولًا على الأكتاف العريضة، وتوقعوا أن يصعدا به للأعلى، لكن إشارة فادي كانت واضحةً للرجلين، فُتح الباب الحديدي الضخم وخرجا من خلاله.. إلى الصحراء!

شعر مازن بغليان يملأ صدره فأخذ يهتف مناديًا على أكرم ويبكي، ثم ينظر إلى فادي ويتذلل له ليعفو عنه ويتركه، لكن نظرات فادي مصمتة، كأي قاتلٍ محترف!

حاولت دارينِ التي استفاقت من غيبوبتها منذ بداية العرض قول أي شيءٍ لتعضد موقف مازن لكنها خافت، ارتعبت، من يعترض فمصيره معروف، سيلحق بأكرم!

أومأ فادي برأسه برضًا كبيرٍ وهو يشير إليهم قائلًا:

- هكذا هم أبطالي.. يتعلمون الدرس سريعًا، يفهمون العِبرة، يُدركون مصلحتهم جيدًا، ويعلمون من أين تؤكل الكَتِف.

وأشار إلى فريد مُلقيًا أوامره:

- فريد هو قائد المجموعة من اللحظة، اعذروني فهو أخي وأنا أثق به..

وضحك عاليًا بينما انكمش فريد أكثر، ليس لديه أي قوةٍ على الاعتراض، فادي منذ اللحظة الأولى لهما معًا في بيت واحد وهو القائد المسيطر، يأمر فيُطاع، حتى وهما في القبو، كان يُجلد بالسياط فيكتم ألمه في البداية، ثم بدأ يعتاد الألم ثم بدأ يضحك مع كل ضربة سوطٍ تشق جسده.

كان يخافه حتى وهما مقيدان مثل بعضهما البعض ولا حول لهما ولا قوة.

ربما لذلك عندما هرب لم يعد لينقذه!

وربما لذلك أيضًا كان يضع اسمًا مستعارًا بخلاف اسم أبيه على أغلفة كتبه، لم يكن يتخيل أن كتابًا للأطفال باللغة العربية سيقع بيده ويتعرف إلى ملامحه في الصورة المصغرة بالخلف ويختاره.

عندما فوجئ به داخل شقته، كاد يبتلع لسانه من فرط الخوف، لقد عرفه من الوهلة الأولى، وتوقع أن أبواب الجحيم قد فُتحت بعد كل هذه السنوات.

كان كشيطانٍ عاد من الجحيم لينتقم ممن هربوا وتركوه هناك يحترق وحده!

منحه كل المعلومات التي أرادها بكل يسرٍ وسهولة، هو من رشح له مازن وأكرم وخالد، ودارين فمواصفات فادي تنطبق عليهم، لا عائلة، لا تدين، لا مبادئ رنانة حقيقية، كان يريد أشخاصًا لديهم موهبة وفي نفس الوقت وحيدين للغاية، متمرغون في وحل النفاق.

بالإضافة إلى أنهم جميعًا شاركوا ضمن الحملة التي بدأتها «دارين» في مهاجمة كتابه وبسببها تم سحبه من الأسواق

وبعد يومٍ واحد، عاد إليه فادي وقد حصل على الكثير والكثير من المعلومات حولهم، حتى عائلة خالد الذي كان يخفيها عن الأضواء استطاع الوصول إليهم عن قرب.

لا بأس، لقد أحب فادي شخصيته الوصولية للغاية، يشبهه إلى حدٍ بعيد، ويراهن عليه كثيرًا!

تواصل معه بسهولة، وعندما التمعت عيناه وفادي يعد له مزايا الانضمام له، علِم بأن ترشيح فريد له كان في محله.

***

النهاية

تسلط شعاع الشروق الأول على عينيها المغمضتين مخترقًا لهما بإزعاج جعلها تكف عن الاستلقاء على ظهرها وتستدير مانحةً النافذة ظهرها، وقد بدأت تستيقظ للتو من بين أجنحة كوابيسَ ظلت تلاحقها طوال ساعات نومها التي لا تعرف متى بدأت ولا كيف انتقلت إلى فراشها هذا، ولكنها تعلمت ألا تشغل نفسها بتلك الأسئلة التي لا إجابة لها فهي ليست المرة الأولى!

الأشعة تُزعجها ربما لكثرة مكوثها بالظلام، الرؤية الشديد مزعجةٌ كالعمى تمامًا!

آخر ما تذكره هو وجبة العشاء الدسمة التي عوضهم بها فادي عن بقية الوجبات الفيسبوكية، وأقراص المضاد الحيوي والعصائر غريبة النكهة واللذيذة لدرجةٍ لا توصف، لأول مرةٍ منذ دخولهم يتناولون طعامًا حقيقيًا عدى، فريد بالطبع!

وآخر ما سمعته بينما جفونها تتثاقل هو صوت فادي وهو يخبرهم بأن رحلتهم الأولى قد انتهت.



هل حقًا فقدت خنصرها الحبيب؟ هل حقًا مات أكرم؟ هل حقًا هي مجبرةٌ على الانضمام لتلك الطائفة؟

لقد شرح لهم فادي بأنها ليست ديانة، هي أشبه بالفلسفة وعلم الروح فقط؛ ودليل ذلك أنها ليس لها شعائر ولا كتاب سماوي ولا عقيدة.

- صباح الخير.

انتفضت جالسة ملتفة إلى اتجاه النافذة مجددًا حيث الصوت، ارتطمت نظراتها الخائفة بنصف وجهه حيث لم يكن يمنحها إلا النصف فقط، بينما الآخر ينظر من النافذة متطلعًا للجبال بالخارج ويتابع دون أن يوليها وجهه كاملًا:

- أعتذر عن دخولي دون إذن.

هتفت حانقةً ربما من شدة خوفها:

- ماذا تفعل هنا؟!

ضم كفيه أسفل ذقنه مستخدمًا أسلوبًا يابانيًا مهذبًا وقال:

- كانت نيتي طيبة.. صدقيني.

صمتت تراقبه عن كثب، ضائعةً مُشتتة، تخاف نظراته على رغم برودتها، شيء ما بها يُنذر بنذير شؤم، هذا الرجل لم تره يجلس سوى مرةٍ واحدة، دائمًا جسده منتصبٌ كلوح الزجاج، إنه حتى لا يستند إلا نادرًا عندما يريد التهديد فقط!

- كنتِ تفكرين في مسألة الطائفة.. صحيح؟

لم يكن يسألها، كان يخبرها، مما جعلها ترفع حاجبيها بدهشة، هل كانت ضربة حظ منه أم هو توقُع فقط!

وقالت متلعثمةً بارتباك:

- تخمينك خاطئ.

مط شفتيه وملأت الابتسامة وجهه واقترب منها خطواتٍ قبل أن يتوقف بجانب الفراش، الأشعة تنعكس على رأسه من الخلف وتحيط به هالة برونزية لامعة، قال بمرحٍ مستخدمًا نفس التعبير الذي دار برأسها كلما رأته:

- الرجل الميتالك.

شهقت دارين متراجعةً زحفًا للخلف دون أن تغادر الفراش، فقط تبتعد عنه وعيناها تصرخ بسؤال «كيف عرفت؟!»..كان هذا بينها وبين عقلها فقط!

أجابها على الفور بإيماءة من رأسه واثقةٍ ثم سار قليلًا مبتعدًا عن النافذة وهو يقول ببساطة:

- لا تُجهدي عقلك الجميل في البحث عن إجاباتٍ بشأني، دعينا نتكلم فيما أتيت من أجله.

حاولت منع أفكارها من شتمه مبتلعةً ريقها بصعوبة، إنها ما زالت متألمةً مُرهقةً مبتورة الإصبع، فوق ذلك مُحتجزةً لا تعلم أي شيءٍ عن مصيرها.

- عرفت أنكِ تبادلتِ نظراتٍ مع مازن بالأمس وهمستِ له بأن تتظاهرا بالموافقة حتى تخرجا من هنا وبعد ذلك تتجهان إلى الشرطة.

انتفض قلبها يريد الخروج من بين أضلعها هربًا، لقد أيقنت من قدرته على قراءة الأفكار!

خاصةً عندما واصل حديثه الهادئ:

- للأسف.. لقد استيقظت متأخرةً يا عزيزتي، فلقد كنت في زيارة لغرفة صديقنا مازن، وأخبرته بأنني أعرف مخططكما، وحقيقةً لا أدري لماذا ظننتماني ساذجًا إلى هذا الحد؟

حروفها ضاعت وشعرت بالدموع تنغز حدقتيها. لا شيء ينفع على الإطلاق، هذا الرجل ليس ساديًا فحسب، ولا ينتمي إلى جماعةٍ غريبةٍ وحسب، هذا الرجل به شيءٌ مخيف، شيءٌ خارقٌ للعادة!

***

استلقت على الفراش كما أمرها، واتبعت تعليماته حرفيًا.

أغمضت عينيها، وبدأت أذناها تلتقطان نغماتٍ هادئةً منبعثةً من مكان ما بالغرفة تنساب إلى أذنيها، بينما يتسلل صوته الهامس معها:

- أنا أعرف ما يدور بداخلك، لكني أريد أن تبوحي، هذه المرة الأخيرة التي ستواجهين بها الماضي، بعدها ستصبحين مثلي، لن تتحرك مشاعرك قيد أنمُلةٍ عند مواجهته لأي سبب، وستُشفينَ من ألمه للأبد.

والآن، أرخي جبينك وجفنيكِ وعندما تشعرين باسترخائهما حركي سبابتك اليمنى.

فعلت ما أمرها ولكن بصعوبة، حاولت تنظم أنفاسها، حاولت التركيز على أوامره، مرت دقائق لا تعلم عددها، وهو صامتٌ، صبورٌ، لا يبدو حتى أنه يتنفس!

حتى حصل أخيرًا على حركت سبابتها فهمس ثانيةً:

- والآن، أرخي يديك وبطنك وقدميكِ، استرخاءً كاملًا.

دقائق أخرى لم يقاطعها، متصلبٌ كتمثالٍ رخامي، يراقبها فقط عن كثبٍ حتى حركت سبابتها ثانية، فقال ببعض الحزم:

- جبينك انعقد ثانية، خذي وقتك، تعلمي أن لا تقولي نعم إلا وأنتِ تعنيها.

أخذت كل الوقت اللازم حتى شعرت بالاسترخاء الكامل لجميع بدنها لدرجة أنها لم تستطع تحريك سبابتها، وهو لم يكن في حاجة لذلك. لقد علِم أنها وصلت للمكان الذي أراده تمامًا، وهمس:

- الآن اركضي في الأحراش التي ظهرت أمامك. اركضي حتى تجدي الطفلة.

لم تكن ترى على الإطلاق، فقط تشعر أنها تقف على أرضٍ صلبة، بينما الضباب يُحيط بها من كل جانب، محاصرةً بالأبيض الكثيف. فقط تسمع خرير ماء، يبدو أن هناك جدولًا قريبًا منها، يختلط به أصواتُ لحفيف أوراق تتساقط.. عجيبةٌ تستطيع تمييزها، ليست أوراق شجر، إنها صفحاتٌ لمسودات محترقة!

تسلل صوته ثانية يأمرها:

- تحسسي خطواتك نحو الجدول.

سارت ببطءٍ خائفةً مترددةً حتى شعرت بشيءٍ ما يصطدم بأصابع قدميها، وهنا شعرت بلمسةٍ وكأنها يدان تحيطان بخصرها وجسدٌ ما يلتصق بها من الخلف، انتفض جسدها لكنها لم تجرؤ على فتح عينيها، لمسة أخرى بين حاجبيها تلمس جبينها دائريًا ببطءٍ لتعود وتسترخي مجددًا وصوت فادي يطمئنها:

- لا تخافي، تلك ذكرياتك القديمة.. استرخي.

هربت دمعتان من بين جفنيها تحفران على جانبي عينيها خطين مستقيمين في رحلةٍ سرمدية نحو الوسادة في الجهتين.

نهضت واقفة، وانتظمت أنفاسها، تابعت سيرها نحو الجدول، ورفعت قدمها لتخطو فوق ذلك الشيء الذي يُعيق حركتها لكنه كان مرتفعًا جدًا وهي لم تكن مستعدةً، فسقطت، وبينما هي تسقط دفعت كلتا يديها للأمام حتى لا يرتطم وجهها، آلمتها يداها للغاية من أثر السقطة وسمعته يقول لها:

- لا بأس، لقد صُنعت السقطات لنتعلم منها كيف ننجو في المرات التالية.. ولقد عبرتي على أية حال.

لم تتوقف عن البكاء وكذلك عن السير، ولكن بحذرٍ أكبرَ هذه المرة، فجاءها صوته المبتسم:

- نعم، هكذا.

بدأ الضباب في التلاشي رويدًا رويدًا، ومعالم الغابة تتضح، الأشجار الكبيرة والطويلة للغاية تُحيط بها في دائرة، وهي في المنتصف كقزمٍ أخرقَ يدور حول نفسه حتى شعرت بالدوار، رائحة الاحتراق تزكم أنفها، أطرقت برأسها لتتماسك فالتقطت عيناها أريكةً خشبيةً قريبةً يتناثر فوقها وحولها أوراق الخريف المتساقطة المصفرة، ووجدتها.. فتاة يبدو أنها في الرابعة عشر من عمرها ضئيلة الجسد، تجلس على الأريكة وتحمل سلةً بها كرات ملونة تنظر لها بحزن واستكانة.

وسمعت فادي يأمرها ولكن هذه المرة مشجعًا:

- اجلسي بجوارها واسأليها عن الكرات.

جلست دارين جوارها فنظرت إليها الفتاة نظرات ضائعة، إنها فتاة لكن ملامحها أقرب لطفلة، طفلةٍ تفتقد للأمان.. همست دارين تسألها:

- لمن هذه الكرات؟

اغرورقت عينا الفتاة بالدموع دون مقدمات، تحاول كبح دموعها لتبدو قويةً لكنها في النهاية استسلمت، تَظاهُرها دائمًا بائس مكشوف وقالت بنبرةٍ يملؤها الوحدة وهي تتناول الكرة الحمراء من السلة:

- إنها أسوأ ذكرى مرت بي..

- وما هي؟

فتحت الفتاة فمها لتجيب، لكن دارين شهقت عاليًا وأدارت وجهها للاتجاه الآخر برفضٍ لما ستسمعه، صمتت الفتاة وتكلم فادي:

- الفتاة تريد البوح، اتركيها تبوح واقتربي منها أكثر.

اختلج قلبها يرزح أسفل ذكرياتٍ مؤلمةٍ وارتفعت غصةٌ تقف عرضيًا بحلقها فتنغزه بقوة، مختنقةٌ رافضةٌ لكنها مجبرةٌ على تنفيذ أوامره، وتكلمت الفتاة بوحًا:

- هناك.. في الصالون.. كنت أفقد براءتي مرةً بعد مرة.. كل مرة كنت ألجأ لأمي وأحكي لها ما يحدث لي لم تكن تصدقني.. تجذبني من يدي وتُعيدني إلى الصالون مجددًا وتقوم بغلق الباب من خلفها وتنعتني بالفاشلة التي تتهم أستاذها بالكذب والزيف حتى لا تستذكر دروسها، وأنني [illegible]لة، وأغلقت أذنها وعينيها عن كل شكوى.

عامان من القرف العذاب حتى انتهيت أخيرًا من الشهادة الإعدادية وولجت مرحلةً جديدةً تمامًا، تعلمت بها كيف أدافع عن نفسي، تعلمت الشراسة، لكنني كنت أضبط مشاعر كرهٍ بداخلي تجاه ذاتي وأنوثتي وأمي دون سبب.

أنهت ذكراها الأولى وتركت الكرة تسقط من بين أصابعها منحدرةً نحو الأرض تجري على غير هدًى حتى اختفت، تناولت الفتاة الكرة الزرقاء والتفت إلى دارين تحكي:

- سمير يوسف!

نطقت الفتاة الاسم ساخرةً بازدراءٍ وكأنها تتفله لا تنطقه، وتابعت:

- أخصائي العلاقات الناجحة.

أطرقت دارين برأسها، نعم هكذا كان اسم صفحته على مواقع التواصل.

- بعدما تخرجت من الجامعة كنت أتابع كل كلمةٍ يكتبها بشغفٍ كبير، كان يتحدث عن المساواة بين الرجل والمرأة وأن الفتاة عليها ألا تسمح لأحدٍ أن يكسر حدودها وأن تنجح وتعيش لبناء شخصيتها كيفما شاءت.

صفحته كانت متخمةً بالتعليقات من الفتيات اللاتي تشكرنه؛ لأنهن وجدن أخيرًا من يتكلم بلسانهن ويدافع عن قضاياهن.

أرسلت له أكره مثلهن وأطلب منه أن يوجهني ويساعدني في الوصول لطريقةٍ أستطيع النجاح بها وحدي وتحقيق ذاتي دون مساعدةٍ لأنني وحيدةٌ في الدنيا.

التفتت دارين بطرف عينها إلى الفتاة فوجدتها ما زالت تحتفظ بملامحها الساخرة وهي تُردف:

- وبدأ يراسلني يوميًا وقد أخذ على عاتقه مسؤوليتي، ينظم لي يومي ويُرشح لي كتبًا أقرؤها وبعد شهورٍ من المراسلات وقد اعتدت على وجوده بحياتي طلب في أحد المرات أن أرسل له صورتي ليستطيع تحليل شخصيتي أكثر من خلال ملامحي.

للمرة الأولى أشعر بأنني لي أهمية، وبأنني مميزة، وبدأت مشاعري تتحرك تجاهه، عندما طلب مني زيارته في المركز الخاص به، وافقت على الفور.

وهناك.. قابلت مستر مُسعد ثانيةً، ولكن هذه المرة بملامحَ مختلفٍ وبطريقةٍ مختلفةٍ وبهيئةٍ مختلفة.

وسقطت الكرة الزرقاء واختفت كالحماء تمامًا بين الأشجار بعيدًا عن الأنظار.

وانكمش جسد دارين تلقائيًا وظهر على وجهها الاشمئزاز والتأفف والخوف وانعقد حاجباها، عادت سبابة فادي إلى نفس النقطة من جبهتها يدلكها ببطء حتى استرخت من جديدٍ وعادت إلى سيرتها الأولى، فأمرها أن تسألها عن الكرة السوداء الأخيرة، انهمرت الدموع من مقلتيها كشلالٍ يضخ على الجانبين مُغلِقةً عينيها بقوةٍ وهي ترى الفتاة أيضًا تبكي ويعلو صوتها بالبكاء، نشيجهما علا حتى اختفى خرير الماء ولم يعد له وجود.

خالد.. كلما رددت اسمه يؤلمها صدرها؛ دقات قلبها مؤلمة، أضلعها تشعر بها تتكسر، ضخ الدماء في شرايينها كالنار تسري في الهشيم، كل منهما تُمسك بصدرها والنغزات عذابٌ فوق عذاب، خرجت منهما آهةٌ عميقةٌ من بين جدران جرحٍ عميق.

تدخل فادي في الوقت المناسب، أمرها بأن تقترب أكثر من الفتاة وتحتضنها بقوة، فعلت دارين على الفور، كانت هي التي تحتاج إلى ذلك الاحتواء، ضمتها بقوةٍ إلى صدرها بينما الفتاة تهتز من شدة البكاء ودارين تلتقط ما يقوله فادي في تلك اللحظة وتخبرها به، بنفس طريقته ونفس لهجته:

- أنتِ آمنة.. أنتِ جميلة.. أنتِ تعلمتِ الدرس.. أنتِ لستِ مسؤولة عما حدث.. خالد وغد.. وسينال عقابه الرادع.

رفعت الفتاة عينيها إلى دارين بأملٍ جديدٍ عليها فأومأت لها دارين برأسها مؤكدةً عهدها بابتسامة تشع لأول مرةٍ بين ثغرها، وتناولت الكرة السوداء من الفتاة وألقتها بعيدًا فتوقفت الأوراق عن التساقط.

نهضت الفتاة مبتهجةً وأخذت تعدو بفرحةٍ وسعادةٍ وهي تُلوح لدارين بكلتا يديها وتُرسل إليها القبلات في الهواء.

فرقعةٌ من بين سبابة وإبهام فادي جعلتها تفتح عينيها وتنظر له بصدمة!

شفتاها جافتان ملتصقتان ببعضها البعض، عيناها متعلقتان به، بينما هو يومئ بها بوعدٍ واضح:

- وعدكِ هو وعدي.. فقط انضمي إليّ برغبتك الكاملة!

***

لم يغادر مازن فراشه، من بعد خروج فادي المبكر منها، مُتعبٌ، مُرهقٌ، مُمزّقٌ، كل هذه كلماتٌ لا تُعبر عما يشعر به من بعد الجلسة التي أجراها فادي عليه، تلك الرحلة التي أخذه إليها بين الأحراش ليواجه أشد أعدائه.. نفسه!

فلقد ذهب به إلى نفس الغابة التي أرسل إليها دارين، وطلب منه البحث عن الطفل، ووجده جالسًا أرضًا أمامه مرآةٌ ضخمةٌ ولا يفعل شيئًا سوى التحديق!

فقط يحدق إلى انعكاس صورته، عيناه متسعتان بذعرٍ كمن يُشاهد شيطانًا!

فعل مازن ما أمره به فادي، جلس أرضًا جوار الطفل واقترب منه ليستمع إلى هلاوسه التي يُكررها كالممسوس:

- بابا، لماذا لا تدعني ألعب مثل أصحابي. بابا، لا أريد التحدث مع نساءٍ لا أعرفهن. بابا، آسفٌ أرجوك لا تقص شعري لن أفعل مجددًا. بابا، لا تتركني وتذهب كأمي. بابا، لماذا لا تحتضنني؟

كان يُكررها ويُكررها ودون أن ينتظر مازن أمر فادي جذب الطفل بين أحضانه فتشبث الطفل به بقوةٍ وأخفى وجهه الصغير بين طيات قميصه وهو يبكي بشدةٍ وما زال يكررها:

- بابا، أنا المسؤول عن حزنك ولكن لا أعرف كيف؟

مرت دقائقُ طويلةٌ ومازن يرفض أمر فادي بترك الطفل حتى سمعه يهمس في أذنه:

- لا بد وأن تتركه يحرر الكرات يا مازن وإلا لن تُشفى أبدًا.

الكرات كلها صفراء باهتة، مستقرة في حجر الطفل حتى وهو بين أحضان مازن القوية.

منحه فادي صبره الذي لا ينفد وتركه يُشبع رغبته في الاحتضان حتى انتهى وبدأ يستجيب لهمسات فادي، ترك الطفل يبتعد عنه قليلًا وبدأ يسأله عن الكرات.

تناول الطفل الكرة الأولى قائلًا:

- استيقظت ذات ليلة وسمعت شجارًا عنيفًا يدور بالخارج، لا أعلم لماذا شعرت بالخوف وأجبرت نفسي على النوم مرةً ثانية، وفي الصباح لم أجد أمي في البيت وعندما سألت أبي، قال إنه لا يريد سماع اسمها في هذا البيت مرةً أخرى، فما هي إلا امرأةٌ ساقطةٌ أخرى وأنني أنا المسؤول عن كل ما يحدث!

سقطت الكرة وتدحرجت بعيدًا فتناول الثانية، وتأملها بألمٍ أكبر قائلًا:

- الناس، أصدقائي، الجميع كانوا يسخرون مني ومما يفعله والدي، لم يكن سرًا، الكل كان يعرف ماذا يفعل أبي وكيف يستغلني.

لحقت الكرة الثانية بالأولى وعندما تناول الثالثة ابتسم لها وظهر الحزن جليًا على ملامحه البريئة قائلًا:

- أكرم.. الوحيد الذي أحبني واهتم بي حقًا، كنت أحاول أن أمنحه ما يبقيه، لكنني اكتشفت بأنني كنت أنفره مني أكثر.. أكرم لم يكن يستحق ما فعلته به.

فرقعة أصابع فادي أيقظت مازن المتعرق، خافقه يضخ بقوة ومشاعر جمة تتعارك في صدره تصعد متحاربة ليختنق بها حلقه متذوقًا تلك الغصة المريرة التي لا يعرف غيرها، ونوبة بكاءٍ لا تنتهي، بينما فادي يقترب منه ويهمس له بحزم:

- **أنتَ لستَ مسؤولًا عن طيش والدِيْك، كلاهما مُذنبٍ وكلاهما سيدفع الثمن، وأكرم مثلهما تمامًا، لقد تخلى عنك وسينال عقابه، ستزهو الإعلانات باسمك، وسيرتفع نجمك، ستلهث الفتيات لرؤياك، فقط انضم إليّ برغبتك الكاملة.**

***

وكأول شروق له في هذا المكان، كان يقف خلف النافذة متأملًا، يراقب قوة أشعة الشمس يترقب لهيبها البعيد، ساعةً بعد ساعةٍ دون حِراك، يبدو أن حياته موشكةٌ على الاحتراق مثلها.

لقد عاش آمنًا، منزويًا، بعيدًا عن الناس، لم يتزوج حتى لا يضطر إلى الاختلاط بأحد، كان راضيًا بحياته هكذا، وعندما يتذكر ألمه يلجأ

إلى قلمه والأوراق، يندس خلف مكتبه ليخبئ أسراره بين السطور، حتى عمه الذي استطاع الوصول إليه وإنقاذه وهو طفلٌ من بين براثن زوجة أبيه، لم يحضر جنازته العام الماضي عندما سمع بخبر وفاته.

كان مُرتاحًا بعُزلته تلك، رغم هذان القطاران اللذان يسيران بداخله بشكل عكسي فيصطدمان ببعضهما البعض كل ساعة. قطار منهم يكره الوحدة، والآخر يبحث عنها ويشبث بها باستماتة.

يعلم بأنه يعاني اضطراباتٍ نفسية، لكنه أبدًا لن يذهب بقدميه إلى طبيبٍ نفسي، تلك شجاعة لا يملكها.

ثم ماذا سيقول للطبيب عندما يطلب منه أن يحكي عن ماضيه، هل سيخبره أن أمه كانت مهووسةٍ فجعلته يتعلق بها تعلقًا مرضيًا، هل سيصدق الطبيب أنه كان طفلا في الرابعة وما زالت أمه تحمله بين ذراعيها وترفض أن تجعله يمشي على قدميه حتى لا يقع ويرتطم ويُجرح رأسه، بينما والده يدّعي بأنه يفهمها لأنها فقدت قبله أربعة أطفال.

وهو لا يريد الدخول في عراكٍ معها أو مناقشتها، كانت أعماله أهم عنده من رؤيته لابنه الوحيد وهو يكبر معاقًا لكن والدته تربيه على أنه طفلٌ من ذوي الاحتياجات الخاصة! لماذا يُتعب رأسه إنه كثير التنقل بين البلدان لكثرة أعماله، فلماذا يهتم، إنه ولدها وهي حرة!

طفلٌ في الرابعة لا يعرف المشي، لا يعرف كيف يضع الطعام في فمه، ما زال يتبول في ملابسه، وهي سعيدةُ للغاية بأنه ملتصق بها. تحممه وتطعمه وتحمله من هنا لهناك وتنام ليلًا بجواره لأن والده الشرير المنشغل بإدارة أعماله الخاصة ليل نهار مصممٌ على أن يكون له غرفةٌ منفصلة!

وقبل عيد مولده الرابع بيومٍ واحد، ماتت أمه، تاركةً خلفها طفلًا، لا يفقه في الحياة سوى البكاء طلبًا لاحتياجاته ولا يملك مهارات طفل في عامه الثاني!

بكاء ودموع وهجر للنوم والطعام حتى أصابه الهزال، ليجد والده نفسه مع المسؤولية الملقاة على عاتقه، فبدأ يأتي له بمربيةٍ تلو الأخرى.

وأخيرًا حرك ساقيه وتعلم السير، وأخيرًا عرف مكان فمه وأين يوجد في وجهه بالضبط!

عامين كاملين تحسن فيهما كثيرًا، لكنه ظل متأخرًا عن أقرانه كثيرًا أيضًا.

وعندما أتم فريد السادسة وعدة أشهر، قرر والده اللحاق بأخيه الأكبر في ولاية أوريغون الأمريكية ونقل كل أعماله هناك، ووطئت قدماه بلدة «سايلم» التي تدور حولها أساطير الساحرات.

في شهر نوفمبر خرج حاملًا للشموع بصحبة زوجة أبيه الجميلة في طقسٍ ما لا يفهمه وبصحبة ابنها الأكبر فادي ساموبل.

قاطع ذكرياته المتدفقة كالشلال ذلك الصوت من خلفه وهو يقول مصححًا:

- والذي صار بعد ذلك فادي الموافي.

لو كان فادي ممن تُثار ضحكاتهم بسهولة لقهقه ضاحكًا عندما قفز فريد تلك القفزة العجيبة عند سماعه لصوته المفاجئ من خلفه، ولكنه للأسف كان يتوقع تلك الانتفاضة المُروعة فاكتفى بالابتسام قائلًا ببساطته:

- صباحُ الخير.

زفر فريد باستياءٍ محاولًا جمع شتات كرامته وأنفاسه، لم يكن في حاجة عن سؤاله كيف دخل بسهولةٍ هكذا، فهذه عادات فادي منذ أن كان يعيش معه في بيتٍ واحد، له خفة الفهد وسرعته بجانب قدرته على إرعاب طفلٍ صغير بينما هو يضحك بلا أي ذرة شفقة، لكنه في حاجةٍ لسؤالٍ آخر أهم، ولقد عبر عنه على الفور متسائلًا:

- كيف عرفت ما أفكر به؟!

فتح فادي كلا ساعديه ومط شفتيه مُدعيًا الحيرة وهو يجيب:

- دارين اعتبرتني قارئ أفكار.. هل تُصدق؟!

وكعادة أصحاب مرض ثنائي القطب وما يتبعه من أمزجة متقلبة استشاط فريد غضبًا، وهتف دون تفكير:

- ماذا تريد مني أيضًا، لقد نفذت دوري وقمت بكل ما أمرتني به، فمتى ستطلق سراحي؟

تجاهل فادي نوبة الغضب المستحدثة هذه وتقدم نحو فريد عاقدًا فيه خلف ظهره بهدوء متسائلًا:

- هل تذكر الوجبة التقليدية في بيتنا، سمك القد.. ها؟

تشتت فريد على الفور وهمس بنبرةٍ خشنةٍ لغضبٍ لم يذهب بعد:

- باكالاو.

أومأ فادي ضاحكًا بخفةٍ وهو يقول مؤكدًا:

- نعم .. الباكالاو.. ما زلت تتمتع بذاكرةٍ جيدة، هل تعلم أن هذه الوجبة يتم طهيها بثلاثمائة طريقة مختلفة؟!

توتر فريد وتساءل متلعثمًا:

- ماذا تقصد؟

وقبل عيد مولده الرابع بيومٍ واحد، ماتت أمه، تاركةً خلفها طفلًا، لا يفقه في الحياة سوى البكاء طلبًا لاحتياجاته ولا يملك مهارات طفل في عامه الثاني!

بكاء ودموع وهجر للنوم والطعام حتى أصابه الهزال، ليجد والده نفسه مع المسؤولية الملقاة على عاتقه، فبدأ يأتي له بمربيةٍ تلو الأخرى.

وأخيرًا حرك ساقيه وتعلم السير، وأخيرًا عرف مكان فمه وأين يوجد في وجهه بالضبط!

عامين كاملين تحسن فيهما كثيرًا، لكنه ظل متأخرًا عن أقرانه كثيرًا أيضًا.

وعندما أتم فريد السادسة وعدة أشهر، قرر والده اللحاق بأخيه الأكبر في ولاية أوريغون الأمريكية ونقل كل أعماله هناك، ووطئت قدماه بلدة «سايلم» التي تدور حولها أساطير الساحرات.

في شهر نوفمبر خرج حاملًا للشموع بصحبة زوجة أبيه الجميلة في طقسٍ ما لا يفهمه وبصحبة ابنها الأكبر فادي ساموبل.

قاطع ذكرياته المتدفقة كالشلال ذلك الصوت من خلفه وهو يقول مصححًا:

- والذي صار بعد ذلك فادي الموافي.

لو كان فادي ممن تُثار ضحكاتهم بسهولة لقهقه ضاحكًا عندما قفز فريد تلك القفزة العجيبة عند سماعه لصوته المفاجئ من خلفه، ولكنه للأسف كان يتوقع تلك الانتفاضة المُروعة فاكتفى بالابتسام قائلًا ببساطته:

- صباحُ الخير.

زفر فريد بأسىً محاولًا جمع شتات كرامته وأنفاسه، لم يكن في حاجة عن سؤاله كيف دخل بسهولةٍ هكذا، فهذه عادات فادي منذ أن كان يعيش معه في بيتٍ واحد، له خفة الفهد وسرعته بجانب قدرته على إرعاب طفلٍ صغير بينما هو يضحك بلا أي ذرة شفقة، لكنه في حاجةٍ لسؤالٍ آخر أهم، ولقد عبر عنه على الفور متسائلًا:

- كيف عرفت ما أفكر به؟!

فتح فادي كلا ساعديه ومط شفتيه مُدعيًا الحيرة وهو يجيب:

- دارين اعتبرتني قارئ أفكار.. هل تُصدق؟!

وكعادة أصحاب مرض ثنائي القطب وما يتبعه من أمزجة متقلبة استشاط فريد غضبًا، وهتف دون تفكير:

- ماذا تريد مني أيضًا، لقد نفذت دوري وقمت بكل ما أمرتني به، فمتى ستطلق سراحي؟

تجاهل فادي نوبة الغضب المستحدثة هذه وتقدم نحو فريد عاقدًا فيه خلف ظهره بهدوء متسائلًا:

- هل تذكر الوجبة التقليدية في بيتنا، سمك القد.. ها؟

تشتت فريد على الفور وهمس بنبرةٍ خشنةٍ لغضبٍ لم يذهب بعد:

- باكالاو.

أومأ فادي ضاحكًا بخفةٍ وهو يقول مؤكدًا:

- نعم .. الباكالاو.. ما زلت تتمتع بذاكرةٍ جيدة، هل تعلم أن هذه الوجبة يتم طهيها بثلاثمائة طريقة مختلفة؟!

توتر فريد وتساءل متلعثمًا:

- ماذا تقصد؟

زفر فادي بسأمٍ مجيبًا:

- لن تفهم أبدًا.

رفع فريد وجهه للأعلى يبادله السأم بسأمٍ أكبرَ والزفير بزفيرٍ أعلى، وعندما عاد بوجهه إليه يقترب منه ويقبض على حلقه ويدفعه للحائط من خلفه، عيناه ثلجيةٌ باردةٌ وحروفه مشتعلةٌ غاضبة:

- أسمع يا أخي، أنتم الآن ملكي، أنا فقط من يُقرر مصيركم، أنتم بالنسبة لي كوجبة سمك القد أطهوها بكل طريقةٍ ممكنةٍ لتنضج وتصبح جاهزةً للأكل، أنا قائد جماعتكم،

وأسماؤكم تم تدوينها في الدائرة العالمية للطائفة وانتهى الأمر، لا مزاح هنا.. أتفهم؟

أنهى فادي تهديده تاركًا عنق فريد دفعةً واحدةً لتعود الدماء إلى وجهه مجددًا، وابتعد خطوتين للوراء قبل أن يستعيد هدوءه المعتاد.

أما فريد فلقد كان متجهم الوجه يجهل نتيجة تلك المحادثة المخيفة، «فادي» ينوي الانتقام منه لتخليه عنه بالقبو، وبمجرد أن جالت الفكرة برأسه التقطها فادي وقال بأريحيةٍ نافيًا:

- لا، وعلى الرغم من كل العذاب الذي مررت به هناك وحدي، لكنني بشكل ما أدين لك بذلك التحول في شخصيتي، فلو كنت قد أنقذتني معك لما انضممت لطائفة المتطهرين ولما اختارتني الأرواح لتلك المهمة العظيمة

تجلت الحيرة على وجه فريد فقال فادي سريعًا:

- لا تشغل بالك، والآن هيا إلى القاعة، وهذه المرة دون أصفاد، وبعدها سأصحب ثلاثتهم في رحلةٍ قصيرةٍ وسنعود إليك قبل الغروب.

***

واقفًا بثباتٍ أمام أعينهم المنتظرة لما سيقول، تشابكت أصابعه من خلفه وقال بوقار:

- حان الآن وقت القصة.

- لكنك رفضت كل ما كتبناه!

قالها خالد وهو يعقد حاجبيه مستغرقًا في التفكير، كان هو الغافي الوحيد عما في غُرف البقية من حوله، كيف سيُدرك أي شيءٍ وهو يسكن ذاته فقط، يكرس لنفسه ولرغباته كل مشاعره وكل أوقاته، فهي الوحيدة من وجهة نظره هي من تستحق مجهوده.

ولقد أدرك فادي هذا منذ البداية، لذلك لم يكن بحاجة لجلسة مثلما خضع لها دارين ومازن، فهو على عكسهما تمامًا، لا يحتفظ بأي ذكرياتٍ مهما كانت سيئة، بل إنه هو بنفسه إحدى الذكريات السيئة للآخرين!

راقب فادي ملامحه الجائعة للفوز والشُهرة والنجاح وقال بنبرةٍ تشبه تلك التي نتكلم بها في الأحلام، حيث الصدى في كل مكان:

- القصة ستكون بعنوان «وادي عبقر».

تبادل النظرات معهم جميعًا ثم سار متمهلًا حتى وصل إلى مقعد فريد ووقف من خلفه واضعًا كفه على كتفه مما جعل فريد يقشعر مُنكمشًا، لقد شعر بلسعةٍ ما لا يعرف مصدرها، لكنه تماسك وعاد لسكونه مجددًا في اللحظة التي بدأ استرسال فادي:

- سنبدأها بمشهدٍ لسفينةٍ تشبه سُفن الفضاء، سفينةٍ يقودها مجموعةٌ من الأرواح المتمردة، لم يكونوا مجرمين، فقط كان لديهم فضولٌ نحو ذلك الكوكب الجديد، المُسمى بكوكب الأرض.

قائد المركبة الفضائية كان هو العبقري الأوحد، السيد، لذلك تبعته بقية الأرواح وقرروا الهبوط على كوكب الأرض معه لبرهةٍ من الوقت ليعلموا عنها ما يُشبع فضولهم ثم يعدوا إلى كوكبهم الأم مجددًا.

ولكن شيئًا ما حدث في أثناء الهبوط، انفجرت المركبة، وطارت الأرواح في كل الاتجاهات وسقطوا سقوطًا غير مدروس فوق الأرض، ليجدوا أنفسهم وقد وقعوا بداخل أجساد أهل الأرض القلّة حينها، حاولوا المغادرة، لكنهم عَلِقوا، لم يَجدوا منفذًا روحانيًا واحدًا، فالأجساد مثُقلة بالشهوات والرغبات الكثيرة، وسُجنت الأرواح للأبد.

لكنهم علِموا على مدار السنوات والعقود أن السيد لم يسقط مثلهم بداخل جسد أحدهم، لقد سقط داخل جبلٍ ما، جبلٍ على أطراف اليمن في وادٍ يُسمى وادي عبقر.

ومن الذي أعلمهم؟ فتًى كان يبلغ الثامنة عشرة، كان هاربًا من جحيم أمه. وكان قد ارتكب أول خطيئةٍ، وقتلها!

وانضم إلى طائفة المتطهرين، فلقد كانت تتوفر فيه كل الشروط، وأهمها هو الألم والخطيئة الكبرى، ولقد أثبت الفتى أنه كان يستحق ذلك الترشيح.

لقد كان نابغًا، في الألم، عبقريًا في التعذيب، سنوات وسنوات وبات رجلهم الأول، يجمع بين فنون السحر التي تعلمها على يد والدته وبين انتمائه للمتطهرين وموهبة في التواصل مع الأرواح.

حتى جاء اليوم ووقع الاختيار عليه، لقد اختاره سيد الأرواح للتواصل معه. هناك مهمة محددة لا بد وأن ينهيها، فعلى عاتقه تقع مهمة لو أتمها لتحررت كل الأرواح العالقة.

وذلك لن يحدث إلا بعد أن يُدربوا البشر على طريقةٍ تسمو بها أرواحهم لتتطهر، وعندها ستكون الأرواح حُرةً كما كانت.

لكنهم لن يُغادروا الأرض، سيبقون هنا، سيحكمونها، تحت قيادة العبقري الأول.. ساكنِ جبل وادي عبقر.

نعم سينهض قريبًا وسيخرج، وسيحكم العالم، ولكن هناك ثمنًا لا بد وأن يُدفع!

والثمن هنا أن تكون الأُضحيات بكامل رغبتها، بلا سِحرٍ وبلا إجبار، بلا دين!

وبطل قصتنا هو المسؤول الأول عن تنفيذ تلك الشروط، وله تفويضٌ كامل!

وعندما يحدث، وقتها فقط، سيخرج قائدها الأول، يرفع رايته ويصير الحاكم الأوحد، لنعود إلى عصورنا الأولى، عصور الأبدية والنور!

***

نفقٌ لم يروه من قبل، ولجوا إليه بعدما فتح لهم فادي بابًا مموهًا جوار شاشة العرض الكبيرة لا يمكن تفرقته عن الجدار الملاصق له.

حثهم فادي على السير في النفق القصير حتى واجههم بابٌ آخر لكنه حديدٌ صدئ، فتحه أحد الحراس بصعوبةٍ بالغةٍ بينما يصدر صريرًا يشبه الأنين وكأن وحشًا ما يتألم!

عبروا للداخل كما أمرهم ومروا بنفقٍ آخر حتى وصلوا إلى مكانٍ يشبه الغرفة، قاعةٍ أخرى كقاعتهم الأولى لكن هذه أكثر ظلمةً وجدرانها محتلةٌ بالكامل ببيوت العناكب والعفن الذي اخضرَّ لونه منتشرًا فوق الجُدر، وتلك الرائحة العفنة وكأنهم يقفون في إحدى بالوعات الصرف الصحي!

رحب بهم بابتسامةٍ واسعة، ويمر بنظراته قارئًا لما يدور خلف ملامحهم قائلًا بسعادة:

- مرحبًا بك بقلب جبل حرفة.

دارين ذات الوجه الشاحب والملامح القاتمة تُخفي خلفها ذهولًا ما زالت تعانيه في كل خطوة تخطوها.

مازن الذي يقف جوارها لم تتبادل معه كلمةً واحدة، ولا حتى مجرد فكرة، فلقد أيقنا بأن فادي يجلس بداخل عقليهما يشرب الشاي معهما!

كانوا يقفون في المنتصف تمامًا بينما يقول فادي معترفًا:

- أعتذر بشدةٍ فالمكان المقصود هو جبل حرفة وليس وادي عبقر كما سنكتب في قصتنا المشتركة، بعضٌ من التمويه يكون ذا نفع!

وفجأة أشار فادي إلى أحد حارسيه فخرج على الفور وعاد بعد ثوانٍ قليلةٍ لكنه لم يكن وحده، لقد كان يجر خلفه سلسلةً حديديةً طويلةً مُقيدٌ بها آخر من تريد دارين رؤيتهم في هذه اللحظة!

أشار فادي إليها وقال موجهًا حديثه للرجلين المُقيدين:

- دارين.

واقترب من الرجل أشيب الشعر وقال له وهو يُشير إليها:

- الفتاة التي كنت تعبث بجسدها في صالون بيتها، وكنت تقنع أمها بأنها فاشلةٌ كاذبة ترسب في جميع اختبارات الدرس الخاص لهروبها الكثير منك، الفتاة التي كنت تستمع وأن ترى والدتها تجرها من مؤخرة شعرها وتجلسها جوارك عنوةً وتتركها معك وحدها لتتابع عبثك بها كما تحب.

ابتلع العجوز ريقه بصعوبةٍ وبدا عليه أنه سيسقط خوفًا في الحال دون أن يلمسه أحد.

تركه فادي واتجه نحو الآخر قائلًا:

- دارين.. لُعبتك الحُلوة التي أعجبك نحرها ودعوتها لمركزك الخاص لتشرح لها حبك، وفي النهاية هربت المسكينة بقميص ممزق وذكرى جريحة!

فتح سمير فاه ليتكلم، ليرجوها أن ترحمه من الأهوال التي يحياها منذ أن تسلل ليلًا من نافذة مكتبه الخاص داخل مركز الاستشارات الأسرية غير المُرخص، ذاك الكيان الأسود المُفزع، ظلام فوق ظلام، التف حول جسده وملأ رئتيه ففقد الوعي من فوره، وعندما استيقظ وجد نفسه مُقيدًا في هذا النفق عَفِنَ الرائحة، جواره هذا العجوز مقيدٌ مثله وكلاهما يحاولان الصراخ وطلب النجدة لكن حناجرهما لا تستجيب وأطرافهما فقدت قدرتها على الحركة.

يجلسان في الأصفاد بنظراتٍ مرتعبةٍ وفي صمتٍ تام وذلك الكيان الأسود يحيط بهما ويطوف في سماء النفق يتشكل أجزاءٌ منه على شكل وجه إنسان ويعود إلى طبيعته الهُلامية من جديد!

تقدم فادي نحو دارين وأشار إليهما هامسًا:

- الطفلة تنتظر الوعد.. لتتحرر.

نظرت له مشتتةً فابتسم ورفع ساعده الأيسر وبدأ يحرك أصابعه في الهواء بتناغمٍ كمن يعزف مقطوعةً موسيقيةً عذبةً لا يسمعها سواه، بينما يُغلق عينيه مُستمتعًا بالعزف، مُتمتمًا بحروفٍ لم يفهمها أحدٍ منهم، وعندما انتهى، وبخفةٍ، ضرب جبين دارين بسبابته بين حاجبيها تمامًا وعاد للعزف في الهواء من جديد.

بينما دارين قد وجدت نفسها تتقدم نحو الرجلين دون إرادتها، وكأنها مدفوعة بقوةٍ أكبرَ منها، عيناها تقدح شررًا، متسعتان على نحوٍ يؤلمها لكنها فقدت سيطرتها الكاملة على جسدها.

دقائق مرت لا تذكر عنها شيئًا، دقائق سُرقت ذكراها من عقلها فلم تعِ إلا وهي جاثيةٌ فوق صدر سمير يوسف وحلقه يُعتصر في قبضتها، وجهه أزرق شاحبٌ وعيناه جاحظتان.

نظرت حولها بذهولٍ لتعثر على جثة مُسعد هو الآخر مُلقى على ظهره شاحبًا متسع العينين برعبٍ وقد فارق كلاهما الحياة بيدها.

وفي تلك اللحظة سمعت وقع أقدامٍ كثيرةٍ تنتشر من حولها، وعندما رفعت رأسها ملتفتةً للخلف بذعر، وجدت مازن جالسًا بين جثتين لامرأة ورجل، أمه وأبيه وتظهر على ملامحه نفس الصدمة والذهول والذعر التي تشعر هي بهم.

بينما فادي مستمرٌ في العزف محافظًا على ابتسامته الخيالية، والحارس الآخر يجر سلسلةً أخرى بقوةٍ مفرطة ليظهر في آخرها «أكرم» مقيدًا بأصفاده!

ظهور «أكرم» المفاجئ أصابهما بشحنةٍ كهربائية جعلتهما ينتفضان فزعًا بعيدًا عن الجثث الأربعة، يناظران أيديهم بدهشة، كيف فعلا ذلك؟!

كان أكرم الضحية التالية لـ «مازن»، ما زالت كرته الصفراء تنتظر التحرر، ولم يتوقف فادي، علت همهماته وأصابعه مستمرةٌ بالتحرك برشاقة فوق البيانو خاصته بداخل عالمه السرمديّ!، بينما التصق خالد بالجدار بعيدًا عن الجميع وقد بعينيه كانت قتلت الرجلين دون أن تشعر وكيف أجهز مازن على أبيه وأمه وقد كانت عيناه أبعد عما تكون عن عيني مازن الذي يعرفهما.

لا يدري ما يدور هنا ولا ما يخطط له فادي الموافي، شُل تفكيره بينما يراقب تحركات فادي بينما يدور بينهم عازفًا مقطوعةً وهميةً في الهواء!

ثم دار دورتين حول نفسه متقدمًا نحو مازن وقبل أن يستكمل استدارته الثالثة ضربه ثانية بسبابته ما بين حاجبيه، ثم أخذ يدور مبتعدًا بابتسامةٍ يراقص حبيبةً وهميةً بيد ويعزف لها الألحان بيدٍ أخرى!

صدر عن مازن خوارٌ مرتفع، قطع المتر الذي كان يفصله عن أكرم بقفزة وقبض على عنقه، وسقطا كلاهما أرضًا، أكرم يداه مقيدتان خلف ظهره ومازن يجثو فوق صدره كالجاثوم، ويعصر رقبته بكلتا قبضتيه، ولكن كثرة الشحوم حول رقبته جعلت منه ندًا صعبًا ولم تُمكن مازن منه بسهولة.

خاصة عندما تشنج أكرم وبدأ يضغط رقبته للأسفل ليزيدها غلظةً برد فعل تلقائيٍّ دفاعًا عن حياته، الهواء ينفد من رئتيه وعينا مازن المُغيب عما يفعل تخبره بأن صديقه تحت سيطرة نفس الكيان الأسود الذي كان يحتجزه في النفق.

لذلك زادوا من تقييده وعزلوه بعيدًا عن البقية منفردًا منذ أن استفاق من ذلك المخدر الذي حقنوه به.

في تلك الآونة كان فادي يفعل بـ «دارين» ما فعله مع مازن، دار حولها بينما يتمتم بكلام لا تفهمه، ثم عاد يضربها بين حاجبيها لتستدير تجاه « خالد» وتتقدم نحوه، تشبثت بعنقه فدفعها، كانت أقوى مما يستطيع منطقه أن يتخيلها، بالأحرى لم تكن هي!

دفعته لها كانت قويةً لكنها كانت متشبثةً بملابسه فجذبته معها ليسقطا سويًا، جثمت فوقه وأطبقت بأصابعها وأظافرها حول عنقه وللمرة الثانية يتأكد خالد بأنها لم تكن هي!

نفس اللحظة كان أكرم يكافح كـكفاح خالد، لكن فجأةً عقله التقط الحل، لم يعد يضغط رقبته للأسفل أو يدفع بجسده ليُسقط جسد مازن عنه.

بل أخذ خطوةً عكسيةً مُستغلا انحناء رأس مازن قريبًا منه، ودفع نفسه للأعلى قدر ما يستطيع الوصول إلى أُذن مازن ومن بين لهاثه بدأ يتلو آية الكرسي سريعًا.

تشنجت أصابع فادي في الهواء لكنه لم يتوقف، فقط تقلص وجهه واختفت ابتسامة وربما ترك حبيبته أيضًا مُعلقةً في الهواء وحدها!

حربٌ من نوعٍ خاص، بين أصابع فادي وهمهمات أكرم في أذن مازن الذي بدأت قبضته ترتخي رويدًا رويدًا والهواء يتسلل إلى رئتي أكرم مما يدفعه إلى التلاوة بصوت أعلى، وفجأةً سمع الجميع صفعةً مدويةً ثم شاهدوا جسد فادي يندفع للجدار مرتطمًا به.

سقط أرضًا بجلبةٍ قويةٍ بينما صدره ينهت من فرط الإجهاد، وعلامات أصابعَ حمراء قانيةٍ غليظةٍ محفورةٍ على وجنتيه!

أشهر الحارسان أسلحتهما على الفور نحو ثلاثتهم، وتقدم أحدهما نحو فادي يساعده على النهوض!

تحولت القاعة العفنة إلى ساحة حرب، جثث هنا وهناك، وجوه مصدومةٌ وأخرى شاحبة، وأكرم ينهض بصعوبةٍ معتمدًا على ركبتيه فقط

مُحاولًا التماسكِ وعقله يعمل بلا توقف، لقد فهِم نصف الحقيقة عندما شاهد عيني مازن وهو يقتل بيديه العارتين بينما اكتملت الحقيقة في عقله عندما صُفع فادي بطريقةٍ مجهولةٍ وارتطم بالجدار.

لم يكن بيده في تلك اللحظة الرهيبة سوى أن يشرح لهما ما تيقن منه، خاصةً وقد أدرك أن وسائل نجاته قد نَفدت، وأن لحظاته باتت معدودة.

وبصوتٍ ضعيفٍ يرتج صداه بين جنبات صدره هتف أكرم مكررًا الآيات مرةً بعد مرة، حينها ارتج الجبل بخوارٍ مُرعبٍ بينما ساد الظلام فصرخت، حينها شعرت بجسدها يفقد ثقله ووجدت جسدها يسقط ويسقط دون ارتطام، وكأن الأرض قد اختفت فجأة أسفل قدميها وانتهى كل شيء فجأةً كما بدأ!

***

- حمدًا لله على سلامتك.

صوتٌ آدميٌّ، وكفان رقيقتان تتبادلان العناية بها، فتحت عينيها ببطء، السقف الأبيض، الحجرة الرمادية متراصة الأسرّة، الفُرش اللينة أسفل ظهرها المتألم، وامرأةٌ مبتسمةٌ تميل نحوها:

- هل تشعرين بألمٍ في ظهرك؟

همست:

- أين أنا!

- أنتِ في مشفى المجاردة العام، وجدكِ الأهالي قريبًا من موقع الحادث وقاموا بنقلكِ إلى هنا

- أي حادث؟

غمغمت شاعرةً بالصداع يزحف نحو رأسها منتشرًا حتى جبهتها. لامست ضمادة جرحها هناك والذي قد أو شك على الالتئام مستمعةً بتشوش إلى الطبيبة تخبرها بنبرةٍ بدت قلقة:

- ألا تذكرين ما حدث؟

- لا.

ربتت الطبيبة بدفءٍ فوق كفها بحرصٍ مُتابعةً:

- ربما هي صدمةٌ مؤقتةٌ نتيجة ارتطام رأسك بالصخور وستزول مع الوقت وتتذكرين كل شيء، لا تقلقي من جرح جبهتك إنه في طريقه إلى الالتئام التام فأنتِ هنا منذ عشرة أيام وجبيرة ذراعك اليمنى عشرون يومًا إضافيًا وتنتهي مهمتها و..

- أنا هنا منذ عشرة أيام؟!

هتفت «دارين» مما جعل الألم يتزايد نابضًا بعمودها الفقري حينما انتفضت لا إراديًا في محاولةٍ يائسة للجلوس.

- ارتاحي من فضلك فالرضوض بجسدك في حاجةٍ للحركة بحرصٍ كي لا تتفاقم.

أعادتها إلى الفراش بحرصٍ وقامت بفحوصاتها لتتأكد من تمكنها من تحريك أطرافها وأصابعها، لا تذكر أي شيءٍ لعدة أيامٍ أخرى، آخر ما تذكره هو اللحظة التي توقفوا فيها للاستراحة في أثناء توجههم إلى الرحلة الجبلية، حتى أنها تذكر اسم المطعم الذي ابتاعوا منه وجباتهم، هذا ما ذكرته لمفوض الشرطة الذي كان ينتظر تحسن حالتها ليأخذ إفادتها عن الحادث.

كانت تستمع إلى الشرطي وكأنه يحكي لها فيلمًا مأساويًا ما لم تره من قبل، أخبرها أن الحافلة قد انقلبت قبل وصولهم إلى الجبل كما يتضح

في الأوراق التي قدمتها الشركة السياحية المسؤولة عنهم، وأن الحافلة لم يكن بها أي أعطالٍ وأن أسباب الحادث مجهولةٌ لديهم، والاحتمال الوحيد والغير مؤكد هو أن يكون السائق قد ترك الطريق الممهد بلا سببٍ واتخذ طريقًا آخر وعرًا، ولم يكن هناك شهود عيان على الواقعة لذلك كانوا ينتظرون شهادتها لعلها تقدم لهم تفسيرًا منطقيًا لهذا اللغز!

لكن نظراتها الحائرة المرتبكة أكدت له تشخيص الطبيبة بأنها تعاني من صدمة ما أفقدتها ذاكرتها إياها وغالبًا تلك اللحظة هي وقت الارتطام، فوجه لها سؤاله الأخير:

- شركة السياحة قدموا أوراقًا تثبت بأنهم اضطروا إلى أن يُرسلوا إليكم حافلةً ثانيةً لأنكم فوتُّم الحافلة الأولى التي استقلها بقية الفوج السياحي، هذا يعني بأن الحافلة هذه كان بها ستة أشخاصٍ بخلافك بما فيهم سائق الحافلة، لكننا وللأسف لم نجد سواكِ، حتى بعد تمشيط الموقع لعدة أيام لم نجد سوى جسد الحافلة المتفحم معظمه ولا يوجد أي أثرٍ لهؤلاء الستة، فهل غادروا الحافلة لأي سببٍ قبل الحادث أم لا تذكرين؟

كانت تحرك رأسها ببطء نفيًا بينما هو يتحدث، كانوا معها أيضًا حتى عادوا من الاستراحة فلا تذكر بعد تلك النقطة هل غادروا أم لا، ولكن لماذا يترجلون ويغادرون من الأصل في مكان كهذا.

بعد انصراف الشرطي سمعت همهماتٍ من ممرضتين عن السباع الساكنة بين الجبال، ومن المحتمل أن يكونوا قد قاموا بسحب الجثث إلى مغارة ما والفتك بهم هناك لذلك لم يجدوا أي أثرٍ لهم ولا لجثثهم، ولا حتى نقطة دمٍ واحدة!

وبعد عشرة أيامٍ أخرى كانت تستند إلى عكازٍ معدني لتجلس في مقعدها بمساعدة مضيفة الطائرة العائدة بها إلى الوطن.

وآخر ما وصلها من معلومات، كان عن طريق زيارة مالك شركة السياحة لها في الفندق بعد عودتها إليه، حينها أخبرها بأنهم ما زالوا مفقودين ولا أحد يعلم هل هم على قيد الحياة أم يرقدون الآن في بطون أحد وحوش الجبل وبأنه -لا محالة- يتحمل جزءًا من اللوم؛ بسبب إهمال مرشده السياحي في التأكد من أن الجميع قد استقل الحافلة، ولأنه هو شخصًا قد استجاب لضغوط صديقه وأرسل حافلةً أخرى لهم وحدهم!

لم يكن صادقًا، كل حرفٍ نطق به يصرخ بالنفاق والكذب، حتى ملامحه فاشلة في التعبير عن الحزن الذي يدعيه، نظراتهُ خبيثةٌ مراوغة، لكن لا شيء تستطيع فعله بينما ذاكرتها معطوبةٌ ضبابية، حقيبة السفر خاصتها لم تفتحها سوى مرةٍ واحدة، ومنذ عودتها سالمةً إلى الفندق كل ما فعلته هو أن أخرجت منها ملابس نظيفة وواضعة بإعياء ملابسها التي كانت ترتديها بإهمالٍ بين بقية الأغراض، وأغلقتها في انتظار السيارة التي ستقلها للمطار.

***

استقبلتها والدتها بضمةٍ ودموع، كانت الضمة الأحبَّ إلى نفسها، ربما لأنها جاءت بعد اشتياقٍ طويل، منذ متى لم تشعر بتلك الدفقة من الحنان والحب ونظرات اللهفة!

أن أحدًا ما يهتم لأمرها ويخشى عليها الألم والمرض، رؤيتها وهي مرتكزةٌ على عصا معدنيةٍ بينما الجبيرة رافعة راية الحادث فوق ذراعها جعلا والدتها تنسى ما حدث بينهما قبل سفرها، ويتدفق شلال حنانها الذي كان قد جف منذ أمدٍ بعيد، فالأزمات أحيانًا تثير العاطفة الخاملة تحت الرماد وتشعل جذوتها مجددًا.

وضعتها بجهدٍ في فراشها بينما سيل من الأسئلة لا يتوقف، ماذا حدث لها وكيف ومتى وأين، ولم تكن «دارين» في حالةٍ تسمح بأن تثير

ذعر والدتها بأن تخبرها تفاصيل ما تذكره عن الحادث، كان هذا سيفتح عليها بابًا لا يُغلق من تساؤلاتٍ جديدة، لذلك قامت بتلخيص الحكاية وأخبرتها بأن الحافلة ارتطمت بصخرةٍ مما جعلها تسقط مصابةً هي ومن معها، والآن أصبحوا جميعًا بخير.

هكذا ببساطة حصلت على ضمةٍ أخرى وقبلةٍ على جبينها كانت هي الأعز على الإطلاق.

وفي المساء فوجئت بزيارةٍ أثلجت صدرها وأنبتت الدمع في عينيها، كانت أمها قد هاتفت «سهيلة» وأخبرتها عما حدث لابنتها وطلبت كأمٍّ أن تأتي وألا تخذلها مُجددًا.

- ألف سلامة لكِ يا حبيبتي.

قالتها «سهيلة» بتعاطفٍ كبيرٍ وهي تراقب الجبيرة والأثر المتبقي من جرح جبهتها والإعياء الواضح بكل حركة تقوم بها.

نظرت لها «دارين» نظراتٍ ممتنةً لحضورها، كانت موقنةً بأنها فقدتها للأبد كصديقة، فهي تعرف معنى ما فعلته بها وكيف جرحت كرامتها وتركت بها ندبةً للأبد.

أطرقت دامعةً لا تدري ما تقول فقط همست شاكرة، وبمجرد أن شعرت بذراع «سهيلة» يلتف حول كتفها بينما هي تتخذ موقعها الأثير على طرف فراشها بكت، بكت بقوة حتى جسدها كان يبكي معها ويختض من شدة الانفعال.

ربما كانت تبكي صداقةً قديمةً خسرتها لأجل طاووس، وربما كانت تبكي ذاكرةً مفقودة، وخوفًا من شيءٍ ما حدث لها وحيدة بينما هي لا تذكره، ربما تبكي فرصتها الأخيرة في أن تحقق لذاتها أي نجاح ولو كان ضئيلًا.

ترى الآن نفسها خاسرةً فاقدةً لأحلامها، وسنين ضاعت من عمرها دون جدوى، وقلبًا ممزقًا مر بتجربةٍ أهلكته وأحرقته عن آخر نبضة به.

ظلت تهذر وتتكلم وتعتذر من بين دموعها، أما «سهيلة» فبداخلها كانت على يقينٍ من أن «دارين» في حاجةٍ إلى أن تعتذر لنفسها أولًا قبل أي شخصٍ آخر، لكنها لم تحاول إيقافها عن الكلام، تركتها تُخرج كل ما بجعبتها لتهدأ.

لكن حديثها عن الحادثة غير مفهومٍ وغير منطقي، لذلك بدأت تقاطعها وتسألها عن التفاصيل.

وكعادتها أعلنت عن عدم اقتناعها بما تسمع، واعتدلت في جلستها مستقيمة الجذع كما تفعل دومًا عندما تُنحي العاطفة جانبًا وتبدأ في التركيز في كل تفصيلةٍ تُقال لها وتحللها من كل جوانبها، وحين توقفت صديقتها عن الكلام قالت بجديةٍ آمرةً غير قابلةٍ للنقاش:

- في الغد سآخذك للطبيب، كل تساؤلاتنا هذه حلها الوحيد أن تستعيدي ذكرى الحادث.

أومأت موافقةً، استحقت قبلةً على وجنتيها، وفي النهاية ساعدتها على الاستلقاء في فراشها متمنيةً لها أحلامًا سعيدةً على وعدٍ باللقاء غد.

خرجت مُغلقةً الباب خلفها وفي طريقها إلى باب الشقة وجدت والدة «دارين» تجلس فوق أريكتها المفضلة أمام التلفاز، فاقتربت منها مودعة، وقد حزمت أمرها، قالت:

- خالتي، أعتذر لكِ عما بدر مني في اللقاء الأخير بيننا، لقد كنت متهورةً للغاية وغاضبة.

راقبت ملامح المرأة عن كثب، خاصةً حين تغضن وجهها وأطرقت، كم بدت عجوزًا للغاية، ضعيفةً للغاية، وبشكلٍ ما قريبة الشبه من

ابنتها، حين تحزن، حين تطرق شاعرةً بالخزي، حين تدمع بضعف، حين تكون وحيدة!

ربما وقتها فقط بدأت تلتمس العذر لصديقتها على هشاشة نفسيتها واحتياجها الدائم لشخصٍ آخر أكثر قوةً يقودها، ولماذا هي ضحية هكذا على الدوام! فنحن نشبه أمهاتنا بشكلٍ ما مهما حاولنا أن نبدو مختلفين.

- لا عليكِ يا «سهيلة»، فقط ابقي مع ابنتي ولا تتركيها وحدها!

لا تعلم «سهيلة» لماذا فهمت العبارة بشكلٍ آخر، لماذا سمعتها «لا تتركينا وحدنا»!

***

اليوم التالي مساءً كانت ترتدي ملابسها استعدادًا للذهاب إلى «دارين» واصطحابها إلى الطبيب كما اتفقا، لكن رنين الباب المتواصل جعلها تنتفض متوقعةً أن تكون مصيبة ما، هل البناية آيلةٌ للسقوط ويطرقون الباب عليها بتلك الطريقة لتهرب أم غيَّر زوّار الليل عاداتهم وباتوا يقتحمون البيوت في الثامنة مساء!

أغلقت كنزتها بإحكامٍ واتجهت إلى الباب تفتحه مستعدةً لسيل من الشتائم التي ستوجهها لمن يضغط الجرس بتلك الطريقة!

- « دارين» ...!

اقتحمت الباب متكئةً على عصاها ودخلت دون إذن بينما وجهها تشع منه الحمم المتفجرة متسائلة:

- أنتِ وحدك أليس كذلك؟

تلفتت «سهيلة» حولها بدهشةٍ ثم أعادت النظر إليها وتومئ برأسها تجيبها:

- تعلمين أن لا أحد يزورني منذ قاطعتني عائلتي تأديبًا لي؛ لأنني تجرأت وطلبت الطلاق لسببٍ تافه!

لكن «دارين» كانت تبدو وكأنها في عالمٍ آخر، تخلصت من عصاها وفتحت حقيبتها، أخرجت منها مسودةً مكتظةً بالأوراق ومدت بها يدها إلى «سهيلة» قائلةً بانفعالٍ وترتجف:

- لقد تذكرت، تذكرت كل شيء يا «سهيلة»!

أطرقت «سهيلة» بعينيها إلى المسودة في يديها وسحبتها منها وهي تعود بنظراتها إلى وجهها مرةً أخرى متسائلةً بعدم فهم:

- لمن هذه المسودة وما علاقتها بما تقولين؟!

تلفتت «دارين» حولها برهبة، قالت بنبرةٍ مرتعشة:

- هذه المسودة بها كل ما مررت به في الجبل، لم يكن هناك حادثٌ من الأصل، عندما وجدتها بين أغراضي في الحقيبة وبدأت في قراءتها تذكرت كل شيء!

ساعتين متواصلتين لا يرف لها جفنٌ حتى أوشك الدفتر على الانتهاء، رفعت رأسها أخيرًا متسائلةً ببلاهة:

- متى كتبتِ هذه الرواية؟!

- لم أكتب سوى المقدمة فقط، صفحاتٌ قليلةٌ في الطائرة ومثلها في الحافلة!

ابتسمت «سهيلة» غير مصدقةٍ وتلفتت حولها علامة على ذهولها مما تنطق به صديقتها وقالت متفكهة:

- «دارين» إنها فكرةٌ جيدة صدقيني لكنها لا يمكن أن تخرج عن كونها فكرةً بين دفتي كتاب.. فقط.

اقتربت «دارين» منها حانقةً وتقول بقوة:

- أقسم لكِ إن كل حرفٍ هنا قد حدث لنا بالفعل.. «خالد» و«مازن» و«فريد» قدمهم «فادي الموافي» أُضحية للشيطان، لا أعرف ماذا حدث لأكرم ومازن لكن الشرطة لم تجدهما.

صدرت عن «سهيلة» تنهيدةٌ عميقةٌ وظلت صامتةً ترمق التغيرات الطارئة على ملامح «دارين» وتحركاتها العصبية الخائفة، فقررت أن تهدأ لتتعامل مع الأمر بروية، الفتاة أمامها مقبلة على الدخول في حالة انهيارٍ عصبي، خاصةً وأنها تتلفت حولها طيلة الوقت وكأنها تخشى شيئًا ما غير مرئيٍّ.

تناولت يدها بين كفيها وضغطت عليها قليلًا لتمنحها بعضًا من دفئها ثم قالت بتمهل:

- «دارين» حبيبتي، أعتقد بأنك في حاجةٍ لزيارة طبيبٍ نفسي، الحادث الذي تعرضتِ له لم يكن هيِّنًا، يبدو أن عقلك صنع لكِ وهمًا ثلاثي الأبعاد في أثناء بقائك قيد الغيبوبة بعد الحادث لعشرةِ أيامٍ كاملة، وجعلك تعيشين فيه كل تفاصيله فصدقتِه وتركتِ نفسك للوهم حتى تملك منكِ وصار حقيقة، لكنها حقيقةٌ زائفة، صدقيني.

زاغت نظراتها، احتدمت المشاعر بعينيها، ليس وهمًا، مستحيلٌ أن يكون وهمًا، سحبت كفها من بين كفي «سهيلة» واضعةً إياها فوق الدفتر الكبير قائلةً بثقة:

- إن كان وهمًا صنعه عقلي في أثناء الغيبوبة، فمن كتب تفاصيله هنا في الدفتر، مع العلم بأن الفكرة لم تأتيني إلا وأنا في الطائرة كما أخبرتك؟!

رفعت «سهيلة» كتفيها باحثةً بعقلها عن إجابة ثم قالت بشرود:

- ربما قمتِ بكتابة كل هذا قبل أن تشتعل النيران في الحافلة.

- في ثلاثِ ساعات فقط، هل تصدقين نفسكِ؟

- «دارين» إن كان عقلك لديه هذه القدرة على خداعك، فلماذا لا تكونين قد قمت بكتابتها في العام الذي منحك إياه ذلك المدعو «فادي» واصطحبتِها معكِ لتسلميها له هناك كما اتفقتما!

كانت «دارين» تنظر لها ذاهلةً مدهوشةً من تفسيرها المجنون، لا ليس تفسيرها هو المجنون، إنما هي تظن أنها تتحدث مع مجنونة، مجنونةٍ تكتب روايةً وتنساها، بل وتصطحبها معها على متن طائرةٍ وتبدأ كتابتها من جديد وكأنها لم تَخطُطْ فيها حرفًا من قبل، كيف يُعقل هذا؟!

- «سهيلة» هل أنا مجنونة في نظرك؟

أسرعت «سهيلة» تشد على كتفيها قائلةً معتذرة:

- لا يا حبيبتي، أنا آسفة. لو كنت عبرت عما يدور بداخلي بشكل خاطئ، كل ما قصدته أنكِ مررت بأسوء الظروف لعامٍ كامل، ما فعله بكِ «خالد» ثم ابتعادنا وخصامنا وبقيتِ وحدكِ تمامًا تجابهين الدنيا في حرب لم تكوني مستعدةً لها نفسيًا، لذلك من الجائز جدًا أن تكوني أخرجتِ كل ما يعتمل بداخلك من ألمٍ في هذا الدفتر طوال هذا العام ثم سقط من ذاكرتكِ لسبب ما، ربما لرغبتك الدفينة في نسيان كل هذا الألم!

ساد الصمت بينهما كضيفٍ مُرحبٍ به، «دارين» ترفع عينيها عن الدفتر، بينما صديقتها تحدق إليها بنظرات ترجوها أن توافق على زيارة الطبيب.

تراخت كفاها في حجرها علامةً على الانهزام أمام نظرات «سهيلة» القوية بحجتها الجاهلة بما عايشته «دارين» بالفعل.

وعندما نظرت إلى كفيها وقعت عيناها على إصبعها التي قام «فادي» ببترها، رفعت كفها تراقبه، ولأول مرة تنتبه إلى أنه كان هناك كما عهدته، سليمًا معافى.

تابعت «سهيلة» نظراتها إلى إصبعها فتذكرت هذا الجزء المكتوب في الرواية فقبضت بتلهفٍ كالغريق الذي يتعلق بقشةٍ على إصبعها قائلةً بانتصار:

- نعم، إصبعُكِ كما هي، لقد بدأتِ تدركين الحقيقة يا صديقة!

قالتها «سهيلة» بفرحةٍ عارمةٍ واحتضنتها بقوة قائلة:

- لا بأس، لا بأس. ستبدئين في اكتشاف الحقائق بالتدريج، هذه إشارة جيدة.

انسحبت «دارين» من بين يدي «سهيلة» ببطءٍ وقد بدت نظراتها منطفئة، نهضت واقفة ومدت أصابعها تفك أزرار سترتها، وعندما انتهت بينما الأخيرة تراقبها بعدم فهم، وجدتها تقوم بتعرية كتفها الأيمن وأشارت بعينيها إلى الضمادة أعلى ساعدها مغمغمة:

- المشفى منحتني تقريرًا بإصاباتي، وهذا الجرح ليس من بينهم.

فحصته « سهيلة» بعينيها عن بُعدٍ متفهمة ما تُشير إليه، رفعت كتفها قائلة:

- قد يكون مجرد جرحٍ بسيطٍ و..

- وماذا؟!

صاحت «دارين» وقد عادت تشتعل مجددًا، كلما حاولت «سهيلة» تهدئتها فشلت، تركتها ترتدي قميصها كيفما اتفقا لتعود إلى محاولاتها

في جعلها تجلس جوارها، لكنها كانت قد خرجت عن السيطرة، لا تتوقف عن الهذر بالكلام:

- حسنًا يا «سهيلة» كل ما حدث لي وهمٌ، أنا كتبت الرواية وأسقطها من ذاكرتي، جبل حِرفة أساطير، لا وجود للشيطان، الجثث أكلتها السباع، حتى الجرح الوحيد الذي هو دليلي الوحيد تخبرينني أنه جرحٌ بسيطٌ ممكن يحدث لأي سببٍ آخر، لم تتركي سوى «أم سهل»! لماذا لم تخبريني بأنها وهمٌ هي الأخرى؟!

فاض الكيل بها، يبدو أن طبيعتها النارية المقتحمة لا تزال تعمل، بل لم تنطفئ أبدًا وكأن ما حدث في الماضي حينما جازفت بالتدخل للإيقاع بـ «خالد» لم تتعلم منها التروي بعد.

- لا لن أخبرك أنها وهمٌ قد اخترعه عقلك يا «دارين»، فقط سأسألك لماذا كان اسمها «أم سهل» بالذات، هل لهذا علاقةٌ باسمي؟!

وكأنما سكبت البنزين فوق النار المشتعلة، تراجعت «دارين» خطوةً للخلف كمن تلقى ضربةً موجعة، وبدأت تهمس:

- لا.. لا.. لا علاقة، ليست وهمًا.. لا.. لا، لقد كتبت لي رقم هاتفها يا «سهيلة» لقد كتبته لي لكنني أضعته!

كانت دموعها غزيرةً كالمطر، بينما تدور على عقبيها تبحث عن حقيبتها الأثيرة متابعةً:

- كانت هنا.. كانت هنا لكنني أضعتها.. أضعتها!

انهمرت دمعات «سهيلة» وقد أُسقط في يدها، للمرة الثانية تشعر بالعجز مراقبةً لصديقتها وهي تفض حقيبتها فضًا، حتى تكاد تنتزع القماش الداخلي الذي يُغلفها باحثةً عن وريقة لن تجدها لأن من كتبتها لها ماهي إلا صنيعة وهم.

مسكينة صديقتها؛ حياتها عبارة عن فقدٍ ثم وهمٍ يعوض ذاك الفقد!

فقدت أباها فوقعت في وهم «خالد»، كانت تريد تعويض «سهيلة» فاخترع لها عقلها «أم سهل»، كانت تريد نسيان الألم فسكبته كله في دفتر ثم نسيته.

للمرة الثانية تدفعها للانهيار بيديها، متى ستتوقف عن إلحاق الضرر بها؟ متى؟

- انظري، لقد وجدتها!

رفعت «دارين» يدها بقصاصةٍ صغيرةٍ خُط فوقها رقمٌ ما، ضيقت عينيها وهي تنظر إليه مقتربةً حتى تناولتها بين أصابعها، أرقامه تبدأ بكود شركة اتصالاتٍ في المملكة!

من الجائز أن يكون رقم الفندق هناك مثلًا!

همست بتشتت:

- بسيطة نطلب الرقم لنتأكد من هوية صاحبه.

جاءها رنين طويل واستمر لثوانٍ دون إجابة، بينما خافقُ «دارين» المنتصبة جوارها أصابعها تتلمس الهاتف في كف «سهيلة» كأنما ترسل رسالةً مشفرةً إلى «أم سهل» مفادها « أرجوكِ أجيبي، أرجوكِ كوني حقيقة»

تنهدت «سهيلة» بأعصابٍ متوترةٍ وقد فقدت الأمل، وقبل أن تُغلق الاتصال أتاها ذاك الصوت الرجولي:

- السلام عليكم

اتسعت عينا «دارين» من المفاجأة، وكأنما هي الأخرى كانت على يقينٍ من أن الطرف الآخر لن يجيب أبدًا، تمالكت «سهيلة» مشاعرها سريعًا وتحدث باتزان:

- من فضلك هل هذا هاتف «أم سهل»؟

لم يأتها رد، فقط أنفاسٌ خشنةٌ ودمدمةٌ غير مفهومة، وأخيرًا أتاها الصوت ثانيةً ولكن النبرة حملت الكثير من التهديد قائلًا:

- من أنتِ، وكيف حصلتِ على رقم زوجتي الخاص؟!

قالت «سهيلة» كاذبة:

- أنا «دارين» هي من أعطتني الرقم على متن الطائرة الشهر الماضي، كانت قادمةً من القاهرة في زيارة لابنها الأصغر في الجامعــ..

- هل أنتِ مجنونة! زوجتي توفاها الله منذ ثلاثة أعوام، كيف منحتكِ رقمها الشهر المنصرم؟

نظرا إلى بعضهما البعض ببلادةٍ بينما أغلق الرجل المكالمة بعصبيةٍ بعد أن أمرها بألا تتصل مرة أخرى وإلا..

إلا ماذا، لم تعد تفهم شيئًا، لكن قشعريرةً زحفت على طول ظهرها، كلوحٍ من الثلج جعلها تبتلع لسانها!

نعم هذا لا يعني أن كل ما قالته «دارين» كان صحيحًا، معلومة واحدة فقط، لكنها معلومة جعلت خصلاتها الصغيرة أسفل شعرها تنتصب وربما لو نظرت في المرآة لوجدت بها اللون الأبيض قد اكتسحهم بجدارة!

ولكن هل تنهزم هكذا ببساطة:

- أخبرتك تلك المرأة أن ابنها هذا كان لديه قناةٌ على منصة اليوتيوب باسمه، وله مقطع فيديو يخبر متابعيه بأنه سيصعد الجبل في الليل، أليس كذلك؟!

- نعم.

- سنبحث عنها.

جلستا متجاورتين فوق الأريكة تنظران إلى اللاشيء بشرودٍ وبعض الخوف يدور في الفراغ حولهما لأكثر من عشر دقائق بعد انتهاء المقطع وقراءتهما للتعليقات أسفل منه التي تتحدث عن مقطعٍ آخر لأحد أصدقائه ورابطٍ أسفل التعليق بخبرٍ أكيد عن قيام «سهل» بالانتحار بعد قتل والدته في اليوم التالي من عودته من الجبل!

كان الصمت مهيبًا لذا لم يكن من السهل كسره حتى فعلت «سهيلة» وقد توصلت إلى قرار:

- استمعي إليّ، لن أُصر على ذهابك للطبيب، وسننسى كل هذا سواء كان حقيقيًا أم وهمًا، وبالنسبة لكِ ستعودين إلى حياتكِ بشكلٍ طبيعي، وهذه الرحلة المشؤومة أيًا كانت فلن تفكري فيها مرةً أخرى.

همست «دارين» بخفوت منزويةً جوار مسند الأريكة برهبة:

- والمسودة؟
- ستعرضينها على دور النشر ولديّ يقينٌ بأن أحدًا ما سيتبناها!
- أرجو أن يكون وهمًا صنعه عقلي كما تقولين!
- وأنا أيضًا!

****

كانت مطرقةً برأسها تبتسم ابتسامةً سعيدة، منكفئةً فوق سطح مكتبها داخل غرفة نومها، وتعمل!

لا تصدق أن المسودة قد تحولت إلى كتاب مطبوع باسمها ينام مسترخيًا الآن فوق سطح المكتب أمامها كما يفعل في عدة مكتبات أخرى.

بل لا تصدق أن «سهيلة» استطاعت إقناع مجلس إدارة المجلة بالموافقة على عودتها للعمل ثانيةً، لكن هذه المرة ستقتصر على القصص فقط، لن تتسبب في فضائح وقضايا ضد مكان عملها مجددًا، ستبدأ العمل على فكرةٍ جديدةٍ منذ الآن..

توقفت أفكارها عندما طرقت والدتها الباب ومن ثم دلفت إليها تحمل طبقًا فاكهةٍ تقطر المياه من أطرافها، انحرفت عيناها نحو سجادة الصلاة المتواجدة لأول مرةٍ في غرفة ابنتها وانحنت تقبلها واضعةً الصحن أمامها قائلةً:

- هل تكتبين قصةً جديدة؟

قالت متأففة بحنق:

- ما زلت أحاول العثور على فكرةٍ ما.

زمت والدتها شفتيها وقالت بتفكير:

- ما رأيك أن تكتبي قصةً عن والدك رحمه الله؟

أومأت دارين مبتسمةً بينما يخيم شبح الحزن حول ابتسامتها، ونهضت واقفةً مقتربةً من والدتها تربت على كتفها قائلة بتروٍّ:

- أمي، عمي كان يُبالغ. لقد تُوفيَّ أبي في حادث سير، يحدث هذا كل يوم لكل البشر، ليس لكِ علاقة بموته.

أطرقت أمها بأسى، إنها تعلم بأنه حادث سير، لكنها هي التي طلبت منه أن يذهب ليشتري أغراض المنزل لأنها نفدت ولأنه لم يكن يسمح لها بالنزول.

رفعت رأسها إليها بينما تغالب دمعها تقاوم غصة حلقها:

- أعلم، وسامحيني لأنني عندما أغضب أتفوه بكلماتٍ غريبة، لا أعلم كيف كنت أقول لكِ وأنتِ طفلةٌ بأنك شؤمٌ علينا.

- لا بأس يا أمي، لا بأس.

قبلتا والدتها وانصرفت تاركةً لها صحن الفاكهة، تناولت ثمرةً وشرعت تبدأ في قصةٍ جديدة، بحث عن قلم فلم تجد واحدًا، نهضت تبحث حولها حتى وقعت عيناها على ذاك الشيء الساكن فوق منضدة الزينة خاصتها.

اتسعت حدقتاها وهي تُدقق بذلك القلب الطاووسي الموضوع بحرصٍ هناك، مدت أصابعها بحرصٍ تسحبه ورفعته أمام الإضاءة، لقد كان هو نفسه.

هديتها لـ «خالد».. قلب الطاووس، أتكون قد ابتاعت لنفسها شبيهًا له دون أن تدري؟! ولم لا؟!

***